مكتبة 1651

رواية

ليو جين يون

طلاق على الطريقة الصينية

ترجمها عن الصينية:

أحمد السعيد - يحيى مختار

المتوسط

بيت الحكمة BAYT ALHEKMA

طلاق على الطريقة السنية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

حقوق النسخ © 2020 منشورات المتوسط - إيطاليا.

مكتبة 23 1 2024
t.me/soramnqraa

我不是潘金莲 by"刘震云"
Copyright © 2016 by Changjiang Literature and Art Publishing House Co., Ltd
This edition is authorized by Changjiang New Century Culture and Media Ltd. Beijing
For information address: A-1905 Times Fortune, Jia NO.6,
Shuguangxili Chaoyang District, Beijing, People's Republic of China.
Arabic copyright © 2020 by **Almutawassit Books**.

This Arabic translation published in 2020
Copyright © Bayt Alhekma Cultural Investment Company

长江出版传媒 长江文艺出版社

المؤلف: ليو جين يون / المترجم: أحمد السعيد - يحيى مختار
عنوان الكتاب: طلاق على الطريقة الصِّينيَّة / الطبعة الأولى: 2021.
تمت الترجمة بشركة بيت الحكمة للترجمة
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-68-0

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مكتبة 1651

ليو جين يون

طلاق على الطريقة الصينية

ترجمها عن الصينية:
أحمد السعيد - يحيى مختار

بيت الحكمة
BAYT ALHEKMA

المتوسط

كان المَثَلُ القديم على حقٍّ حين قال:

"واحدٌ يُبعثِرُ الحبوبَ، وألفٌ خلفَهُ يلتقطُونَها، ولا يلتقطُونَها كلَّها".

تقديم(*)

حِرْفَةُ التفكيك ومهارةُ الوَصْل

مكتبة
t.me/soramnqraa

يقول أحدهم واصفاً الأديب الصِّيْنيّ ليو جين يون: "هو الرجل الأخفُّ دماً في الصِّيْن"، واقترن به هذا اللقب بين القُرَّاء، ثمَّ صُنِّف في خانة الكاتب الساخر أو الأديب المَرِح، ولكنْ، عندما يُطرَح الأمر أمام النُّقَّاد ودارسي الأدب في الصِّيْن، والمهتمِّين بالأدب الصِّيْنيّ خارجها، فالوَصْف يختلف كثيراً، ولا يكتفون بصفَتَي المَرِح أو الساخر في وَصْف أدبه، الذي يمثِّل الجيل الأشهر للأدب الصِّيْنيّ في الخارج حاليَّاً، والذي يُعرف بجيل الرُّوَّاد، بل يتحدَّثون أكثر عن حِرْفَة ليو جين يون في تحليل المجتمع، من خلال طبقاته الدُّنيا، وتفكيك سِمَات الشَّخصيَّة الصِّينيَّة بلا عوائق ثقافية، ولا قيود محلِّيَّة، وكلُّ هذا في إطار من السلاسة وقوَّة السَّرْد وحبكة القَصِّ. ولعلَّ هذا السبب هو ما أسهم في انتشار أدب ليو جين يون خارج الصِّيْن ورواجه في العديد من دول العالم، وهي ميزة الكتابة حول أمور مشتركة للبشر في كلِّ مكان، والبُعد عن الإغراق والانزلاق في شبَاك الثقافة المحلِّيَّة. ففي مرحلة انتشار الأدب الصِّيْنيّ بالعالم التي نشهدها مؤخَّراً، تعكس أغلب أصوات القُرَّاء بالخارج حول الأدب الصِّيْنيّ المعاصر، معضلة زيادة جرعة محتوى الثقافة المحلِّيَّة، وعدم استيعاب القُرَّاء لكثير من التفاصيل داخل الروايات الصِّينيَّة، لعدم إلمامهم الجيِّد بالكثير من تفاصيل ثقافة المجتمع الصِّيْنيّ، فمويان مثلاً عندما يكتب عن مسقط رأسه قاومي في مُقَاطَعَة شاندونغ، يُدرِج العديد من الأساطير الصِّينيَّة التَّقليديَّة التي تتطلَّب قارئاً مُطَّلعاً على هذا الجزء من الثقافة الصِّينيَّة، لتكتملَ رؤيته حول القصَّة بشكل كامل، ولعلَّ

---

*)بقلم المترجمين.

هذا كان سبباً أن يكون الأكثر ترحاباً بين القُرَّاء - العاديِّيْن - في الخارج من الكُتَّاب الصِّينيِّيْن، وهم: ليو تسي شين صاحب ثلاثية "الثلاث جثث"، والتي انتشرت بشدَّة في أمريكا، وهي من أدب الخيال العلمي، والكاتب "ماي جيا" الذي يكتب في الجاسوسية، والذي صُنِّفَت بعض رواياته - مثل: "الشيفرة" - بأنها من أفضل روايات القرن العشرين حسب الواشنطن بوست، وليو جين يون الذي يبتعد عن الإغراق في المحلِّيَّة في روايات تبدو خفيفة وسلسلة ومثيرة لشَغَف القارئ، لكنها لا تُهمل الجانب المعرفي السهل عن الصِّيْن، ولا تميل للتسطيح والتفاهة. والحديث هنا لا يتعلَّق بالتقييم الأدبي وجودته، وهو الأمر الذي يحتاج لمتخصِّصين، لكننا هنا بصدد الحديث عن "الانتشار" والقبول لدى غير المطَّلع على الثقافة الصِّينيَّة فقط.

وُلد ليو جين يون في مُقَاطَعَة خنان بوسط الصِّيْن في مايو 1958، وبنظرة لسيرته الذَّاتيَّة نجده قد تخرَّج في قسم اللغة الصِّينيَّة في جامعة بكين العريقة عام 1982، وَدَرَسَ الأدب في معهد لوشون لمدَّة ثلاث سنوات، وَنَشَرَ عمله الأوَّل، وهو قصَّة "البرج" عام 1978، ويعمل حاليَّاً محاضِراً للأدب الصِّينيّ بجامعة الشعب الصِّينيَّة، بجانب تفرُّغه للكتابة كأديب من الفئة (أ)، تبعاً لتصنيف اتِّحاد الكُتَّاب الصِّينيِّيْن، وهو سيناريست شهير، وواحد من الأصوات الأدبية الأكثر قُرباً من الجمهور. ولكنْ، في سيرة ليو جين يون نقطة انطلاق وتفرُّد هي التي أثَّرت في سِمات أدبه وإنتاجه لاحقاً، وهي معايشته للثورة الثَّقافيَّة الصِّينيَّة، وكونه ضمن الذين سُمِحَ لهم بالتَّقدُّم لامتحان الثَّانويَّة العامَّة في الصِّيْن للالتحاق بالجامعة بعد انتهاء الثورة الثَّقافيَّة وعودة الحياة للصِّينيِّيْن، إضافة إلى تأثُّره بما عاشه وعايشه في موطنه بتلك القرية الصغيرة وسط مُقَاطَعَة خنان التي تتوسَّط الخريطة الصِّينيَّة، والتي تشتهر بكثرة سُكَّانها وضِيْق حالهم وسوء الأحوال الاقتصادية، وأيضاً تشتهر بين الصِّينيِّيْن بخفَّة دم أهلها وسرعة بديهتهم، وأحياناً البخل أيضاً، وهي مَضْرِبُ المَثَل في ذلك، لكنها بمنظور أبعد قليلاً هي القلب النابض للثقافة الصِّينيَّة، والأرض الكُبْرَى التي تحمل جوهر ثقافتها كما يقولون.

وُلد ليو جين يون لأسرة فقيرة، وعايش خفَّة ظلِّ أهل خنان التي يجابهون بها أيَّ شدائد يلاقونها، وهو نفسه في حواراته الصَّحَفِيَّة ولقاءاته دائم الحديث عن هذا الجانب المؤثِّر في حياته، وهنا تتلخَّص ميزة ليو جين يون وتفرُّده بين جيله المُسمَّى بجيل الرُّوَّاد في الأدب الصِّينيّ المعاصر - وأشهرهم، بالطبع، مويان الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام 2012 - وهي ميزة الذكاء الحادِّ وخفَّة الظِّلِّ وكوميديا الموقف لا الشَّخصيَّات، فهو لا يكتب أعمالاً أدبية، يتعمَّد فيها الخطَّ الفكاهيَّ، بل تنطق شخوصه بهذه الفكاهة والكوميديا، من خلال تصرُّفاتها ومواقفها، بل وتنبض بالتناقضات المثيرة للضحك في رَسْم الشَّخصيَّة نفسها ومسارها داخل العمل أيضاً. ويمكن تصنيف ليو جين يون بأنه الأديب الذَّكيُّ الذي يتَّخذ السخرية والمرح ستاراً، يصل به لأبعد ممَّا يصل غيره، بل ويُحلِّل بهما الشَّخصيَّة الصِّينيَّة المركَّبة، ويُفكِّكها أيضاً، فهو خبير أدبي وحَكَّاء محترف، يُتقن حِرْفَةَ التفكيك ومهارة الوَصْل بين ما تفكَّك، فهو قادر على أن يفكِّك فيلاً لملايين من النمل، ثمَّ يصل بينها برباط غير مَرئيٍّ، فيجعلكَ وأنتَ تقرأ له ترى النملَ دون أن تُدرِكَ وجود الفيل.

تأثَّر ليو جين يون في أعماله بالرعيل الأوَّل للأدب الصِّيْنيّ، وعلى رأسهم عميد الأدب الصِّيْنيّ وصاحب الأثر الأكبر في أدباء الصِّيْن الرائد لوشون (1881-1936) الذي تميَّز بالواقعية الساخرة أو السخرية من الواقع عبر السَّرْد، وكذلك الأديب الصِّيْنيّ الشهير لاوشه (1899 - 1966) صاحب الرواية الشهيرة "الجمل شيانغ تزه"، التي تقطر بالمُبْكِيَات المُضْحِكَات، وغيره من أدباء الصِّيْن، حتَّى إن ليو جين يون نفسه، عندما يُسأل عن تعمُّد الفكاهة في أسلوبه الأدبي دائماً ما يردُّ بأن الشَّخصيَّة الصِّينيَّة ساخرة بطبعها، وتتَّسم بالمرح حتَّى في أسوأ ظروفها، وكلُّ ما يفعله هو نَقْل حقيقة هذه الشَّخصيَّة بلا رتوش ولا إضافات.

يكتب ليو جين يون الروايةَ والقصَّةَ والمقالَ النَّثْرِيَّ والسيناريو والحوارَ، وقد صَدَرَتْ له حتَّى الآن تسع روايات طويلة، هي: ثلاثية "الموطن"، ورواية

"هُرَاء"، ورواية "الموبايل"، وهي أشهر أعماله، وقد حُوِّلت إلى فيلم شهير جدًّا في الصِّيْن، لاقى رواجاً كبيراً، وأصبح من علامات سينما الألفية الجديدة، وقد صَدَرَت "الموبايل" باللغة العربية عن دار بيت الحكمة قبل عدَّة سنوات، ورواية "اسمي ليو يويه جين" وستصدر قريباً بالعربية، ورواية "رُبَّ جملة بعشرة آلاف جملة" صَدَرَتْ بالعربية عن الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، ورواية "طلاق على الطريقة الصِّينيَّة" التي نُقدِّم لها اليوم، وآخر أعماله التي صَدَرَتْ قبل ثلاث سنوات، تحمل اسم: "عصر المتفرِّجين"، إضافة إلى العديد من القصص القصيرة والمتوسِّطة، ومنها: "البرج" و"جهة العمل"، وقد صَدَرَتَا بالعربية عن بيت الحكمة، إضافة إلى "ذكريات 1942"، التي صَدَرَتْ ترجمتها للعربية عن منشورات ضفاف، وهناك أيضاً قصَّته الشهيرة "أرض من ريش دجاج"، التي ستصدر بالعربية قريباً، وبخلاف الأعمال السَّرْدِيَّة هناك أيضاً الأعمال النَّثْرِيَّة، ومنها: "أعمال ليو جين يون النَّثْرِيَّة" في أربعة أجزاء، كما صَدَرَتْ أعماله الكاملة في عدَّة إصدارات عن دُوْر نَشْر صِينيَّة مُختلِفة. وقد حُوِّلَتْ سبعة من أعماله إلى أفلام ومسلسلات، حقَّقت جماهيرية كبيرة في الصِّيْن، وأيضاً كَتَبَ سيناريو العديد من الأفلام عبر تعاوُنه الدائم مع رفيقه السِّينمائيِّ المخرج الشهير فنغ شياو قانغ.

حَصَدَ ليو جين يون الكثير من الجوائز الأدبية الكُبْرَى داخل الصِّيْن وخارجها، وَصَلَتْ حتَّى الآن إلى أكثر من 70 جائزة وتكريماً، وتُرجمت أعماله إلى أكثر من 40 لغة حول العالم، كما تُرجمت أعماله الكاملة إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ومن أهمِّ الجوائز التي حَصَدَهَا ليو جين يون عبر مسيرته الأدبية: جائزة "ماودون" في الأدب، وهي بمثابة نوبل داخل الصِّيْن، عن روايته "رُبَّ جُملة بعشرة آلاف جُملة"، وجائزة "الفارس في الأدب والفنون" من فرنسا عام 2018، كما عُيِّنَ أوَّل سفير شرف لمعرض بكين الدَّوليِّ للكتاب ممثِّلاً للثقافة الصِّينيَّة في الخارج، كما حلَّ ضيفَ شرفٍ على معارِض الكُتُب العربية في كلٍّ من القاهرة والدار البيضاء وأبو ظبي،

كما أنه ضيف دائم على الفعاليات الثَّقافيَّة الكُبْرَى بالعالم، وهو من أهمِّ الممثِّلين للأدب الصِّينيّ في الخارج.

أمَّا عن رواية اليوم، والتي نقدِّمها تحت عنوان: "طلاق على الطريقة الصِّينيَّة"، وهو مغاير للعنوان الأصلي للنسخة الصِّينيَّة الذي هو: "لستُ بان جين ليان". وبان جين ليان هو اسم لشخصية في التراث الصِّينيّ يُضرَب بها المَثَلُ في الخيانة الزَّوجيَّة كما سنعرف داخل الرواية، لذلك فضَّلْنا استخدام عنوان بديل، يناسب القارئ العربي، وقد تُرجمت الرواية إلى أكثر من ثلاثين لغة. ومن اللَّافت أنها صَدَرَتْ بعناوين مُختلفة حسب كلِّ لغة، حيثُ تُرجمت للإنجليزية تحت عنوان: "لم أقتلْ زوجي"، وفي الألمانية صَدَرَتْ بعنوان: "لستُ عاهرة"، وفي الفرنسية والإيطالية صَدَرَتْ بعنوان: "طلاق على الطريقة الصِّينيَّة"، وفي لغات أُخرى - مثل الكورية واليابانية - صَدَرَتْ بعنوان: "أنا لستُ بان جين ليان"، وغيرها من العناوين حسب رؤية كلِّ مترجم وناشر في لغته. كما تحوَّلت هذه الرواية التي أثارت ضجَّة كبيرة في الصِّيْن حين صُدُروها إلى فيلم سينمائي، أثار، بدوره هو الآخر، ضجَّة كبيرة، سببها الطابع السِّياسيُّ الذي تحمله الرواية، وقُربها من دوائر أكثر سخونة في الصِّيْن، مثل تعرُّضها لعقد اجتماعات مجلس نُوَّاب الشعب وغيرها. والفيلم الذي أدَّت بطولته نجمة السينما الصِّينيَّة فان بينغ بينغ، التي شاركت في الكثير من أعمال هوليود، مثل: سلسلة (**X-Men**) وغيرها، ومعها نخبة من أشهر نجوم الشُّبَّاك في السينما الصِّينيَّة، كاد أن يُمنَع من العرض، لولا تدخُّل مسؤولين كبار لتمرير العرض، وحقَّق نجاحاً كبيراً جدَّاً في الصِّيْن، كما عُرض خارج الصِّيْن في العديد من دول العالم بالتزامن مع عرضه ببلده الأصلي، مُترجَماً للإنجليزية بعنوان: "أنا لستُ مدام بوفاري".

للكاتب مقولة شهيرة وَرَدَتْ في أحد حواراته تقول: "إن المآسي في العالم لا يمكن أن تتحمَّل التمحيص والتدقيق، ولو دقَّقْنا فيها، لَوَجَدْنا الكوميديا

في كلِّ مكان". وداخل أسلوب ليو جين يون المضحك، هناك العديد من المواقف والأحداث والحوارات الساخرة، فهو يكشف عن أحداث جادَّة خطيرة بأسلوب سلس مليء بروح الدعابة، ممَّا جَعَلَ الناس ينخرطون في التفكير العميق بعد موجة الضحك، وهو أمر مثير للإعجاب أكثر من مجرَّد كتابة التراجيديا الصريحة. وكما يقال "الفكاهة الكبيرة لا تأتي من الكوميديا، بل من المأساة".

هذه الرواية التي تبدو خفيفة كشطيرة جُبن، يمكنكَ تناوُلها في عدَّة قضمات، تحمل من الدَّسَم ما يحمله خروف مَشويٌّ، تستغرق أيَّاماً لهَضْمِه. القصَّة الرَّئيسة، كما يبدو من العنوان العربي، تدور حول واقعة طلاق، أو كما يبدو من العنوان الصِّينيّ حول واقعة خيانة، وهذا إن كان يبدو صحيحاً، فإنكَ ستكتشف أن الأمر أكبر من ذلك، فنحن هنا بصدد نملة صارت فيلاً، وحبَّة سِمْسِم صارت بِطِّيخَة ضخمة، ونعيش داخل سَرْد مثير وسريع مع قصَّة سيِّدة تسبَّبت لنفسها بالأذى في عَرْضها على زوجها فكرةَ الطلاق المُزَيَّف، لغرض ما، ثمَّ تحوَّل موقف زوجها، وَجَعَلَ الطلاق المُزَيَّف حقيقياً، وسَعْي الزوجة من السطر الأوَّل في القصَّة حتَّى نهايتها إلى إثبات أن الحقيقي كان زائفاً، وأن الزائف يجب أن يكون حقيقياً. ولكنَّ الحكاية ليست بهذه البساطة عندما يكون راويها هو ليو جين يون، الذي يتفنَّن بذكائه ومراوغته في سَحْبنا داخل القصَّة، لنجول داخل الشَّخصيَّة الصِّينيَّة في مواقف مُختلفة، وعلى مستويات متعدِّدة، وننتقل مع البطلة لي شيوليان. وبالمناسبة، فكلُّ اسم ذَكَرَهُ المؤلِّف في العمل يعني في اللغة الصِّينيَّة معنىً يتضادُّ مع ما يتعلَّق بصاحبه، فنحن نُبحر داخل متاهات صِينيَّة، يرسمها لو جين يون بين أروقة المحاكم والمكاتب الحكومية، ونبدأ من قاضٍ في قرية صغيرة ليلة عرسه، ونصل إلى واحد من مسؤولي الدولة الكبار الذين يُسيِّرون شؤون الحُكْم، مروراً بالمُحافِظ والعُمدَة وحاكم المدينة وحاكم المُقَاطَعَة في تسلسل هَرَمِيٍّ، كلُّ مصطبة من مصاطبه تحمل قصَّة وشخصية وشكلاً من الفساد أو التَّمرُّد أو الخوف أو الطموح،

وكأننا نطالع داخل تلك المتاهة خريطة تحليل نَفْسيٍّ موازية، تجذبُنا للمتاهة أكثر، وتشغلُنا بشخوصها. فالمرأة الرِّيفيَّة ذات المشكلة القانونية مع زوجها، تحوَّلت عند ليو جين يون لقضية، تخصُّ الدولة، استمرَّتْ لعشرين عاماً أو يزيد. متاهة داخل متاهة، كلٌّ منها تأخذكَ لزيارة شخصية جديدة، تلتقيها لي شيوليان في رحلتها، فتعرف منها أكثر عن الصِّينْ وما يدور في الصِّينْ، وتعيش أجواء الإدارة والطموح الوظيفي، وأنانية الشخص ومَظهَريَّة المجتمع والدولة، حيثُ يحمل ليو جين يون بيده - التي هي هنا لي شيوليان - مِعْوَلاً صغيراً، يُفتِّت به الطبقة الخارجية للمجتمع، ليجعلَ القارئ يشاهد عَفَنَهُ الدَّاخليَّ وغرابته، والخداع والغشَّ والتزوير والتنافس الكامن تحت قشرة هشَّة. هذه هي القصَّة، وهذه هي المتاهة التي نفقد فيها أفضلية التَّحيُّز لصالح التَّحفُّز الحيادي لما هو قادم. لي شيوليان تعاني وتُضحِك وتُبكي، في قصَّة عن التَّظلُّم ضدَّ كلِّ شيء، تحسبه ظلم الأقارب، لكنكَ تكتشف أنه ظلم أكبر، تحسبه فساد الصغار، فتجده عَفَناً أضخم. نحن أمام طلاق على الطريقة الصِّينيَّة، نعيش معه داخل هَرَم، بناه الراوي والسارد، طبقاته متعدِّدة، وشخوصه كثيرة، وخلفياته متداخلة ومعقَّدة، ونرى علاقة الصِّينيّ بالدِّيْن، وعلاقته بالدولة، وعلاقته بمَنْ حوله، ونرى علاقة البيروقراطيِّيْن فيما بينهم، وكيف هي هشَّة مناصبهم التي يحسبون أنها ضاربة بجذور كراسيها.

هذه الرواية رحلة شاقَّة للبحث عن الثقة المفقودة، لإذابة الجليد الذي يُخيِّم على المجتمع، لتدفئة المشاعر الباردة، واقتحام العزلة بين الأفراد، ولكَسْر الجمود الجاثم على صَدْر النظام. قصَّة طلاق بسيطة، تشعَّبت، لتصبح قضية عامَّة، غيَّرت حياة ومصائر الكثيرين. تحكي عن ثقة أوكَلَتْها البطلة إلى زوجها، ولكنها لم تنتبه إلى مخاطر هذه الثقة العمياء المحفوفة بالمخاطر، فالثقة هي شعور ينبع من العقل والمشاعر معاً، ولكنْ، عندما تشوبها المنفعة، قد تتبدَّل إلى خيانة، فالثقة النابعة من المشاعر فقط أعْمَتْ بصيرتها عن عاقبة الأمر الذي أقدَمَتْ عليه، وتحوَّل أقرب الناس إليها إلى

أَلَدِّ أعدائها. بَحَثَتْ عن ثغرة في القانون، ولكن القانون نفسه هو الذي وَقَفَ لها بالمرصاد. فالثقة التي كانت تبحث عنها والحقيقة التي كانت تسعى إليها هي حقيقة بين شخصَيْن، حقيقة يدعمها الضمير، ولا يدعمها القانون، ولكنها تريد من القانون أن يقف في صفِّها مخالفة للمنطق.

ريفيَّة تريد إثبات زَيْف طلاقها، وأخ يتهرَّب من أُخته، ومسؤول يكيد لآخر، وقَدَرٌ يقود الجميع إلى تصادمات، لم تكن حَتْمِيَّة لولا تدخُّله، ولكنْ، وسط هذا، فنحن نعيش داخل الرواية المتسارعة الأحداث المثيرة للحواسِّ مع حكايات داخلية تجذبنا، لكنْ، لا تثنينا عن سَعْينا خلف الرِّيفيَّة التي تريد إثبات زَيْف طلاقها.

تتَّسم هذه الرواية، كما هي أعمال ليو جين يون، بالحسِّ بالفكاهي في رَسْم الشخوص وتصويرهم من جانب، وتعمُّقه الشديد داخل نفوسهم من جانب آخر، كما يتميَّز أسلوب ليو جين يون أيضاً بالتكرار غير المُفضِي للمَلَل، فهو يُكرِّر سَرْدَ الحَدَثِ في أكثر من موضع، لكن بغيته من ذلك هي مراجعة الأحداث في عقل القارئ، وتثبيتها من ناحية، وتأكيد بعض المعاني من ناحية أُخرى. وقد قسَّم ليو جين يون الرواية إلى ثلاثة أقسام، اختار لها أن تكون مقدِّمَتَيْن ومَتْناً، وهي، أيضاً، أحد دلائل ذكاء ليو جين يون في اختياراته، فالمقدِّمة الأولى تمثِّل أكثر من ثُلث العمل، وتدور حول بداية القصَّة حتَّى نهاية المقدِّمة بحَدَثٍ جَلَل، يُقلِّب مسار الأحداث، ثمَّ تبدأ المقدِّمة الثانية - والتي هي أكثر من نصف الرواية - بعد عشرين عاماً من الحَدَثِ الجَلَل الذي انتهت به الأولى، ثمَّ تنتهي نهاية مُفاجِئة تماماً، يصعب توقُّعها، وكأن المؤلِّف أراد أن يُنهيَها بشكل يترك لقارئه فرصة التَّخيُّل والافتراض والتخمين، ثمَّ يأتي فصل المَتْن الذي لا يتجاوز عُشْر الرواية، والذي هو بمثابة التجميع للفيل المفكَّك داخل المقدِّمَتَيْن السابقَتَيْن له، أو هو الصورة الكاملة بشخصيَّات مُختلِفة لنفس الأحداث التي شهدتْها قِطَع "البازل" السابقة في المقدِّمَتَيْن، أي أنكَ بعد أن تنتهيَ، عزيزي القارئ، من قصَّة لي شيوليان وطلاقها، ستجد

الرواية ما زالت تحوي قصَّة صغيرة، تدور خلال يوم واحد، أسماها المؤلِّف: "المَتْن"، وَجَعَلَ ما قبلها مقدِّمَتَيْن لها، لكنكَ ستكتشف أنها هي التَّتمَّة أو الملخَّص أو الرسالة، وكأنه يُنهي روايته بحكمة مبطَّنة - كما هي عادته الأدبية - مفادُها أن للأحداث وجوهاً كثيرة، وللأمر الواحد نفعه وضرره، وأن الحكايات تتكرَّر بصيغ مُختلِفة وشخصيات متباينة، لكنها تبقى بالجوهر نفسه.

المقدِّمتان والمَتْن هنا أمثلة للتناقض الصارخ. "الشكوى" هي الحلُّ الأمثل للمشكلات على الطريقة الصِّينيَّة. نتيجة الشكوى الجادَّة كانت هَزْليَّة، أمَّا الشكوى الهَزْليَّة؛ فجاءت بنتيجة جادَّة. الشكوى هي مجرَّد غلاف للقصَّة، وتمنح القصَّة فرصة للتَّمدُّد. حالتان للشكوى، وَقَعَتَا بطُرُق مُختلِفة، ونتائج مُختلِفة. في الأولى، لجأت امرأة للشكوى لحلِّ مشكلة ألمَّتْ بها، ولكن حياتها تعقَّدت، وَوَجَدَتْ نفسها في مشاكل حياتية أكبر، وفي الثانية، لجأ آخر للشكوى للتَّخلُّص من مشكلة غير مُلحَّة، وَنَجَحَ في ذلك. وسواء أكانت رواية المقدِّمة والمحتوى المحدَّد للنَّصِّ أم ترتيب نسبة المساحة أم إعداد نتيجة القصَّة، فإنها تُظهر جميعها تبايناً قوياً، وبواسطة هذه المقارنة، أظهرت الرواية جوهر الواقع العَبَثي الموجودة بمهارة بالغة، وأظهر هذا الهيكل المتناقض، أيضاً، سخرية عميقة.

ربَّما يريد الكاتب أن يضع الصُّورَتَيْن أمام القارئ، ليختار بينهما، هل الإصرار والعناد والسعي خلف جواب لسؤال لن يهتمَّ الآخرون لصحَّته من عدمه، وقد لا تُغيِّر إجابته من واقع الحال كثيراً، فقط مجرَّد أن يُثبِتَ الشخص لنفسه أنه على صواب، حتَّى ولو كلَّفه ذلك سنوات عُمُره وجهده وطاقته، أم هل على الشخص أن يمضي قُدُماً، لا يتلفَّت خلفه، ولا يبكي على اللبن المسكوب، لماذا لا أُغيِّر نفسي بدلاً من أن أُغيِّر الآخرين؟ وكما يقال: "النُّضْج هو رحلة مصالحة بينكَ وبين نفسكَ"، "وليس بإمكان أحد تغيير الماضي، فقط يمكننا خَلْق مستقبل أفضل لأنفسنا". فالناس مشغولون كلٌّ بواقعه، والوقت يداوي كلَّ الجراح، وتفكير الشخص في تغيُّر دائم، ودوام الحال من

المحال، ولا يوجد شيء لا يستطيع الشخص العيش بدونه، فالحياة ستستمرُّ مهما حَدَثَ. وعلى الإنسان أن يتعلَّم التَّخلِّي عن خسارة وَقَعَتْ من أجل مكسب قادم. وشخصية لي شيوليان في هذه الرواية تُذكِّرنا بشخصية "ك" في رواية القلعة لكافكا، الذي ظلَّ يحاول طويلاً طيلة حياته أن يدخل القلعة، ولكنْ، دون فائدة، وأيضاً شخصية "جوزيف" في رواية المحاكمة لكافكا أيضاً، الذي ظلَّ يحاول تبرئة نفسه إلى أن مات.

في الرواية لا يوجد شخص سيِّئ بالمعنى الحقيقي، فقط مجموعة من العاديِّينْ، غير راضين، قلقين، مُتخوِّفين، لكنهم جميعاً مُقيَّدين في نفس الإطار، ويصعب عليهم التَّحرُّر. في بنية هذا الإطار، ليس لدى الناس أهداف واضحة، ونادراً ما يهتمُّون باحتياجاتهم النَّفْسِيَّة، هم موجودون فقط لتسليط الضوء على ضعف الإنسان في ظلِّ أنظمة غير منصفة، في ظلِّ الجَشَع البشري والأنانية وقِصَر النَّظَر، والانبطاح الذي يُعدّ النتيجة والمُسبِّب للحلقة المفرَغة في المجتمع المشوَّه الذي نعيش فيه. والأمر الأكثر مأساوية هو أننا نعيش جميعاً في هذه الحالة كلّ يوم تقريباً. البعض مثابر، والبعض الآخر هادئ. لكن المثابرة لن تستمرَّ مدى الحياة، كما أن الهدوء أمر لا يمكن القيام به طَوَالَ الوقت.

يقول الكاتب الإيطالي إيتالو كالفينو في كتابه "ستُّ وصايا للألفية القادمة - محاضرات في الإبداع": "سأُكرِّس محاضرتي الأولى للتعارض ما بين الخفَّة والثِّقَل، وسأقف إلى جانب قيمة الخفَّة". "الخفَّة"، حيثُ تكون ردَّة فعل على ثِقَل الحياة، والرغبة في التَّخلُّص من الجسد الثقيل، والتحليق في عالم آخر، إلى مستوى آخر للإدراك، يمكن معه العثور على سلطة، تُغيِّر وجه الواقع. ومن خلال مراجعة العديد من الأعمال الأدبية العالمية - شِعْراً وروايةً وقصَّةً - يذهب المؤلِّف إلى وجود اتِّجاهَيْنْ متعارضَيْنْ في الأدب، تنافسا خلال القرون الماضية، أحدهما يحاول جَعْل اللغة عنصراً بلا ثِقَل، تَرَفَاً فوق الأشياء، مثل غيمة أو مثل غبار ناعم أو حقل نبضات مغناطيسية،

والآخر يحاول إعطاء اللغة كثافة وثِقَلاً ومَلمسَ الأشياء والأجساد والأحاسيس. وبطبيعة الحال ينحاز كالفينو إلى الاتِّجاه الأوَّل، بل يوصي به في الألفية الجديدة، وعلى الرَّغْم من عدم إنكاره للاتِّجاه الثاني، فإنه يرى أنه يمنح صلابة حتَّى لأكثر التَّأمُّلات الذِّهنيَّة تجريداً، ويضرب مثلاً على ذلك بـ "دانتي" في الكوميديا الإلهية.

بالفعل، حياتنا مليئة بالكثير من الكلمات وطُرُق التفكير الثابتة، ممَّا يجعل من الصعب علينا الهروب من المنظور المعتاد لرؤية العالم خلال تعاملاتنا الحياتية، ويجعلنا نعيش في ظروف ثقيلة وباهتة. وعندما يواجه الكاتب واقعاً ثقيلاً، يجد نفسه مضطرَّاً أن يستخدم منظوراً شخصياً فريداً ومُختلفاً، ليتمكَّن، من خلاله، أن يُبدع كتابات ذات طابع خفيف. والسبب في تفرُّد هذه الرواية عن غيرها هو أن المنظور الذي اختاره المؤلِّف تَحَايَلَ بشكل فعَّال على منظور الخطاب والفكر الثابت في الحياة، ومن ثمَّ نَجَحَ في جَعْل الخفَّة التي بداخلها تتجاوز ثِقَل الحياة الواقعية وهمومها.

الرواية التي بين أيدينا حوارية في المقام الأوَّل، وغير ذلك، فهي تأتي على لسان ضمير الغائب (الراوي)، والحوارات بين شخصيَّاتها هي الدافع والمحرِّك للأحداث، فالشخوص داخلها في حالة دائمة من السَّرْد المستمرِّ، وخاصَّة لي شيوليان التي لم تتوقَّف عن الجدال وبَثِّ شكواها أينما حلَّت، وهي دائماً تثير القيل والقال خلفها حيثُما رَحَلَتْ. كما أن روح الدعابة التي يتميَّز بها الكاتب تتخلَّل الرواية من البداية إلى النهاية، ولكنها كوميديا سوداء في باطنها، وكما قال ميلان كونديرا في كتابة "فنّ الرواية": "حكمة الرواية تختلف عن حكمة الفلسفة، فالرواية بوصفها فنّاً أدبياً، لم تُولَد من روح النَّظَريَّة، وإنما من روح الفكاهة". يقصد بذلك أن يبتعد الرِّوائيُّ عن الذَّاتيَّة والأحكام المطلقة بغية تحقيق ما يُسمِّيه حكمة الرواية التي تتجسَّد في روح الفكاهة. والفكاهة حسب كونديرا ليست نوعاً من الضحك أو السخرية أو الهجاء، وإنما هي "نوعٌ من الهَزْل، يكشف الرِّوائيُّ بوساطته عن العالم في

غموضه الأخلاقي، وعن الإنسان في قصوره العميق في الحُكْم على الآخرين. فالفكاهة هي النشوة التي تثيرها نسبية الموضوعات الإنسانية، هي المتعة الغريبة المتحدِّرة من اليقين بأنه لا يوجد يقين". وكما نعلم، فالرواية هي جنَّة الخيال، حيثُ لكلِّ شخص طريقته في فَهْم الأمور والتعامل معها. وعلى هذا الأساس، تعامل ليو جين يون مع قصَّة لي شيوليان البائسة، حيثُ عَرَضَ معاناتها بلُغة ساخرة أمام القارئ.

وعلى الرَّغْم من وجود بعض الكآبة المحيطة بالسخرية، فإن الرواية، أيضاً، مليئة بأحداث، يغلب عليها طابع البهجة. نجد المؤلِّف يستخدم جملاً بسيطة، مبهجة ساخرة أحياناً، ولاذعة أحياناً أُخرى، يجسِّد بها شخصياته بلُطف وسلاسة، تاركاً الجميع في حَيْرة وسط روح الدعابة المختلطة بالمرارة داخل الرواية، مستخدماً تِقْنِيَّات فنِّيَّة فريدة، تعكس الواقع الاجتماعي والاهتمام بأحوال الناس.

وأخيراً ستجد أن أسماء الشَّخصيَّات في الرواية تتناقض معانيها مع واقعها، فالقاضي اسمه وانغ قوانغ داو، والتي تعني بالصِّينيَّة: الحاكم المُنصِف، لكنه ليس مُنصِفاً هنا بالمرَّة، بل هو مَنْ ظَلَمَ بطلة الرواية، وأوَّل مَنْ دحرج كرة الثلج الصغيرة التي لم يتوقَّع أن تصير في النهاية جبلاً. وهكذا كلُّ شخصية تنعم باسم ليس لها نصيب منه، لذلك آثَرْنا في أثناء الترجمة أن نضيف في الحواشي الترجمة الصِّينيَّة لمعاني أسماء معظم الشَّخصيَّات الواردة بالرواية، حتَّى نُوصِلَ المعنى الذي أراده المؤلِّف كاملاً، كما أضفْنا بعض الحواشي الأُخرى التي تشرح بعض المعارف الصِّينيَّة الواجب الوقوف عليها، لتُفهَم القصَّة على أكمل وجه، راجين أن نكون قد وُفِّقْنا في نَقْل رُوحِ هذا العمل قبل جَسَدِه، وآملين أن يصل من خلال نسخته العربية للقارئ ما أراد مؤلِّفه أن يصل من خلال الطبعة الصِّينيَّة.

الفصل الأوَّل
مقدِّمة / ذاك العام

1

في المرَّة الأولى التي التقت فيها لي شيوليان(*) مع القاضي وانغ قوانغ داو(**)، كان الأخير يبلغ من العُمُر السادسة والعشرين، نحيفاً، أبيض الوجه والجسد، أي كان فتىً ناصع البياض. له عينان واسعتان. وأصحاب العيون الواسعة لهم غالباً حواجب كثيفة، لكن حاجبَيْه كانا خفيفَيْن، لدرجة أنه ليس بهما سوى بضع شَعْرات، فَبَدَا كما لو كان منتوف الحاجبَيْن. وعندما رأتْهُ لي شيوليان لأوَّل مرَّة كاد أن يغلبَها الضحك. ولكنْ، مَنْ يقصد الآخرين طالباً مساعدتهم، لا يمكنه الضحك على حواجبهم. والأمر الذي جاءت تطلب مساعدته فيه ليس بالأمر الهيِّن. أخبرَها الجيران أنه في بيته، فَطَرَقَتِ الباب، طَرَقَتْ حتَّى تخدَّرتْ يدها، ولكنْ، لا أثر لحركة بالداخل. كانت تحمل نصف جِوَال من السِّمْسِم، وبيدها دجاجة كبيرة. تخدَّرتْ يدها من الطَّرْق على الباب، وجناحا الدجاجة أيضاً تخدَّرا من طول الحَمْل؛ فصاحت، وفي النهاية تسبَّب صياح الدجاجة في فَتْح الباب. ظَهَرَ وانغ قونغ داو يرتدي رداء قُضَاة المحكمة على النصف العلوي من جَسَدِه، أمَّا نصفه الأسفل، فلم يكن عليه غير اللباس الدَّاخليِّ. وبخلاف جَسَدِه الأبيض، رأت، أيضاً، كلمة "السعادة المزدوجة" التي ترمز للزواج الحديث مُعلَّقة على الحائط. كانت الساعة قد تخطَّت العاشرة والنصف مساء، وفهمتْ لماذا لم يفتح الباب. ولكنها زارتْهُ ليلاً، لأنها تعرف أنه سيكون في المنزل، وسارت لمسافة خمسة عشر كيلو متراً، ولا يمكن أن تسير هذه المسافة هَبَاءً.

*) معنى اسمها في الصِّينيَّة: اللوتس وسط الثلج، ويشير إلى الطهارة والنقاء.

**) معنى اسمه في الصِّينيَّة: الحاكم المنصف.

تثاءب قائلاً: "عمَّنْ تبحثين؟".

أجابت: "أبحث عن وانغ قوانغ داو".

سأل بتَمَلْمُل: "ومَنْ أنتِ؟".

قالت بكلمات سريعة: "هل خالكَ ابن عمِّ أُمِّكَ هو مادا ليان من قرية عشيرة ما؟".

تأفَّف، وهو يهزُّ رأسه مؤكِّداً؛ فتابعت قائلة: "وهل تعرف أن زوجة مادا ليان تنتمي لقرية عشيرة تسوي؟".

هزَّ القاضي رأسه ثانية؛ فأكملت كلامها قائلة: "وهل تعرف أن الأُخت الصُّغْرَى لزوجة مادا ليان تزوَّجت في قرية هو جيا وان؟".

زاد تأفُّفه، وفكَّر قليلاً، ثمَّ هزَّ رأسه نافياً.

أردفتْ تقول: "قريبة خالتي تزوَّجت من ابن أخي صهر الأُخت الصُّغْرَى لزوجة مادا ليان، وهذا معناه أن بيني وبينكَ صلة قرابة".

عَقَدَ حاجبَيْه مُتجهِّماً وهو يقول: "وماذا تريدين؟".

أجابت: "أريد أن أتطلَّق".

سَمَحَ لها بالدخول، كي تضع جِوَال السِّمْسِم والدجاجة التي لا تتوقَّف عن الصياح، كي تكفَّ عن ثرثرتها، وتغادر مُبكِّراً. جَلَسَتْ بغرفة الضيوف. مدَّت امرأة رأسها من الداخل، ونَظَرَتْ نظرة سريعة، ثمَّ سَحَبَتْ رأسها ثانية.

سألها: "لماذا تريدين الطلاق؟ مشاكل عاطفية بينكما؟".

أجابت: "الأمر أسوأ من ذلك".

سأل متحيِّراً: "هل يوجد طَرَفٌ ثالث؟".

قالت: "الأمر أسوأ من ذلك".

زادت حَيْرته وهو يقول: "لا تقولي إن الأمر وَصَلَ لدرجة القَتْل!".

قالت: "لو لم تتدخَّل، فسأعود وأقتلُهُ".

ذُهِلَ وانغ قوانغ داو، وَنَهَضَ واقفاً، ليصبَّ لها كأساً من الشاي، ثمَّ قال بجِدَّة: "لا يمكنُكِ قَتْله، لو قَتَلْتِه، فلن تحصلي على الطلاق". ظلَّ برَّاد الشاي مُعلَّقاً بيده في الهواء وهو يتابع الحديث: "صحيح، ما اسمكِ؟".

أجابت: "اسمي لي شيوليان".

"وما اسم زوجكِ؟".

= "تشين يوخه".

"وما عمله؟

= "يقود شاحنة في مصنع السماد بالبلدة".

"كم مرَّ على زواجكما؟".

= "ثمانية أعوام".

"هل أحضرتِ معكِ وثيقة الزواج؟".

= "أحضرتُ وثيقة الطلاق". قالتْها وَفَتَحَتْ معطفها، ثمَّ أخرجت من جيبه الدَّاخليِّ وثيقة طلاق.

تسمَّر وانغ قوانغ داو في مكانه، وقال مُندهِشاً: "ألم تتطلَّقي بالفعل؟ أيّ طلاق تريدين؟".

أجابتْهُ بهدوء: "هذا الطلاق مُزيَّف".

أخذ الوثيقة، وظلَّ يتأمَّلها، كانت مهترئة قليلاً من كثرة اللَّمْس، قَلَّبَهَا بيَدَيْه جيِّداً، ثمَّ قال: "لا يبدو مُزيَّفاً، اسمكِ موجود، والاسم الآخر تشين يوخه".

أجابتْهُ: "الوثيقة ليست مُزيَّفة، ولكنَّ الطلاق وقتها كان مُزيَّفاً".

خَبَطَ الوثيقة بإصبعه، وقال: "ليس مهمَّاً هل الطلاق مُزيَّف أم لا، من الناحية القانونية بهذه الوثيقة أصبح الطلاق حقيقياً".

ردَّت بهدوء: "وهنا تكمن المشكلة".

حكَّ رأسه وهو يفكِّر، وقال متذمِّراً: "ماذا تريدين بالضبط؟".

قالت: "أوَّلاً أريد رَفْع قضية، لأثبت أن هذا الطلاق مُزيَّف، ثمَّ أتزوَّج بهذا اللعين تشين يوخه، ثمَّ أتطَلَّق منه".

لم يفهم ما قالت، وحكَّ رأسه ثانية قائلاً: "الخلاصة أنكِ تريدين الطلاق من المَدعوّ تشين يوخه، وبعد هذه المعاناة، فالنتيجة، أيضاً، هي الطلاق، أليس هذا تعذيباً للنَّفْس؟".

أجابتْهُ قائلة: "الجميع يقولون مثلكَ، ولكني لا أرى ذلك".

2

لم يكن تنغيص حياتها والآخرين بالقضايا والمحاكم ذهاباً وإياباً هو تفكيرها من البداية، لأنها بالقضايا ستصل لنتيجة الطلاق الذي هو واقع الآن نفسها. كان تفكيرها هو أن تُنهيَ الأمر بطعنة سِكِّين، طعنة واحدة، تقتل بها تشين يوخه. ولكن تشين يوخه طوله 185 سم، عريض المَنْكِبَيْن ممتلئ الجسد، ولو ذَهَبَتْ لقَتْله، فبالتأكيد لن تتمكَّن منه. تزوَّجتْهُ، لأنها أرادت زوجاً على هذه الشاكلة، قوي البنية عريض المَنْكِبَيْن، ولكنها، وهي تنوي قَتْله الآن، تحوَّلت الميزة إلى عائق. ومن أجل قَتْله، تحتاج لمَنْ يساعدها. وأوَّل مَنْ فكَّرَتْ به هو أخوها الشقيق. اسمه لي ينغ يونغ(*). طوله أيضاً 185 سم، عريض المَنْكِبَيْنْ ممتلئ الجسد، يقود جرَّاره الزِّراعيَّ الذي يتنقَّل به بين القرى والبلدات طيلة النهار، يشتري ويبيع المحاصيل، ويعمل في غرس البذور ورشِّ المبيدات. عادت لبلدتها، وعندما وَصَلَتْ كان أخوها في المنزل يتناول الطعام، رأتْهُ جالساً أمام منضدة الطعام مُنكبَّاً هو وزوجته وابنه البالغ من العُمُر عامَيْن، يأكلون معكرونة مَقليَّة على صوتٍ موسيقيٍّ عالٍ، فَوَقَفَتْ أمام الباب، وصاحت: "لي ينغ يونغ! تعال للخارج، أريد أن أتحدَّث معكَ".

رَفَعَ رأسه عن طبق المعكرونة مُوجِّهاً نَظَرَهُ نحو الباب قائلاً: "يا أُختاه! لو لديكِ ما تودِّين قوله، فلتقوليه هنا".

---

*) معنى اسمه: "دائم الشجاعة".

هزَّتْ رأسها بالرَّفْض، وصاحت ثانية: "هذا الكلام لا أستطيع قوله إلَّا لكَ وحدكَ".

نَظَرَ لزوجته وابنه، وهو يضع الطَّبَقَ، ثمَّ نَهَضَ واقفاً، وَخَرَجَ برفقتها إلى التَّبَّة التُّرابيَّة خلف القرية. كان الربيع قد حلَّ، وذاب جليد النهر أسفل التَّبَّة، وجَرَتْ مياهه.

قالت: "لي ينغ لونغ! ألم أكن جيِّدة معكَ دوماً؟".

حكَّ رأسه قائلاً: "نعم، عندما تزوَّجتُ أقرضْتِني عشرين ألف يوان(*)".

قالت: "إذنْ، سأطلب منكَ طلباً".

أجابها: "قولي ما تريدين".

قالت: "سَاعِدْني في قَتْل تشين يوخه".

تسمَّر الأخ مكانه، فهو يعرف أمر "طلاق" أُخته، ولكنْ، لم يجرؤ على التفكير في أن الأمر وَصَلَ لحَدِّ القَتْل.

حكَّ رأسه قائلاً: "أُختاه! إذا أردتِ أن أقتلَ خنزيراً، فبدون شكٍّ سأساعدكِ، ولكنْ، قَتْل شخص! كلانا لم يَقتلْ من قبل".

قالت: "ومَنْ ذاك الذي يقتل كلَّ يوم، الأمر وَصَلَ لهذا الحَدِّ، لا مفرَّ".

قال: "قَتْل شخص ليس صعباً، ولكنْ، إن قَتَلْتُ شخصاً، سيكون حبل الإعدام هو مصيري".

قالت: "لن أجعلكَ تقتلُهُ، سَاعِدْني في تقييده، وأنا سأطعنُهُ، وحبل الإعدام سيكون لي، لا علاقة لكَ".

---

*) وحدة العُملة الصِّينيَّة. ويساوي الدولار الأمريكي الواحد حاليّاً سبعة يوانات.

قال متردِّداً: "أُقيِّد شخصاً كي تقتليه، ستكون عقوبتي السجن بالطبع".

احتدَّت لي شيوليان قائلة: "هل أنا أُختكَ أم لا؟ أُختكَ أُهينَتْ، وأنتَ تغضُّ طرفَكَ وتدفن رأسَكَ؟ إذا لم تساعدْني في قَتْله، لن أذهبَ وأقتلَهُ، بل سأشنق نفسي".

ارتعب من كلامها، وقال مُتعجِّلاً: "حسناً، سأساعدكِ في قَتْله، متى نُنفِّذ؟".

قالت: "الأمر لا يحتمل التأجيل، فليكن غداً".

هزَّ لي ينغ يونغ رأسه مُوافِقاً، وقال: "فليكنْ غداً، إذنْ، ما دُمْنا سنَقتل، فخيرُ القَتْل عاجلُهُ".

ولكنْ، في اليوم التالي، ذَهَبَتْ لبيت أُمِّها للبحث عن أخيها؛ فأخبرتْها زوجته أنه قاد جرَّاره مساء الأمس، وذَهَبَ إلى مُقَاطَعَة شاندونغ لجَنْي القطن.

اتَّفقْنا على القَتْل، فكيف ذَهَبَ لجَنْي القطن؟ لم يكن يغادر المُقَاطَعَة عندما كان يذهب لجَنْي القطن، فكيف ذَهَبَ لمُقَاطَعَة شاندونغ هذه المرَّة؟ واضح أنه هَرَبَ. تنهَّدت بأسى وهي تفكِّر، فبخلاف أنها اكتشفت أن أخاها الذي سمَّتْهُ أُمُّه ينغ يونغ - وتعني دائم الشجاعة - شخص شديد الجُبْن، واكتشفتْ، أيضاً، أن المَثَلَ القائل: "بالأخ تهزم نمِرَاً، وبالأب تهزم جيشاً" هو مَثَلٌ خاطئ.

فكَّرَتْ في شخص آخر يساعدها على القَتْل، وكان هذا الشخص هو لاوخو(*) جرَّار القرية. لاوخو ضخم البنية أحمر الوجه، يذبح الأبقار فجر كلّ يوم، ومع الشَّفَق يذهب باللَّحْم، لبَيْعه في سوق الجُملة. يضع اللَّحْم على

*) إشارة ضمنية بالمعنى البعيد للاسم باللغة الصِّينيَّة، والذي يعني: المُراوغ الكاذب.

منضدة التقطيع، ويوجد على خطَّاف التعليق أسفل المنضدة سلَّة، يضع فيها الأحشاء والرأس. فيما مضى كانت تشتري اللَّحْم من محلٍّ لاوخو بالسوق، وبعد أن تشتريَ، كان يقطع بالسِّكِّين قطعة لحم من على اللوح أو من على الخطَّاف، أو يلتقط قطعة من الأمعاء، ويرميها في سلَّتها، ولكنه لم يكن يمنحها هذه الزيادة هَبَاءً، كان يتأمَّلها بعينَيْن زائغَتَيْن وهو يضع اللَّحْم، ويناديها: "محبوبتي"، وأحياناً يدور حول منضدة اللَّحْم، ويمدُّ يده نحوها، ولكنْ، كانت كلّ مرَّة تصدُّهُ وتشتمُهُ، فيرتدع. وهذه المرَّة أتت إلى السوق، وَوَقَفَتْ أمام دُكَّانه، ونادتْهُ قائلة: "لاوخو! لنذهبْ لمكان خالٍ، لديَّ ما أقوله لكَ".

تشكَّك لاوخو، وفكَّر لبُرْهَة، ثمَّ وَضَعَ السِّكِّين من يده، وَذَهَبَ معها إلى مكان مهجور خلف السوق. في هذا المكان المهجور مبنى طاحونة متهدِّم، دَخَلاَ معاً للطاحونة، وقالت له فور دخولهما: "لاوخو! كيف ترى علاقتنا؟".

لَمَعَتْ عيناه وهو يقول: "على ما يرام، يا "محبوبتي"، هل خدعتُكِ في أيِّ مرَّة اشتريتِ فيها لحماً؟".

قالت: "إذنْ، سأطلب منكَ طَلَبَاً".

قال: "أيّ طَلَب؟".

تعلَّمتْ من دَرْس ما حَدَثَ مع أخيها، فلم تذكر له موضوع القَتْل، فقط قالت: "سأُحضر تشين يوخه، وأنتَ سَاعِدْني في تقييده، أريد أن أصفَعَهُ على وجهه".

كان لاوخو قد سمع ما حَدَثَ بينها وبين زوجها، وبالنسبة إلى تقييد شخص، فهو أمر لا يصعب عليه، لذلك وَعَدَهَا بملء فمه قائلاً: "علمتُ بما حَدَثَ، تشين يوخه شخص وضيع".

ثمَّ أردف: "فضلاً عن تقييد أحدهم، حتَّى لو طَلَبْتِ منِّي ضَرْبَ أحدهم، هذا أمر هيِّن، ولكنَّ ما أريد معرفته هو ما الثمن الذي سأجنيه مقابل ذلك؟".

قالت: "سَاعِدْني في ضَرْبه، وسنفعلها معاً، وأعطيكَ جسدي".

طار لاوخو فَرَحاً، فَعَانَقَهَا وهو يتحسَّس جَسَدَهَا بيده قائلاً: "محبوبتي، إذا كنَّا سنفعلها، فأنا مُستعدٌّ للقَتْل، وليس الضَّرْب فقط".

دَفَعَتْهُ قائلة: "لن نقتلَ".

اندفع نحوها قائلاً: "إذنْ، فلنضربْ، دعينا نفعلها أوَّلاً، وبعدها أضرب مَنْ تشائين".

دَفَعَتْهُ ثانية قائلة: "نضربُ أوَّلاً، ثمَّ نفعلها".

ثمَّ تحرَّكتْ خطوات للخارج وهي تقول: "وإلَّا، فَلْنَصرِفِ النَّظَرَ عن الأمرَيْن".

جَذَبَهَا بسرعة وهو يقول: "محبوبتي، لا تتعجَّلي، فليكن كما قلتِ، نضربُهُ أوَّلاً، ثمَّ نفعل ذلك الأمر".

ثمَّ أردف بدلال: "ولكنكِ ستُنفِّذين وعدكَ، أليس كذلك؟".

قالت مؤكِّدة: "أنا ملتزمة بكلِّ كلمة قلتُها".

ضرب بيده على صدره فَرَحاً وهو يصيح: "إذنْ، متى نُنفِّذ؟ فالأفضل أن نُسرِع ونطرقَ الحديد ساخناً".

قالت: "فليكنْ في الغد، سأذهب إلى تشين يوخه، وأدعوه للخروج".

وفي اليوم نفسه، ذَهَبَتْ إلى مركز البلدة، حيثُ مصنع السماد، لتقابل

تشين يوخه. حَمَلَتْ رضيعتها التي ولدتْها منذُ شهرَيْن. فكَّرَتْ أن تطلب منه الذهاب معها صباح اليوم التالي إلى المكتب المَدَني بالبلدية، لبَحْث موضوع نفقة الرضيعة، ثمَّ تخدعه وتصحبه إلى البلدة.

لمصنع السماد مِدْخَنَة، طولها يزيد عن عشرة أمتار، تزعق دائماً: "توت توت"، وهي تنفث الدُّخان بقوَّة للأعلى. بَحَثَتْ في كلِّ أنحاء المصنع، ولكنَّ كلَّ مَنْ قابلها قال إن تشين يوخه قاد الشاحنة، وَذَهَبَ لمُقَاطَعَة هيلونغجيانغ شَمَال شرق الصِّيْن لتوصيل السماد، ولن يعود قبل عشرة أيَّام أو أسبوعَيْن. من الواضح أنه هَرَبَ كما هَرَبَ أخوها من قبل. هل تذهب للبحث عنه في هيلونغجيانغ التي تفصلها عنها خمس مقاطعات؟ حتَّى وإن ذَهَبَتْ، فهو قوي البنية، يقود شاحنة كبيرة طَوَالَ اليوم، فكيف ستقتله بمفردها؟ ليس أمامها إلَّا أن تدعه يعيش لعشرة أيَّام أو خمسة عشر يوماً إضافية.

خَرَجَتْ وهي تمتلئ غضباً، وأحسَّت أن مثانتها أيضاً مليئة بالبول. رأت دورة مياه بمقابل مادِّيٍّ على باب المصنع. لكي تتبوَّلَ عليكَ دَفْع ماوَيْن(*). عاملة دورة المياه امرأة في منتصف العُمُر، شَعْرها يشبه ذيل الدجاجة، دَفَعَتْ لها ماوَيْن، وأعطتْها الرضيعة لتحملَها، وَدَخَلَت الحمَّام، لتُفرِغ الماءَ الذي ملأ مثانَتَها، ولكن الغضب كان ما يزال يعتصر أحشاءها. وعندما خَرَجَتْ رأت رضيعتها تبكي على صدر عاملة المرحاض، فَصَفَعَت الرضيعة بقوَّة على وجهها، وصاحتْ فيها: "كلُّ هذا بسببكِ، أيَّتُها اللعينة، لقد جَعَلْتِ حياتي جحيماً".

واقع الأمر أن هذه الطفلة هي سبب الصراع بينها وبين زوجها. فلقد تزوَّجا لثمانية أعوام، وفي العام الثاني من زواجهما أنجبت ولداً، له من العُمُر الآن سبع سنوات. وفي ربيع العام الماضي، اكتشفت حَمْلَهَا مرَّة

---

*) الماو وحدة من وحدات العُملة الصِّينيَّة، واليوان الصِّيْنيّ الواحد يساوي عشرة ماو.

أُخرى. لا تعلم في أيِّ مرَّة حَدَثَ هذا، يبدو أنها أخطأت حساب الوقت، كان يجب أن تجعلَهُ يضع واقياً ذَكَرِيًّاً، ولكنه لم يفعل، بل قَذَفَ داخلها بسرعة؛ فَحَمَلَتْ. ولكن الطفل الثاني ممنوع قانوناً. فلو كان زوجها فلَّاحاً، فستكون الغرامة بضعة آلاف يوان، ويمكن الإبقاء على الطفل، ولكنَّ زوجها عامل في مصنع السماد، ولو وَضَعَتِ الطفل الثاني، فبخلاف الغرامة، سيُفصَلُ زوجها من العمل، ويضيع مجهود عمله بضع عشرة سنة هَبَاء. لذلك ذَهَبَ الزوجان لمستشفى البلدية لإجهاض الطفل. كانت حُبْلَى في شهرَيْن، ولا تشعر بأيِّ شيء، خَلَعَتْ سروالها، واستلقتْ على سرير العمليات، وَفَتَحَتْ عَيْنَيْها، وفجأة شَعَرَتْ أن بطنها تحرَّكتْ؛ فَضَمَّتْ ركبَتَيْها، وَقَفَزَتْ مسرعة من على السرير، لترتدي سروالها. اعتقد الطبيب أنها ستذهب لقضاء حاجتها، ولكنْ، لم يكن أحد يتخيَّل أنها خَرَجَتْ من غرفة العمليات، وَجَرَتْ مسرعة خارج المستشفى وزوجها خلفها يجذبها من ملابسها صائحاً: "سيعطونكِ حقنة مخدِّرة، لن تشعري بألم".

قالت وهي تحثُّ الخُطى: "لنتحدَّث في المنزل، هنا يوجد الكثير من الناس".

خيَّم الصمت عليهما طَوَالَ الطريق، طَوَالَ عشرين كيلو متراً، استقلَّا خلالها حافلة القرية، ليعودا إلى منزلهما، وبمجرَّد أن وَصَلَا، دَخَلَتْ إلى حظيرة البَقَر. فَبَقَرَتُها وَضَعَتْ عجلاً صغيراً قبل يومَيْن. وكان العجل الصغير يتحسَّس ضَرْع أُمِّه بحثاً عن طعام. خارت البَقَرَة الأُمُّ تعبيراً عن جوعها عندما رأتْ لي شيوليان؛ فوَضَعَتْ لها العشب.

لحقها زوجها إلى الحظيرة، وقال فور دخوله: "أخبريني ماذا تريدين؟".

قالت: "لقد رَكَلَنِي الجنين بقَدَمه، يجب أن ألدَهُ حَيًّاً".

قال بحِدَّة: "لا يمكنكِ أن تلديه، إن وَلدتِهِ سيطردونني من المصنع".

قالت بهدوء: "فلنفكّرْ في طريقة تجعلني ألده حَيّاً، ولا يطردونكَ من العمل".

قال بصوت أقلّ حِدَّة: "لا وجود لهذه الطريقة في العالم".

نَهَضَتْ واقفة من أمام البَقَرَة الأُمّ وهي تقول: "إذنْ، نتطلّق".

قال وقد تسمَّر في موضعه: "ماذا تقصدين؟".

أجابتْهُ: "لقد فَعَلَهَا تشاو هوتشه من قبل، بعد الطلاق لن تكونَ بيننا أيُّ علاقة قانونية. سأضع الطفل، وسيكون طفلي أنا بمفردي، ليس لكَ علاقة بالأمر. الولد الكبير باسمكَ وهذا الطفل باسمي، طفل لكلٍّ واحد منّا، وبهذا لا نكون قد خالفْنا القانون".

تلفَّتَ زوجها برأسه جيئة وذهاباً وقال: "هذه الفكرة جيِّدة، ولكننا لا يمكن أن ننفصل بسبب طفل".

قالت بسرعة: "سنفعل مثلما فَعَلَ تشاو هوتشه، بعد أن نستخرج شهادة ميلاد الطفل، نتزوَّج ثانية، ويُولَد الطفل خلال فترة الطلاق، وعندما نتزوَّج ثانية، يكون لكلٍّ منّا طفل. أيّ بند في القانون يمنع أن يتزوَّج الطرفان إذا كان لكلٍّ منهما طفل؟ وبعد الزواج لا نُنجب ثانية، ونكون بذلك التزمْنا بالقانون".

حكَّ رأسه مُفكِّراً وهو مُنبهرٌ من فكرة تشاو هوتشه، وقال: "تفكير هذا المَدعوّ تشاو هوتشه مُلتوٍ ومُتعرِّج في كلِّ شيء. ماذا يعمل هذا الرجل؟".

قالت: "طبيب بيطري في البلدة".

قال: "لا يجب أن يكون طبيباً بيطرياً، بل يجب أن يتولّى إدارة مصلحة

تحديد النَّسْل الوطنية ببكين، بهذا الشكل سوف يُمسكُ بكلِّ ثغرات القانون، ويسدُّها".

ثمَّ التفت مُحدِّقاً فيها وهو يقول: "إنكِ لا تحملين فقط جنيناً صغيراً يركل، ولكنكِ أيضاً تحملين عقلاً مُلتوياً، لقد قصَّرتُ في تقديري لكِ".

وعليه، ذَهَبَ الزوجان إلى البلدة، وأتمَّا الطلاق. وبعد الطلاق وحتَّى يُبعِدا أيَّ شبهة عنهما، لم يتواصلا بتاتاً. وبعد مرور بضعة أشهر، وَضَعَتْ طفلها، ولكنها اكتشفت أن تشين يوخه تزوَّج شياومي صاحبة صالون الحلاقة بالبلدة، لم يتزوَّجها فقط، بل هي حامل منه أيضاً. عندما حَدَثَ الطلاق كان زائفاً، ولم تتخيَّل أن يتحوَّل إلى حقيقة. كانت تفكِّر أن تسير على درب تشاو هوتشه، ولكنها لم تتخيَّل أن دربها سوف تكون نتيجته مُختلِفة هكذا.

ذَهَبَتْ تبحث عن تشين يوخه، لتتشاجر معه، وقالت إن الطلاق كان مُزيَّفاً، ولكنه أنهى الحوار بجُملة "الطلاق حقيقي" التي قالها وهو يعضُّ على أسنانه، وأضاف: "هناك وثيقة طلاق، تُثبت الأمر"؛ فَفَقَدَتْ حُجَّتها، وأدركتْ أنها قصَّرت في تقديرها لقدراته. في الحقيقة مشكلتها ليست في تقبُّل هذا الأمر، بل في الطريقة التي تمَّ بها الأمر، قضيَّتُها في الغضب الذي زرعه الحَدَثُ بداخلها.

وما زاد غضبها أن فكرة الطلاق وقتها هي التي طَرَحَتْهَا. فالاستغلال من شخص آخر لا يسمَّى مكيدة، بل هي مَنْ لَفَّتِ الحبلَ حول رقبتها، وَخَنَقَتْ نفسها، وأغلقت باب الجحر. ازداد غضبها اشتعالاً، وفكَّرَتْ في قَتْله، ولكنه ذَهَبَ لمُقَاطَعَة هيلونغجيانغ، ولن تستطيع قَتْله حاليًّا، ولذا أفرغت غضبها في وجه رضيعتها التي وُلِدَت منذُ شهرين فقط، صفعة قوية، أخْرَسَتِ الرضيعةَ، وأوْقَفَتْهَا عن البكاء.

ولكن سيِّدة دورة المياه ذات الشَّعْر الذي يشبه ذيل الدجاجة هي مَنْ غضبتْ وانتفضتْ لما حَدَثَ، وَوَقَفَتْ صارخة: "ماذا تفعلين؟ هل بيننا ضغينة سابقة؟".

تخشَّبت وقالت بتعجُّب: "ماذا تقصدين؟".

قالت عاملة دورة المياه: "لو أردتِ ضَرْب رضيعتكِ، فاضربيها في مكان آخر. الطفلة صغيرة، ولن تتحمَّل ضربة قوية هكذا، لا يهمُّني إن ماتتْ بسبب الضربة، ولكن الناس عندما تعلم أن طفلة ماتتْ هنا، فمن سيجرؤ على المجيء هنا لدخول دورة المياه".

فهمتْ مقصدها؛ فَحَمَلَتِ الطفلة، وانتفضتْ مُسرِعة، لتنتقلَ للجلوس على سُلَّم مدخل دورة المياه، وأخذتْ في النحيب بصوت عالٍ قائلة: "تشين يوخه، يا ابن العاهرة، لم تترك لي سبيلاً للحياة".

استعادت الرضيعة أنفاسها بعد انقطاعها بفعل الصفعة، وأخذت تشارك أُمَّها النحيب. سمعتْها سيِّدة دورة المياه وهي تسبُّ تشين يوخه، ففهمت أنها زوجته السابقة، فأمرُ طلاقهما انتشر في كلِّ أنحاء مصنع السماد، وبالطبع انتقل إلى دورة المياه عند باب المصنع، وعندما رأتْها عاملة دورة المياه تسبُّه أخذت هي أيضاً تشاركها سبَّه، وتقول بصوت عالٍ: "هذا المَدعوّ تشين يوخه شخص لعين، وليس رجلاً بالمرَّة".

رأتْ أن هناك مَنْ يشاركها سبَّه، فأحسَّت بقُرب وحميمية بينها وبين سيِّدة دورة المياه، فخاطبتْها قائلة: "الطلاق زائف، كيف تحوَّل إلى طلاق حقيقي؟".

ولكنها بعدما نَطَقَتْ جُملتها، لم تتوقَّع أن تُعقِّب سيِّدة دورة المياه قائلة: "لا أقصد أمر طلاقكما".

سألتْها وهي تُحدِّق بها: "وماذا تقصدين؟".

قالت سيِّدة دورة المياه: "تشين يوخه ليس له أخلاق الرجال. ففي شهر يناير من هذا العام شرب حتَّى الثُّمَالَة، وجاء إلى دورة المياه، ومَنْ يدخل دورة المياه يجب أن يدفع، فأنا أربح نسبة مقابل دخول دورة المياه، وأعول أسرتي من هذا الدَّخْل. ولكنه لم يدفع بعدما قضى حاجته، وعندما أمسكتُ به، أطلب ماوَيْن، هوى على فمي بقبضته، فحطَّم نصف سِنِّي الأمامية"، قالتْ آخر جملة، وَفَتَحَتْ فمها، وتحسَّستْ بيدها نصف السِّنِّ الأمامية الباقية، تريها إيَّاها.

فكَّرَتْ لي شيوليان كيف تحوَّل زوجها السابق بعد انفصالهما إلى شخص بهذه الوضاعة، لم يكن هكذا عندما كانا معاً، يبدو أنها لم تكن تعرفه جيِّداً. ثمَّ قالت: "لو كنتُ قابلتُهُ اليوم، لَقَتَلْتُهُ في التَّوِّ".

لم تتفاجأ سيِّدة دورة المياه ممَّا قالتْهُ، فقط عقَّبتْ: "يستحقُّ ألف طعنة، ولكنْ، لو قَتَلْتِهِ، فسيكون هو الرابح".

سألتْها مُتعجِّبة: "ماذا تقصدين؟".

قالت سيِّدة دورة المياه ذات قصَّة ذيل الدجاجة ونصف السِّنِّ المكسورة: "قَتْل شخص ما هو إلَّا أمر بسيط مُؤقَّت، دقيقة أو دقائق وينتهي الأمر. لو أردتِ نصيحتي، فسأقول: لا يجب قَتْل هذا اللعين، يجب تعذيبه. ألم يتزوَّج غيرك؟ اقلبي حياته رأساً على عقب، اجعليه يُطلِّق زوجته الحالية، اجعليه لا يتمتَّع بموت مريح، ولا حياة مُطمئنَّة، بهذا فقط تُطفئين غضبكِ، وتُخمدين نارك".

هذه الجُملة التي قالتها سيِّدة دورة المياه نبَّهت لي شيوليان أن هناك طُرُقاً أفضل لإنزال العقاب بشخص ما بخلاف القَتْل، فَقَتْلُهُ لن يُظهِر الأمر، ويُوضِح تفاصيله. افتعال المشاكل في وجهه وطلاقه من زوجته الحالية

فقط. هي لا تقصد تعديل ما تمَّ قَلبه، لكنها تريد أن تُثبت أن الأمر ما كان يجب أن يحدث بهذا الشكل، وبعد أن تفعل ذلك، ستقلبه هي بنفسها مرَّة أُخرى.

حين جاءت إلى مصنع السماد حاملة رضيعتها كانت تنوي قَتْله، ولكنها غادرت المصنع وقد قرَّرت البدء في الشكوى ورَفْع القضايا. هل يتخيَّل أحد أن الطريقة التي لم يفكِّر فيها أحد هَدَتْها إليها سيِّدة، تعمل على تحصيل مقابل بول وبراز الناس. هذه المرأة تحمل ضغينة تجاه تشين يوخه، لقد كَسَرَ نصف سِنِّها الأمامية، ولكنها لم تتخيَّل أنها بهذا الحديث قد أنقذت حياته من الموت.

3

المرَّة الثانية التي التقت فيها لي شيوليان مع القاضي وانغ قونغ داو كانت داخل قاعة المحكمة. كان يرتدي لباس القُضَاة، وقد انتهى لتوِّه من البَتِّ في قضية نزاع مالي. قضية الأخوَيْن تشاو القاطنَيْن بالشارع الشَّرقيِّ للبلدة، تُوفيِّ والداهما منذُ طفولَتَيْهما، وبعد بلوغهما، افتتحا عند التقاطع الكبير في وسط البلدة دُكَّاناً لبيع الحَسَاء الحارِّ. كان الدُّكَّان يفتح أبوابه فجر كلِّ يوم، وتدريجياً راجت تجارتهما، لكن الأخ الأكبر تزوَّج العام الماضي، فصار لهما شريك ثالث هو زوجة الأخ الأكبر، وبالتالي نشبت المشكلات بينهما تدريجياً، حتَّى وَصَلَ بهما الحال إلى الانفصال، وتقسيم ممتلكاتهما. الأمر بسيط، هما أخوان، ولكلِّ واحد منهما النصف، ولكن الأمر لم يكن كذلك بخصوص دُكَّان الحَسَاء. فكلاهما كان يريد الحصول على الدُّكَّان لنفسه، فاضطرَّا لِلُّجوء إلى القضاء. القاضي والأخ الأكبر لعائلة تشاو كانا زميلَي دراسة، لذا كان يريد الإصلاح بينهما، فَطَرَحَ فكرة أن يدفع مَنْ يريد الحصول على دُكَّان الحَسَاء للآخر مبلغاً معيَّناً، وما إلى ذلك من الاقتراحات. وافق الأخ الأكبر على هذا المُقترَح، لكن الأخ الأصغر لم يعجبْهُ الأمر، فاختلق مشكلة أُخرى، وقال إنه منذُ أن تزوَّج الأخ الأكبر لم يعد يستيقظ مُبكِّراً كالسابق، وإنه هو الذي كان يعمل على تسيير أمور الدُّكَّان طيلة العامَيْن الماضيَيْن، ألا يُعدُّ بذلك عاملاً أجيراً عند أخيه الأكبر؟ ثمَّ أصرَّ على الحصول على تعويض عن خسارته هذَيْن العَمَلَيْن قبل الشروع في إيجاد حَلٍّ لتقسيم الدُّكَّان. اغتاظ الأخ الأكبر، وقال إن الأخ الأصغر أُصيب بنزيف في معدته العام الماضي، وهو ما تطلَّب إجراء

عملية جراحية، كلَّفتْهما ما يزيد على ثمانية آلاف يوان، مَن المسؤول عن تحمُّل هذا المبلغ؟ احتدَّ النقاش بين الأخَّيْن داخل المحكمة، حتَّى إنهما غادرا مقاعدهما، وكادا يشتبكان بالأيدي. وعندما شاهد القاضي أن الأمور وَصَلَتْ لتلك الحالة، قرَّر تأجيل الجلسة، وأعلن تأجيل الحُكْم في القضية ليوم آخر. لكن الأخ الأصغر لم يعجبْهُ هذا الحُكْم، فقال غاضباً: "ما دام الحديث تطرَّق للعملية الجراحية، فالحديث عن تقسيم الدُّكَّان لا يهمُّ، لن نتحدَّث اليوم عن الدُّكَّان، سنتحدَّث فقط عن أمر العملية الجراحية، ولن يغادر أحد منَّا المحكمة حتَّى تتَّضح الأمور بشأن تلك العملية الجراحية".

ثمَّ قَفَزَ من مقعده، وَوَقَفَ يصيح: "لماذا أُصبْتُ بنزيف في المعدة، وأجريتُ تلك العملية الجراحية؟ أليس بسبب الغضب الذي سبَّباه لي؟".

سارع القاضي يقول: "هذا أمر خارج نطاق القضية، لا داعي للحديث عنه في المحكمة"، لكن الأخ الأصغر تقدَّم أمامه، وأشار له بإصبعه وهو يقول مُغتاظاً: "أيُّها المَدعوّ وانغ، أعرف أنكَ كنتَ زميل دراسته، لو جرؤتَ على التَّحيُّز له، فسوف يحدث ما لا تُحمد عقباه".

ثمَّ شَمَّرَ عن ساعدَيْه، واستمرَّ يقول: "سأُخبركَ بوضوح، شربتُ بعض الخمر قبل مجيئي إلى المحكمة".

استغرب القاضي مُتسائلاً: "ماذا تقصد، هل ستضربني؟".

امتقع وجه الأخ الأصغر وهو يقول: "لنرَ إن كان الأمر يستدعي ذلك أم لا".

اضطرب وانغ قونغ داو، وقال متردِّداً: "أنتُما أخوان تتصارعان من أجل ممتلكاتكما، لا علاقة لي بما يحدث بينكما، أنا القاضي هنا، أرغب في تهدئة الأمور بينكما فقط، كيف لكَ أن تجرؤ على ضربي؟".

ثمَّ أمسك بمطرقته، وَخَبَطَ بها على المنصَّة صائحاً: "أنتَ مشاكس أخرق".

ونادى حَرَسَ المحكمة طالباً منهم طَرْد الأخوَيْن للخارج.

تقدَّمت لي شيوليان نحوه، وقالت: "أيُّها القاضي، لنتحدَّث عن قضيَّتي، إذنْ".

كان ما يزال مُنفعلاً بسبب قضية الأخوَيْن تشاو، ولم ينتبه إلى أن المتحدِّثة هي لي شيوليان، فسألها غاضباً: "قضيَّتكِ؟ أيّ قضية؟".

قالت بسرعة: "قضية طلاقي، لقد ذَهَبْتُ إلى بيتكَ ليلة أوَّل أمس، اسمي لي شيوليان، وقد طَلَبْتَ منِّي الانتظار لثلاثة أيَّام، ونحن اليوم في اليوم الثالث".

فتذكَّر مَنْ هي، واعتدل في جلسته خلف المنصَّة، وأخذ يفكِّر في قضيَّتها. فكَّر لبعض الوقت، ثمَّ تنهد قائلاً: "هذا أمر مزعج".

تساءلت قائلة: "مزعج لمَنْ؟".

أجابها: "مزعج للجميع، لقد فكَّرتُ في قضيَّتكِ من قبل، هي بالفعل قضية مُعقَّدة، أوَّلاً: بالنسبة إليكِ، فأنتِ الآن مُطلَّقة بالفعل، وتريدين الطلاق ثانية؛ ومن أجل الطلاق ثانية، ترغبين في إثبات أن الطلاق الأوَّل مُزيَّف، ثمَّ تتزوَّجين ثانية، وبعدها تتطلَّقين، أليس ذلك أمراً مُتعباً ومُعقَّداً؟".

قالت: "أنا لا أخشى المتاعب".

قال: "ثانياً: بالنسبة إلى زوجكِ السابق، ما اسمه؟".

ردَّت: "تشين يوخه".

قال: "لو كان زوجكِ السابق هذا ما يزال أعزبَ، لكان الأمر أسهل، ولكنه الآن متزوِّج من امرأة أُخرى، فلو حَدَثَ أن أثبتْنا أن طلاقك منه كان زائفاً، وأردتِ الزواج منه ثانية حتَّى تتطلَّقي بالفعل، عليه أن يُطلِّق زوجته الحالية، وإلَّا فسيكون متزوِّجاً من امرأتَيْن في نفس الوقت، وهو أمر مخالف للقانون، أليس هذا إثارة لسلسلة من المتاعب؟".

قالت: "ما أريده هو هذه المتاعب".

عقَّب قائلاً: "هناك أيضاً مشكلة بالنسبة إلى المحكمة، فنحن لم نبتّ في قضية مِن هذا النوع من قبل، يبدو أنها قضية واحدة، ولكنها في الواقع عدَّة قضايا في الوقت نفسه، والبَتُّ في هذه القضايا يبدأ من الطلاق وصولاً إلى الطلاق، وكأننا ندور في دائرة، ثمَّ نعود إلى النقطة نفسها، أليس هذا أمراً مُرهِقاً؟".

قالت: "أخي الكبير، هذه محكمة، وعملها هو النَّظَر في القضايا، لا يمكنكم تجنُّب القضايا، لأنها مُرهِقة".

قال: "ولكنْ، هذا ليس كلّ شيء".

سألت: "وماذا هناك أيضاً؟".

أجاب: "حتَّى لو افترضْنا أن طلاقكِ العام الماضي كان مُزيَّفاً، فكونه كذلك في حَدِّ ذاته مشكلة كُبْرَى".

تعجَّبت متسائلة: "وكيف ذلك؟".

أجاب: "لو كان طلاقكما حينها زائفاً، فمن السهل على أيِّ شخص معرفة الغرض من تزييفكما لهذا الطلاق، ألَّا وهو أن تُنجبا طفلاً ثانياً، وإنجاب طفل ثانٍ مخالف لقانون تحديد النَّسْل، هل تعرفين ما هو قانون تحديد النَّسْل؟".

قالت: "الأمر الذي يمنع من إنجاب عدَّة أطفال".

عقَّب على إجابتها قائلاً: "الأمر ليس بتلك البساطة، هذه سياسة وطنية للدولة، وما دام الأمر يتعلَّق بالسياسات الوطنية، فالأمر مُعقَّد للغاية، لو أردتِ الحُكْم بأن طلاقكما كان زائفاً، فقبل الحديث عن علاقتكِ مع تشين يوخه، عليَّ أن أتحدَّث أوَّلاً عن طفلكما، يبدو الأمر كأنكِ ترفعين قضية على شخص ما، ولكن الحقيقة هو أنكِ ترفعين قضية على نفسكِ، أو بالأحرى ترفعين قضية على طفلكِ".

تسمَّرت مكانها، وَصَمَتَتْ لبعض الوقت، ثمَّ فكَّرَتْ وسألتْهُ: "وهل قد يُحكَم على طفلي بالإعدام في النهاية؟".

ضحك قائلاً: "الأمر لن يصل إلى تلك الدرجة".

سألتْهُ: "هل سيُحكم عليَّ بالإعدام، إذنْ؟".

أجاب: "ليس إلى هذه الدرجة أيضاً، بل ستُوقَع عليكِ غرامة، وستُوقَفين عن العمل، أليس هذا موتاً وخراباً؟".

قالت بتسرُّع: "وهذا ما أريده بالفعل، لا أخشى الغرامة، ولا أخاف إيقافي عن العمل، ليس لديَّ وظيفة، أنا أبيع زيت الصويا في البلدة، ولا يهمُّني إيقافي عن العمل، تشين يوخه ابن العاهرة هو الذي لديه وظيفة، وأنا أريدكم أن تُوقِفوه عن العمل".

حكَّ رأسه قائلاً: "ما دمتِ مُصرَّة على ذلك، فلا حيلة لديَّ، هل أحضرتِ معكِ محضر الشكوى؟".

أخرجتْ من جيبها محضر شكوى، وسلَّمتْهُ له. وكانت قد طلَبَتْ من المحامي لاوتشيان صاحب مكتب المحاماة في الشارع الشَّماليِّ للبلدة كتابة الشكوى مقابل ثلاثمائة يوان. الشكوى مُكوَّنة من ثلاث صفحات،

تكلفة كلِّ ورقة مائة يوان، كانت تريد تخفيض المبلغ، لكن المحامي حدَّق فيها قائلاً: "هذه القضية كبيرة للغاية، حقّاً كبيرة للغاية". ثمَّ أردف: "هذا محضر شكوى واحد، ولكنه يتطرَّق لعدَّة قضايا، وقد أخذتُ منكِ ثمن شكوى قضية واحدة. لا يمكن تخفيض المبلغ، لو أردتِ الحقيقة، فأنا الخاسر في هذا الأمر".

تابع القاضي: "وهل أحضرتِ رسوم تقديم الشكوى؟".

أجابت: "وما مقدار هذه الرسوم؟".

قال: "مائتا يوان".

قالت بتعجُّب: "أقلّ من المبلغ الذي تقاضاه المحامي".

ثمَّ أردفتْ: "مائتا يوان لحَلِّ مشاكل كهذه ليست بالكلفة العالية".

رَمَقَهَا بعَيْنَيْه، ثمَّ نَهَضَ مُغادِراً وهو يقول: "ادفعي رسوم الشكوى في البنك، ثمَّ عودي إلى بيتكِ، وانتظري ما يستجدُّ".

سارت خلفه تسأله: "وكم من الوقت سأنتظر؟".

فكَّر قليلاً، ثمَّ أجابها: "بمجرَّد البدء في إجراءات الشكوى، قد يستغرق الأمر نحو عشرة أيَّام".

قالت بفرح: "حسناً، سآتي إلى هنا بعد عشرة أيَّام".

4

خلال تلك الأيَّام العشرة، فَعَلَتْ لي شيوليان سبعة أشياء.

الأوَّل: "اغتسلتْ". فمنذُ أن وَضَعَتْ طفلتها، كانت دوماً مشغولة في التفكير بأمر قَتْل تشين يوخه. لم تستحمّ لمدَّة شهرَيْن، حتَّى إنها لم تعد تطيق رائحة جَسَدِهَا. ها هي الشكوى أخذت مجراها، فَذَهَبَتْ إلى حمَّام البلدة للاستحمام، نَقَعَتْ جَسَدَهَا لساعَتَيْن كاملَتَيْن داخل حوض الماء الساخن، حتَّى تصبَّب العَرَق من رأسها، ثمَّ خَرَجَتْ من الحوض، واستلقت على السرير الخشبي، حيثُ طَلَبَتْ من عاملة الحمَّام أن تحكَّ جَسَدَهَا باللِّيفة. تكلفة الاستحمام هناك خمسة يوانات، وتكلفة الحكِّ باللِّيفة خمسة يوانات أيضاً، في السابق كان تستحمُّ بنفسها، هذه المرَّة أنفقت خمسة يوانات إضافية، أعطتْها لعاملة الحمَّام، كي تحكَّ لها جَسَدَهَا. الخالة عاملة الحمَّام سيِّدة قصيرة سمينة من مُقَاطَعَة سيتشوان، لها يدان كبيرتان، وما إن شرعت تحكُّ جَسَدَهَا حتَّى أصابها الذهول، فصاحت: "منذُ سنوات طويلة لم أشاهد مثل هذه الكومة من الطين تخرج من جسد شخص".

قالت: "أيَّتُها الخالة، حُكِّي جسدي بعناية، فأنا على وشك القيام بأمر مُهمٍّ".

تعجَّبت الخالة: "وما هو هذا الأمر المُهمُّ، هل ستتزوَّجين؟".

قالت: "نعم، سأتزوَّج".

دقَّقت عاملة الحمَّام في بطنها مُتعجِّبة: "في هذه السِّنِّ! هل هذا زواجكِ الثاني؟".

هزَّت رأسها قائلة: "نعم، هذا هو زواجي الثاني".

وأخذت تفكِّر، هي بالفعل لم تكذب على الخالة عاملة الحمَّام، فهي تنوي رَفْع قضية على تشين يوخه حتَّى تتزوَّج به ثانية، ثمَّ تتطلَّق منه مرَّة أُخرى. بعد خروجها من الحمَّام، شَعَرَتْ أن وزنها صار أخفَّ بضعة كيلوجرامات، وأن خطواتها صارت أسرع. خلال مرورها بشوارع البلدة، شاهدها الجزَّار. سال لُعابه وكأنه ذباب رأى بقعة دم، كان يقطع اللَّحْم، فَوَضَعَ اللَّحْم من يده على الفور، بل حتَّى نسي وَضْع السِّكِّين على الطاولة، وهرول نحوها مُمسِكاً بالسِّكِّين في يده، ثمَّ خاطبها قائلاً: "حبيبتي، إلى أين أنتِ ذاهبة؟ ما الجديد بشأن أمر ضَرْب تشين يوخه؟".

ردَّت: "لا داعي للعَجَلَة، فهو الآن في مُقَاطَعَة هيلونغجيانج".

أخذ يحدِّق فيها، فقد اغتسلت لتوِّها، وجهها مُتورِّد، وشَعْرها مصفَّف، وملفوف بعناية، ولا تزال قطرات الماء تتساقط منه، كما أنها كانت في فترة الرضاعة، صدرها مكتنز، ورائحة اللبن مختلطة برائحة سائل الاستحمام تفوح من جَسَدِهَا. اقترب منها وقال: "عزيزتي، هَلَّا فَعَلْنا "ذلك الأمر" أوَّلاً، ثمَّ نضربه لاحقاً؟".

قالت: "ما زلتُ عند وعدي، الضَّرْب أوَّلاً، ثمَّ القيام بهذا الفعل ثانياً".

والحقيقة أنه لم يكن هناك داعٍ لضَرْبه، فقد كانت تنوي قَتْله في بادئ الأمر، وبعدها غيَّرت فكرتها، وفكَّرَتْ في ضَرْبه، وهي الآن لا تفكِّر في ضَرْبه، هي تفكِّر في أن تُعكِّر صفو حياته. لم تجرؤ على إخبار لاوخو أنها غيَّرت فكرتها، فهي تخشى من ردَّة فعله. أمَّا هو، فلم يكن يطيق صبراً على

الانتظار، فقال مُتودِّداً: "لا يمكنني تحمُّل الانتظار أكثر من ذلك، ما رأيكِ في أن نقوم بفعل ذلك الأمر، ثمَّ أذهب إلى هيلونغجيانغ لقَتْله هناك؟".

"لا داعي الآن لضَرْبه، فضلاً عن قَتْله". قالتها وهي تُحدِّق بالسِّكِّين الملطَّخة بالدماء في يده: "لا يمكننا قَتْله، سأتسبَّب لكَ في الأذى لو طَلَبت منكَ قَتْله، ألن يكون حبل المشنقة هو مصيركَ لو قَتَلْتَهُ؟". ثمَّ ربَّتتْ بيدها على صدره، وأردفت: "لا داعي للعَجَلَة، العَجَلَة تُورِث الندامة".

خَبَطَ بيده على صدره، وقال مغتاظاً: "الكلام سهل، ولكني غير قادر على التَّحمُّل".

ثمَّ أشار بيده إلى عَيْنَيْه، وأردف يقول: "انظري إلى عينَيَّ، لقد صارتا حمراوَيْن كالدم، بسبب السهر وقلَّة النوم كلّ ليلة، لو ماطلتِ أكثر من ذلك، فلربَّما أقتل شخصاً آخر بدلاً من قَتْل تشين يوخه".

ربَّتتْ على كتفه تواسيه قائلة: "لا داعي للعَجَلَة، سنُنفِّذ خطَّتنا عاجلاً أم آجلاً، فقط الوقت لم يحنْ بعد، عندما يحين الوقت سيكون لكَ ما تريد".

والأمر الثاني الذي فَعَلَتْهُ كان: "قَصّ شَعْرها". فبعدما أنهت حديثها مع لاوخو، ذَهَبَتْ إلى صالون الحلاقة. كانت في الماضي تُصفِّف شَعْرها الطويل على شكل ذيل حصان، وهي الآن تفكِّر في قَصِّه، تريد أن يكون شَعْرها قصيراً. فمعركتها مع تشين يوخه قد تضطرُّها إلى مقابلته، وكانت قلقة أن يحتدَّ النقاش بينهما، ويتحوَّل إلى عِرَاك بالأيدي. فقد حَدَثَ بينهما عِرَاك في السابق، وهي تعرف أنه من السهل الإمساك بالشَّعْر الطويل، أمَّا الشَّعْر القصير، فلا. فلو حاول الإمساك بشَعْرها القصير، يمكنها أن تتخلَّص منه، وتستدير لتركله في خَصْيَتَيْه. لم تتعرَّف على نفسها

في المرآة بعدما قَصَّتْ شَعْرها، وهذا هو المطلوب، فهي الآن لم تعد لي شيوليان التي يعرفها الناس.

ثالثاً: "اشترت ملابس". فبعدما خَرَجَتْ من صالون الحلاقة، ذَهَبَتْ إلى المتجر، واشترت حلَّة جديدة، قيمتها خمسة وتسعون يواناً. القاضي مُحقٌّ في كلامه، هذه القضية تبدو في ظاهرها قضية واحدة، ولكنها عدَّة قضايا متداخلة، ولا أحد يعرف كم سيستغرق الوقت للبَتِّ في تلك القضية، ومُقاضاة الآخرين في المحاكم تتطلَّب مقابلة أشخاص كُثر، وعليها أن تكون مهندمة، وإلَّا فملابسها القديمة ستُنفِّر الآخرين منها، ولن تتمكَّن من إثبات أن طلاقها كان زائفاً.

رابعاً: "اشترت حذاء جديداً" بمبلغ خمسة وأربعين يواناً. حذاء برقبة، له صفَّان من الفتحات الصغيرة، وفي كلِّ صفٍّ ستّ عشرة فتحة، وله رِباط طويل. بمجرَّد أن عقدت رِباط الحذاء، شَعَرَتْ أنه مُحكَم على قدَمَيْهَا، كانت راضية عنه تماماً. هي تعرف أن معركتها مع تشين يوخه ستتطلَّب منها السَّيْر كثيراً على قَدَمَيْهَا.

خامساً: "باعت بَقَرَتَهَا". كانت تربِّي في بيتها بَقَرَة وعجلَيْن صغيرَيْن. باعتْهُم جميعاً. فبخلاف حاجتها إلى المال بسبب القضية، فهي أيضاً ستكون مشغولة، ولا يوجد أحد غيرها يرعى أبقارها. لكنها لم تبع أبقارها إلى لاوخو جزَّار البلدة، فهي تخاف أن يُحدِّثها في الأمر ثانية، فَذَهَبَتْ إلى بلدة أُخرى لبَيْع أبقارها هناك، وباعتْها إلى جزَّار، اسمه لا ودنغ.

سادساً: "أودعتْ طفلتها لدى صديقتها"، حيثُ عهدتْ إلى زميلة دراستها منغ لانتشي برعاية طفلتها الرضيعة. استقلَّت لي شيوليان الحافلة العامَّة بالقرية، وسافرت لمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً، لتتركَ طفلتها الرضيعة عند زميلتها. في البداية كانت ترغب في إيداع طفلتها عند أخيها، ولكنَّ أخاها بَدَا كشخص لا يُعتمَد عليه، حين هَرَبَ

إلى شاندونغ عندما طَلَبَتْ منه أن يقتل تشين يوخه. أخوها يمكنه أن يَعتمِد على أُخته الكُبْرَى حين يواجه مشكلة، أمَّا أُخته الكُبْرَى، فلا يمكنها الاعتماد عليه وقت الحاجة. لن تعتمد عليه ثانية في شيء، ولن تساعده في أيِّ شيء أيضاً. لم تكن كلٌّ من لي شيوليان ومنغ لانتشي صديقَتَيْن في أثناء الدراسة، لم يكن الأمر كذلك فقط، بل كانت بينهما عداوة، والسبب هو أنهما كانتا مُعجَبَتَيْن بأحد زملائهما في الصَّفِّ. وفي النهاية، لم يُعجَب زميلهما بأيٍّ منهما، بل أَحَبَّ فتاة أُخرى، تكبره بعامَيْن. بعدها صارتا تستمعان إلى شكوى بعضهما بعضاً، ونشأت بينهما صداقة. حَمَلَتْ طفلتها، وَذَهَبَتْ إلى بيت منغ لانتشي التي وَضَعَتْ هي الأُخرى طفلاً مؤخَّراً، وصدرها عامر باللبن، ومن السهل عليها رعاية ابنتها. لم تكن بحاجة أن تُخبر صديقتها بسبب إيداع ابنتها لديها، فالقاصي والداني يعرف بأمر طلاقها. فقط تحدَّثتْ إليها قائلة: "سأترك طفلتي وديعة لديكِ، وهذا يجعلني أشعر بالاطمئنان عليها". "أنا أستعدُّ لخوض معركة، قد تستمرُّ لشهرَيْن، لن أفعل أيَّ شيء سوى أن أُنغِّص عليه حياته، وأجعلَه مُفلِساً مُعدَماً".

قالتْ هذه العبارة، ثمَّ سألتْ صديقتها: "هل لو كنتِ مكاني، كنتِ ستتصرَّفين مثلما أفعل الآن؟".

هَزَّتْ رأسها نافية.

سألتْها: "لماذا؟".

أجابتْ: "هذا هو الفارق بيني وبينكِ، أنا صبورة في مواجهة المشكلات، أمَّا أنتِ، فلا". ثمَّ شمَّرتْ عن ساعدها، وقالتْ: "انظري، هذه الكدمات سببها ضَرْب زوجي، لو تحمَّلتُ، فستمضي الحياة، ولو تمرَّدتُ، فستمضي الحياة، وعلى الرَّغْمِ من جُبْني، فإنني أغبط ذوي الجرأة". ثمَّ تابعتْ: "أنت أقوى منِّي بكثير".

احتضنتْها لي شيوليان، ثمَّ بَكَتْ قائلة: "جُملتُكِ أشعرَتْني أن الأمر يستحقُّ الموت في سبيله".

سابعاً: "ذَهَبَتْ للصلاة" في المعبد للتَّضرُّع إلى بوذا. في البداية لم تفكِّر في الذهاب إلى المعبد للصلاة، ولكنْ، بعدما أودعتْ طفلتها عند صديقتها، واستقلَّت الحافلة عائدة إلى قريتها، مرَّتْ في طريقها بجبل جيهتاي. وهناك معبد، به نُصْبٌ لبوذا فوق الجبل. في البداية في أثناء مرورها بالقرب من المعبد سمعت أبواق المعبد تصدح، وشاهدت الكثير من الرجال والنساء الكبار والصغار يصعدون للصلاة. كانت تعتقد أن أمورها تسير كما تخطِّط لها، ولكنها تذكَّرتْ أنها أهملت أمراً مهمَّاً: لقد كانتْ منشغلة بتسوية بعض الأمور بينها وبين الناس، ونسيتْ أن هناك إلهاً، لم تتضرَّع إليه، كي يُيسِّر لها أمورها. على الفور طَلَبَتْ من سائق الحافلة أن يتوقَّف، ثمَّ ترجَّلتْ، وتسلَّقتِ الجبل مُتَّجهةً صوب المعبد. كان مُكتظَّاً بالناس، ويتوجَّب عليها شراء تذكرة للدخول، اشترت تذكرة بعشر يوانات، ثمَّ أنفقت خمس يوانات أُخرى لشراء عيدان بخور. وما إنْ دَخَلَتِ المعبد حتَّى أشعلتِ العيدان، وَرَفَعَتْهَا بكلتا يَدَيْها، ثمَّ جَثَتْ على ركبَتَيْها وسط الحشود في مواجهة تمثال بوذا. كان الجميع يتضرَّعون لبوذا طالبين الخير لأنفسهم ولذويهم، عدا لي شيوليان، فقد كانت تدعو على زوجها بالسوء. أغمضتْ عَيْنَيْهَا، وأخذتْ تُتَمْتِمُ قائلة: "بوذا! أنتَ الرحيم العطوف، رَفَعْتُ قضية على اللعين تشين يوخه، فَلْتُرْسِلْهُ إلى الهلاك هو وعائلته". ثمَّ فكَّرَتْ قليلاً، واستمرَّتْ تُتَمْتِمُ: "هلاكه فقط لن يُطفِئ ناري، لتجعل هذا اللعين يموت ميتة شنيعة".

5

شهران كاملان استعدَّتْ فيهما للقضية، وحين وَصَلَتِ القضية للمحكمة، لم تستغرقْ سوى عشرين دقيقة ليس إلَّا. القاضي الذي بَتَّ في القضية هو نفسه وانغ قونغ داو، كان يجلس على المنصَّة وأمامه لافتة عليها: "رئيس الجلسة"، على يمينه قاضٍ آخر، وعلى يساره كاتب المحكمة. المُدَّعى عليه هو تشين يوخه، لكنه لم يحضر من الأساس، بل أوكل المحامي لاوسون نيابة عنه. طَلَبَتْ من المحامي لاو تشيان أن يكتب لها الشكوى، ومكتب لاوسون للمحاماة يقع بجوار مكتب لاوتشيان. في البداية استمع القاضي للشكوى، ثمَّ استعرض الأدلَّة، واستدعى الشهود. كانت الأدلَّة نسخَتَيْن من وثيقة الطلاق، ووَفْقاً لمعاينة المحكمة، ثبتَتْ صحَّة هاتَيْن الوثيقَتَيْن. خلال الشكوى، قالت إن الطلاق الذي وَقَعَ العام الماضي كان زائفاً، أمَّا المحامي لاوسون، فقد ترافع نيابة عن زوجها السابق قائلاً إن الطلاق الذي وَقَعَ العام الماضي كان حقيقياً. بعدها استدعى القاضي الشهود. الشاهد كان السَّيِّد لاوقو موظَّف السِّجلِّ المَدَنيِّ في بلدة قوايوان الذي حرَّر وثيقة الطلاق العام الماضي. لاوقو كان واقفاً عند باب المحكمة طيلة الوقت، يستمع إلى حيثيات الجلسة، ثمَّ تقدَّم وقال: "الطلاق الذي وَقَعَ العام الماضي كان صحيحاً، أعمل في تحرير وثائق الزواج والطلاق منذُ ثلاثين عاماً، ولم يحدث أن وَقَعَ منِّي أيُّ خطأ بهذا الخصوص".

ظَهَرَ القلق عليها، فقاطعتْهُ قائلة: "لاوقو، أنتَ رجل كبير، كيف لا تعرف إن كان الطلاق حقيقياً أم زائفاً؟".

اغتاظ لاوقو، وردَّ عليها قائلاً: "لو كان طلاقكما زائفاً، فهذا يعني أنكما خدعتُماني".

ثمَّ صفَّق بكفَّيْه قائلاً: "خداعكما لي أمر بسيط، ولكنْ، هذا أيضاً خداع للحكومة". ثمَّ أشار إلى المحامي لاوسون، وقال: "ترافع المحامي عن تشين يوخه، وَذكَرَ أن تشين يوخه قال بنفسه إن الطلاق كان حقيقياً".

صاحت بغضب: "تشين يوخه ابن عاهرة، كيف لكَ أن تُصدِّقه؟".

قال لاوقو: "لن أُصدِّق كلامه هو، سأُصدِّق كلامكِ أنتِ. لم ينطق تشين يوخه، أنتِ مَنْ كنتِ تتحدَّثين طيلة الوقت. سألتُكِ لماذا تريدين الطلاق؟ أجبتِ بملء فمكِ، لا توجد بينكما عواطف، هل كانت العواطف منعدمة، وعادت الآن؟ لم تتقابلا من حينها، كيف عادت العواطف، إذنْ؟ تشين يوخه نفسه لم يحضر إلى المحكمة اليوم، ألَا يدلُّ ذلك على أنه لا يكنُّ لكِ أيَّ عواطف؟".

تَلَجْلَجَتْ، ولم تعرف ماذا تقول، فتمادى قائلاً: "عشتُ أكثر من خمسين عاماً، ولم ينجح أحد في خداعي طيلة حياتي، لو ثَبَتَ زَيْف طلاقكما، بأيّ وجه سأقابل الناس في البلدة بعد اليوم؟".

بَدَا الأمر وكأنها لم ترفع قضية على تشين يوخه، بل على لاوقو.

الشهود والأدلَّة مُثبتة، والأمر واضح للعيان، ضَرَبَ القاضي بمطرقته على المنصَّة، وأعلن رَفْض الدعوى، ثمَّ نَهَضَ الحضور. أمَّا هي، فقد استوقفت القاضي، وسألتْهُ قائلة: "أيُّها الأخ الأكبر، كيف لكَ أن تحكم بهذا؟".

قال: "وَفْقاً للإجراءات القانونية، هكذا يكون الحُكْم".

سألتْهُ: "تشين يوخه لم يحضر إلى المحكمة، أهكذا ينتهي الأمر؟".

أجاب: "وَفْقَاً للقانون يمكنه أن يُنيب عنه محام للحضور".

تسمَّرتْ مكانها مُردِّدة: "أنا حقَّاً لا أفهم، الطلاق كان زائفاً، كيف لكم أن تُبدِّلوه إلى طلاق حقيقي؟".

فأعاد لها وثيقَتَي الطلاق قائلاً: "من الناحية القانونية، هذه الوثائق صحيحة، وقد قلتُ لكِ هذا من قبل، ولكنكِ لم تُصغي".

ثمَّ هَمَسَ قائلاً: "أنا لم أتحدَّث بشأن طفلتكما الثانية، وهذا كرمٌ منِّي".

قالت: "أفهم من هذا أنني خسرتُ القضية، وأنكَ قد أكرمتْني في الوقت نفسه؟".

فردَّ بذهول: "هل لديكِ شكٌّ في ذلك؟".

6

المرَّة الأولى التي تقابلت فيها لي شيوليان مع السَّيِّد دونغ شيانفا(*) كانت أمام بوَّابة محكمة المُحَافَظَة.

السَّيِّد دونغ عضو الهيئة القَضَائيَّة في المُحَافَظَة، في الثانية والخمسين، قصير وسمين، ولديه كِرْشٌ ممتلئة. عمل في المحكمة لعشرين عاماً، حيثُ استقال من الجيش، وعاد للعمل في المُحَافَظَة. كانت هناك ثلاثة مناصب شاغرة في حكومة المُحَافَظَة، واحدة في المكتب البيطري، وأُخرى في مكتب الصِّحَّة، والثالثة في المحكمة. طالعت هيئة التنظيم والإدارة سيرته ومؤهِّلاته، وكان قرارها: "وَفْقاً لمؤهِّلاته، فليس لديه ما يُميِّزه، ولكنْ، من خلال معنى اسمه، فهو لا يصلح للعمل في المكتب البيطري، وكذا الحال بالنسبة إلى مكتب الصِّحَّة، فليكن عمله في المحكمة وَفْقاً لما يوحي اسمه".

ومن هنا بدأ عمله في المحكمة، كان قائد فرقة في الجيش، ووَفْقاً لهذه الرتبة العسكرية جرى تعيينه رئيس محكمة، وبعد عشر سنوات، رُقِّي لمنصب عضو بالهيئة القَضَائيَّة للمُحَافَظَة. يقال إن هذه ترقية، ولكنَّ كلَّ مَنْ يعمل في السِّلْك القضائي يعرف أن هذا تخفيضاً لرتبته، فهذه وظيفة بلا أيِّ سلطات فعلية. اسميَّاً تعادل درجة نائب كبير القُضَاة، ولكنها ليست كذلك، فسلطاته وامتيازاته ورواتبه لا تضاهي تلك التي يتمتَّع بها رئيس المحكمة. بمعنى آخر، صارت درجته أقلَّ من رئيس محكمة. شغل

*).معنى اسمه في اللغة الصِّينيَّة: العارف بالدستور.

دونغ شيانفا منصب عضو الهيئة القَضَائيَّة لعشرة أعوام، وها هو أوشك على التقاعد. قبل عشرين عاماً، كان كبير القُضَاة ونائبه أكبر منه سنّاً، أمّا الآن، فكبير القُضَاة ونائبه أصغر منه، ومن حيثُ السِّنِّ، يُعدُّ هو صاحب الأقدمية بينهما. ولأنه الأقدم، فَوَضْعُهُ الآن يُعدُّ تراجعاً من حيثُ المكانة، وصار منبوذاً من أقرانه. هو، أيضاً، كان يحتقر نفسه أكثر منهم. هم ينبذونه، أمّا هو، فيحتقر نفسه. تَرَكَ فرص الترقية لمنصب نائب كبير القُضَاة تضيع من يده مرّات كثيرة. من المفترَض أن يكون عضو الهيئة القَضَائيَّة هو الأقرب لشغل منصب نائب كبير القُضَاة، لكن رؤساء المحاكم الأقلّ منه تخطّوه، وشغلوا هذا المنصب بدلاً منه، وهو لا يزال في منصبه كعضو بالهيئة القَضَائيَّة دون إحراز تقدُّم يُذكَر. الأهمُّ من كلِّ هذا هو أن زملاءه كانوا يعتقدون أنه لم يترقَّ بعد عشرين عاماً لأنه غير كفء، أمّا هو، فيعتقد أنه لم يترقَّ، لأنه شخص مستقيم، لا يعرف التَّملُّق، ولا تقديم الرِّشَى أو انتهاك القانون. كان حزيناً ومُحبَطاً، وعندما تحوَّلت العدالة إلى إحباط، كان عليه أن يتكيَّف مع وَضْعه. والأهمُّ من هذا كلِّه هو أنه لم يكن يُحبُّ عمله في القضاء، ليس لأنه يشعر أن القانون غير مُهمٍّ، بل لأنه منذُ صغره كان يحبُّ توحيد الأمور، وليس تفريقها إلى قسمَيْن، وعمله في المحكمة يومياً كان هو الفَصْل بين الأمور، فالمتقاضون لا يذهبون للمحاكم إلَّا عندما تسوء الأمور، تماماً كالطبيب، لا يتعامل يومياً سوى مع المرضى. المستشفيات تأمل أن يزيد عدد المرضى، والمحاكم تأمل زيادة القضايا والنزاعات. فلولا المرضى والقضايا، لَأُغلِقَت المستشفياتُ والمحاكمُ أبوابَها.

كان دونغ شيانفا يشعر أنه دَخَلَ المهنة الخطأ، وهذه هي المشكلة الأهمُّ. كان يشعر أن العمل كسمسار في سوق المواشي أفضل من العمل في المحكمة. ولكنه كعضو في الهيئة القَضَائيَّة لا يمكنه التَّخلِّي عن وظيفته، والذهاب للسوق لبيع المواشي. هو نفسه لا يأنف أن يذهب لسوق المواشي، ولكن الناس سيُجنُّ جنونهم، وسيعتقدون أنه مجنون. لذا

ظلَّ في عمله وهو مهموم طيلة الوقت. كان الناس يعتقدون أنه مهموم بسبب عدم ترقيته بعد عشرين عاماً قضاها في العمل، ولذلك كانوا دوماً يواسونه عندما يدعونه للشراب. هو بالفعل كان مهموماً لهذا السبب، ولكن السبب الأهمَّ هو أنه لا يُحبُّ هذه الوظيفة، ويريد أن يعمل سمساراً في سوق المواشي. سبب هامٌّ آخر، وهو أنه لا يستطيع البوح بذلك. ولذا فبخلاف أنه يقضي أيَّامه في العمل على مَضَض، فهو يعيش في ضِيْق من البيئة والأشخاص المحيطين به. وبسبب هذه الحالة التي يعيشها، يكسر، أحياناً، الأواني والأكواب التي يراها أمامه، كان يُكثر من الشراب في غير أوقات العمل. من المفترَض أنه يشارك في البَتِّ في القضايا أو إبداء المشورة بخصوصها، بصفته عضواً بالهيئة القَضَائيَّة، ولذلك كان المُدَّعون والمُدَّعى عليهم يدعونه للشراب، ولكنْ، بمرور الوقت، فَطِنَ الناس أنه لا يشارك في البَتِّ في القضايا، ولا إبداء المشورة، وأنه لا يساوي في مكانته رئيس المحكمة، لذا لم يعد يدعوه أحد للشراب أو يتجاذب معه أطراف الحديث. كان بإمكانه الشُّرب برُفْقَة زملائه في العمل، لكن زملاءه كانوا يعرفون أنه ظلَّ عشرين عاماً دون ترقية، وأنه أوشك على التقاعد، وينظرون إليه على أنه شخص لا رجاء منه، ولذلك لم يكن أحد يودُّ إضاعة وقته في تناوُل الشراب برفقته. لم يكن لديه مَنْ يشرب برفقته أو يدعوه، ولأنه لم يكن يتمكَّن من الشرب، فقد كان معظم الوقت يغلي في داخله. وبمرور الوقت، وَصَلَ به الحال للتَّطفُّل على الآخرين لتناوُل الشراب معهم، فكان يذهب يومياً في الحادية عشرة ظُهْراً عند باب المحكمة بعد انتهاء الفترة الصَّباحيَّة، حيثُ ينتظر المُدَّعون والمُدَّعى عليهم القُضَاة لدعوتهم لتناوُل الشراب، فيجد زملاؤه أنفسهم في مواجهته، فلا يجدون بُدَّاً من دعوته معهم.

في البداية كان دونغ شيانفا يتردَّد قليلاً ويقول: "مشغول الآن". ثمَّ على الفور دون أن ينتظر ردَّ الآخرين يقول: "وحتَّى لو كنتُ مشغولاً، يمكنني

تأجيل العمل إلى وقت لاحق". ثمَّ يذهب معهم من تلقاء نفسه لتناوُل الطعام والشراب.

وبمرور الوقت على هذه الحال، كان زملاؤه يبادرونه قائلين: "نعرف أنكَ مشغول، لن ندعوكَ لتناوُل الطعام والشراب برفقتنا".

ويبدو عليه القلق ويقول: "لم أقلْ إني مشغول، كيف لكم أن تعرفوا أني مشغول؟ ماذا تقصدون بكلامكم هذا؟ هل تريدون أن تأكلوا وحدكم دوني؟".

ثمَّ يضيف: "إيَّاكم أن تُقلِّلوا من شأني، عملتُ في القضاء لعشرين عاماً، ربمَّا أكون مشغولاً دوماً، ولا وقت لديَّ لمساعدتكم، ولكنَّ إفساد الأمور عليكم أمر سهل بالنسبة إليَّ".

فيشعر زملاؤه بالحرج، ويخاطبونه: "أتغضب منَّا ونحن نمازحكَ؟".

ومع الوقت، لم يعد زملاؤه يجرؤون على الخروج من الباب الأمامي للمحكمة وقت الظَّهيرة، بل صاروا يتسرَّبون خِلْسَة من الباب الخلفي، فهم يعرفون أنه ينتظرهم أمام البوَّابة الأمامية. تقابلت لي شيو ليان مع دونغ شيانفا حين كان يتجوَّل أمام الباب الأمامي للمحكمة مُنتظِراً زملاءه، لكي يتطفَّل عليهم كالمعتاد. لم ترفع أيَّ قضايا قبل قضيَّتها هذه، ولم تكن تعرف مَنْ هو دونغ شيانفا. في المرَّة السابقة كان وانغ قونغ داو هو القاضي الذي نَظَرَ قضيَّتها، وَحَكَمَ بخسارتها لها، وهي لم ترضخْ للحُكْم. لم تكن فقط ساخطة على هذا الحُكْم، بل غير واثقة أيضاً في شخص وانغ قونغ داو. فكَّرَتْ في أن ترفع قضيَّتها ثانية، وألَّا تكون الشكوى ضدَّ زوجها وحده. ولكي ترفع قضيَّتها ثانية، عليها أوَّلاً أن تنقض الحُكْم الذي أصدره. فبنَقْض الحُكْم، يمكنها البدء في القضية من جديد. وهكذا أخذت القضية تتعقَّد.

كانت تعرف أن عليها أن تنقض الحُكْم، ولكنها لم تكن تعرف كيف تفعل

ذلك، ففكَّرَتْ أن مَنْ سينقض حُكْم وانغ قونغ داو بالتأكيد هم القُضَاة الأعلى منه. فهو يعمل قاضٍ في المحكمة المَدَنِيَّة بالمُحَافَظَة، لذلك ذَهَبَتْ إلى رئيس المحكمة المَدَنِيَّة.

رئيس المحكمة المَدَنِيَّة اسمه السَّيِّد لاوجيا، وهو يعلم أن هذه قضية معقَّدة، والأعقد من القضية هو أنه استشفَّ على الفور أن هذه السَّيِّدة لا تفقه شيئاً بخصوص المسائل القانونية، وشَرْح المسائل القانونية هو أمر أكثر تعقيداً من البَتِّ في القضايا، كان يخشى أن تتعقَّد الأمور، وأنه بجداله معها يُقحِم نفسه في القضية. ذَهَبَتْ إليه في السادسة مساء، وكان في عَجَلَة من أمره للذهاب إلى حفل عشاء، فَلَمَعَتْ في ذهنه فكرة ذكية، يزيح بها هذه القضية عن كاهله، ألَا وهي أن يدفع بتلك القضية تجاه دونغ شيانفا. لم يفكِّر في ذلك لأنه يكرهه، بل لأنه لا يجرؤ على رَفْع هذه القضية إلى المسؤولين الأعلى، كنُوَّاب رئيس الهيئة القَضَائِيَّة، ولا يجرؤ أيضاً على رَفْعها لرئيس الهيئة. فضلاً عن أنه دائم التناحر مع دونغ شيانفا، وعادة ما يدور بينهما تشابك بالألسن. تعمَّد لاوجيا أن يعضَّ على شَفَتَيْه، ويقول: "هذه قضية معقَّدة للغاية".

قالت: "القضية لم تكن معقَّدة، أنتُم مَنْ جَعَلْتُمُوها كذلك".

قال: "تمَّ البَتُّ في القضية، ولا حيلة لي في نَقْضها، فليست لديَّ هذه الصَّلاحِيَة".

قالت: "ليست لديكَ تلك الصَّلاحِيَة؟ مَنْ لديه الصَّلاحِيَة، إذنْ؟".

تظاهر بأنه يفكِّر قليلاً، ثمَّ قال: "سأُخبركِ عن الشخص الذي لديه الصَّلاحيات، ولكنْ، لا تقولي إنني مَنْ أخبرتُكِ بهذا".

قالت بدهشة: "أريد رَفْع قضية، لستُ سارقة، ما الداعي لهذا التَّصرُّف؟".

أجاب: "هذا الشخص لديه الكثير من القضايا المعقَّدة، ولو رَفَعْتِ له قضية إضافية، فسوف يغضب".

سألت: "ومَنْ هو؟".

أجاب: "دونغ شيانفا، عضو الهيئة القَضَائيَّة".

فسألته بتجهُّم: "وما هو عمل هذا العضو؟".

أجاب: "عمله مثل عمل الاستشاريِّيْن المختصِّين بعلاج الأمراض المستعصية في المستشفيات".

هل أخطأ لاوجيا؟ بالطبع لا، فمن الناحية النَّظَرِيَّة، يُعدُّ دونغ شيانفا عضواً في لجنة الهيئة القَضَائيَّة، وهو مختصٌّ بالبحث في القضايا المهمَّة المعقَّدة، ومن الناحية المِهَنِيَّة، فرُتبتُهُ أعلى من رتبة رئيس المحكمة، ومنصبه أعلى من لاوجيا، ولكنَّ كلَّ مَنْ يعمل في السِّلْك القضائي يعرف أن هذه درجة وظيفية بلا صَلاحِيَة، درجة عليا لا تساوي في سلطتها مَنْ هم أدنى منه. صدَّقت هي كلام لاوجيا، فَذَهَبَتْ في اليوم التالي، وَوَقَفَتْ أمام بوَّابة محكمة المُقَاطَعَة حتَّى شاهدت دونغ شيانفا يقف مُنتظِراً كالعادة. ظلَّ يترقَّب زملاءه لأكثر من ساعة دون نتيجة. لم تكن لي شيوليان تعرف طبيعة شخصيَّته، هي فقط تعرف أنه عضو بالهيئة القَضَائيَّة، ومختصٌّ بالنَّظَر في القضايا المعقَّدة، هو أيضاً لم يكن يعرف مَنْ هي. ولأن كلاًّ منهما لا يعرف الآخر، فإنها كانت تهابه، وعندما رأتْهُ واقفاً أمام المحكمة يترقَّب يَمْنَةً ويَسْرَةً، لم تجرؤ على إزعاجه. ولكنْ، عندما رأتْهُ على هذه الحال لأكثر من نصف ساعة دون نتيجة، تقدَّمت نحوه، وسألتْهُ: "هل أنتَ السَّيِّد دونغ شيانفا عضو اللجنة القَضَائيَّة؟".

اضطرب فجأة من هذا الموقف، ثمَّ نَظَرَ إلى ساعته، فَوَجَدَهَا تخطَّت

الواحدة والنصف، فعلم أنه لن يجد طعاماً يتطفَّل عليه اليوم، فاستدار وسألها: "مَنْ تكونين؟".

قالت: "اسمي لي شيوليان".

فكَّر طويلاً، ولم يتذكَّر مَنْ تكون لي شيوليان، فتثاءب مُتَمَلْمِلاً وهو يسألها: "وما هي مشكلتكِ؟".

قالت: "حَكَمْتُم خطأ في قضيَّتي".

بَدَا مُشوَّشاً، ولم يتذكَّر أيَّ قضيَّة تلك التي تتحدَّث عنها، وهل شارك فيها أم لا. وحتَّى لو شارك فيها، فالأمور مختلطة داخل عقله، ولأنه لم يكن يتذكَّر، اضطرَّ أن يسألها قائلاً: "القضايا كثيرة جدَّاً، أيّ واحدة تقصدين؟".

أخذت تسرد له قضيَّتها، ولكنه لم يُمهلْها حتَّى تنتهيَ من حديثها، حيثُ بَدَا عليه الحَنَقُ والغَضَبُ. فهو لم يسمع بهذه القضية من قبل مطلقاً، فضلاً عن تعقيد موضوع طلاق لي شيوليان من تشين يوخه، ثمَّ زواجها، ثمَّ طلاقهما، ولأنها بالفعل قضية معقَّدة، ولم يشارك فيها من قبل، لم يطق صبراً على الاستماع إلى كلامها، فالحديث عن بيع المواشي في السوق أكثر أهمِّيَّة له من هذا الكلام، وقاطعها مُغتاظاً: "ليست لي أيّ علاقة بهذه القضية".

قالت: "ليست لكَ علاقة بها، ولكن وانغ قونغ داو على علاقة بها".

قال بتأفُّف: "فلتبحثي، إذنْ، عن وانغ قونغ داو، لماذا أتيتِ إليَّ؟".

قالت بتحدٍّ: "أنتَ أعلى منصباً منه، وهو حَكَمَ بالخطأ، فأنتَ المسؤول، إذنْ".

"هناك الكثيرون ممَّنْ هم أعلى منصباً داخل المحكمة، فلتذهبي إلى أحدهم".

= "لقد أخبرني أحد المسؤولين في المحكمة أنكَ متخصِّص بالنَظَر في القضايا المعقَّدة".

فَطِنَ دونغ شيانفا أن أحدهم حَفَرَ له تلك الحفرة، قضية لا علاقة له بها، ولا أحد يرغب في تحمُّل مسؤوليتها، ويريد أحدهم أن يُوكِلَها إليه، فقال مُغتاظاً: "مَن ابن العاهرة هذا الذي أخبرك بذلك؟ كلُّهم ملاعين يعملون في المحكمة، لا غرابة أنهم يحكمون خطأً".

ثمَّ خاطبها قائلاً: "فلتذهبي إلى مَنْ طَلَبَ منكِ المجيء إليَّ، أنا أيضاً سأذهب إليه".

انتهى من جُملته هذه، ثمَّ استدار بجَسَدِه مُغادِراً. كان جائعاً، ولم يكن هناك مَنْ يتطفَّل عليه، ففكَّر في الذهاب إلى مطعم صغير في الشارع لتناوُل طبق معكرونة بلحم الضأن، وشُرب قَدَحَيْن من الخمر الرديء. لكن لي شيوليان استوقفتْهُ قائلة: "لا يمكنكَ المغادرة قبل أن تردَّ عليَّ بشأن قضيَّتي".

بَدَا دونغ شيانفا مُحرَجاً، لا يعرف كيف يتصرَّف؛ فقال: "لماذا تُصرِّين على مضايقتي؟ هناك الكثير من المسؤولين في المحكمة، لماذا لا تذهبين إلى أحد غيري؟".

"أرسلتُ لكَ هدية".

قال بتعجُّب: "أيّ هدية تلك؟".

"ذَهَبْتُ إلى بيتكَ بالأمس حاملة صُرَّة كبيرة من القطن ودَجَاجَتَيْن عتيقَتَيْن".

يقطن وانغ شيانفا قرية اسمها قرية عشيرة دونغ، تبعد عن مركز المُحَافَظَة ثلاثة كيلومترات. وَبَدَا في حَيْرة من أمره حين سمع بأمر الهدية،

لكنه قال: "هل تعتقدين أنكِ ستشترينني بصُرَّة من القطن ودَجَاجَتَيْن عتيقَتَيْن؟ اذهبي، واستردِّيهم".

ثمَّ أشاح بيده مُغادِراً، لكن لي شيوليان استوقفتْهُ ثانية، وقالت: "وعدتْني زوجتكَ أنكَ ستهتمُّ بأمر قضيَّتي".

"إنها مجرَّد ربَّة منزل، لا تعرف سوى تربية المواشي، من أين لها أن تفهم في القانون؟".

= "هل يعني كلامكَ أن هديَّتي ذَهَبَتْ هَبَاء؟".

أشار بإصبعه، وقال: "لا، لم تذهب هَبَاء، هذا يُسمَّى رَشْوَة، هل تفهمين؟ أنا لم أُحمِّلكِ المسؤولية القانونية عن هذه الرَّشْوَة، وها أنتِ لا تكفِّين عن مضايقتي".

هَمَّ بالمغادرة؛ فحاولت أن تستوقفَهُ ثانية. وفي تلك الأثناء التفَّ الكثير من الناس حولهما لمشاهدة ما يجري. كان غاضباً قبل ظهورها، وعندما رأى تجمُّع الناس حولهما، اشتدَّت وتيرة غضبه، فصاح قائلاً: "اغربي عن وجهي، امرأة سليطة خرقاء، كيف لكِ أن تعترضي طريقي بهذا الشكل، أيّ أسلوب هذا؟". ثمَّ أزاحها من أمامه، وغادر المكان.

بحلول المساء، استقلَّ دَرَّاجته عائداً إلى قريته، وقبل أن يدلف من باب بيته، شمَّ رائحة الدجاج المَطهوّ. وحين دَخَلَ وَجَدَ حماه جالساً بالداخل، وزوجته تُعدُّ الدجاج المسلوق. كان قد نسي أمر لي شيوليان، ولكنه ما إن شمَّ رائحة الدجاج المسلوق حتَّى تذكَّر ما حَدَثَ، فَدَخَلَ إلى المطبخ، وَكَشَفَ عن القِدْر، وشاهد الدَّجَاجَتَيْن داخله؛ فسارع يوبِّخ زوجته ويقول: "متى تُقلعين عن هذه العادة السَّيِّئة، وتكفِّي عن الطَّمَع في أشياء صغيرة كهذه؟ هل تدركين ماذا فعلتِ؟ هذا يُسمَّى رَشْوَة وخَرْقاً للقانون". لكنه بحلول اليوم التالي، نسي هذا الأمر تماماً.

7

قابلت لي شيوليان السَّيِّد شوين تشنغيي(*) رئيس الهيئة القَضَائيَّة أمام مدخل فندق سونخه. كان ثمَلاً، وثمَّةَ مَنْ يحمله إلى خارج الفندق. عُمُره ثمانية وثلاثون عاماً، ويشغل منصب رئيس المحكمة منذُ ثلاث سنوات. وهو الأصغر سنّاً بين رؤساء الهيئات القَضَائيَّة في المحافظات الأُخرى. ولأنه كان شابّاً، ولديه مستقبل واعد، فقد كان حريصاً بعض الشيء؛ لا يشرب عادة، وقد حدَّد لنفسه خمسة محظورات: لا يشرب وحده، ولا يشرب خلال ساعات العمل، ولا يشرب داخل إطار الوظيفة، ولا يشرب في المُحَافَظَة التي يعمل بها، ولا يشرب إلَّا في عطلة نهاية الأسبوع. وعلى الرَّغْم من وجود تشابكات وتقاطعات بين هذه المحظورات، فإن مُلخَّصها هو أنه لم يكن يشرب على هواه أو دون سبب.

لكنه شرب كثيراً في ذلك اليوم، وفي المُقَاطَعَة التي يعمل بها نفسها، وداخل إطار وظيفته وفي يوم عمل، وكلُّها تتعارض مع المحظورات التي حدَّدها لنفسه، ولكنه لم يفعل ذلك برغبته، وإنما لسبب؛ فيومها كان عيد ميلاد السَّيِّد لاوتساو رئيس الهيئة القَضَائيَّة الأسبق، والذي تقاعد منذُ ثلاث سنوات، وحلَّ هو محلَّه، والسَّيِّد لاوتساو له فضل كبير عليه، فهو مَنْ أهَّله ورشَّحَه لهذا المنصب. الرئيس السابق يحتفل بعيده ميلاده، ويتعيَّن عليه مشاركته الشُّرب. ثمَلَ الرئيس السابق، وكذلك ثمَلَ هو. دائماً ما كان يشعر بالتقصير في حقِّ رئيسه السابق وصاحب الفضل عليه، فقبل ثلاث

---

*) معنى اسمه في الصِّينيَّة: الباحث عن العدالة.

سنوات، وفيما كان رئيسه يستعدُّ للتقاعد، وكان له أربعة نُوَّاب، ولم يكن ينوي ترشيح شوين تشينغيي ليحلَّ محلَّه، بل كان ينوي ترشيح نائب آخر اسمه لاوقه. فبخلاف حُبِّه للبَتِّ في القضايا، كان السَّيِّد لاوتساو يُحبُّ أيضاً شُرب الخمر ولَعِبَ الورق. لاوقه أيضاً كان يُحبُّ لَعِبَ الورق. ولعب الورق هو من أسهل الطُّرُق للتَّعرُّف على طِبَاع الشخص وأخلاقه. من خلال لعبهما للورق معاً تعرَّف السَّيِّد لاوتساو على شخصية لاوقه عن قُرب، وقرَّر أن يرشِّحه، ليكون خليفة له في منصب الرئيس وهو مرتاح البال. وقد حَدَثَ بعد مغادرة السَّيِّد لاوتساو منصبه بشهر واحد، أن اجتمع لاوقه مع زملائه وشربوا حتَّى ثمِلُوا. وبعدما ثمِل لاوقه، قاد سيَّارته في عكس اتِّجاه السير بسرعه كبيرة، فسارعت بقية السَّيَّارات لإفساح الطريق له وهي ترتعب، لكنه ظلَّ يسبُّهم قائلاً: "كيف لكم أن تقودوا في الاتِّجاه المعاكس؟ ألَا يوجد قانون يردعكم؟ غداً سأحكم عليكم حُكْماً قاسياً".

في تلك الأثناء، كانت شاحنة فَحْم كبيرة قادمة، ولم ينجحْ سائقها في تفاديه؛ فاصطدم بسيَّارته، وأطاح بها للجهة الأُخرى من الطريق، ومات لاوقه عل الفور. موته كان بمثابة الفرصة التي أُتيحت إلى شوين تشينغيي، فتولَّى منصب الرئيس بدلاً منه. والحقيقة أن الفضل في شغله لهذا المنصب لا يعود إلى السَّيِّد لاوتساو، بل يعود إلى تلك الشاحنة التي صَدَمَتْ سيَّارة لاوقه، بل بالأحرى ليست الشاحنة، بل الخمر التي شربها لاوقه، وكذلك زملاؤه الذين شربوا برفقته حتَّى ثمِلَ. هكذا كان يعتقد شوين تشينغيي، لكن السَّيِّد لاوتساو لم يرَ ذلك، بل كان مُقتنِعاً أن الشخص الذي شغل هذا المنصب من بعده، هو الشخص الذي ينبغي أن يكون مَديناً له. وكان على شوين تشينغيي أن يُسايرَ الموجة، ويُقرَّ بما يعتقده الرئيس السابق. لذلك، فبعدما شغل منصب رئيس الهيئة القَضَائيَّة، كان يبادر لاوتساو عندما يقابله قائلاً: "أيّ شرف هذا، لولا فضلكَ عليَّ، ما كنتُ لأشغل هذا المنصب الآن".

وكان السَّيِّد لاوتساو يُصدِّقه، ويعتبره من المقرَّبين. وكان يعرف حدوده بعد تقاعده، فلم يكن يتدخَّل في أيٍّ من أمور القضاء، ولم يكن يقصد شوين تشينغيي إلَّا عندما تكون لديه حاجة شخصية. ولأنه لم يكن يتدخَّل في أمور القضاء بعد تقاعده، ولا يقصده إلَّا لأمور شخصية، كان تشوين تشينغيي يعلم أن رئيسه السابق حاذق وحكيم، ولم يكن يتوانى عن حَلِّ مشكلاته الشَّخصيَّة التي لا تُكلِّف شيئاً في العادة. ولمدَّة ثلاث سنوات مرَّت على شُغله منصب رئيس الهيئة القَضَائيَّة، كان دائم الاعتناء برئيسه السابق، وعندما يحلُّ موعد عيد ميلاده، كان يقيم له حفلاً فاخراً، ودائماً ما يفتتح الحفل بعبارة مكرَّرة، هي: "لقد كنتُ مشغولاً في عملي طيلة العام، وقصَّرتُ في حقِّ رئيسي الكبير، لكنْ، لا يمكنني أن أُقصِّر في حقِّه يوم عيد ميلاده".

وعلى الرَّغْمِ من أنها عبارة واحدة يعتذر بها عن التقصير خلال عام كامل، فإنها أفضل من لا شيء، كما أنها تُشعِر سامعها بالفخر والسعادة.

أُقيم حفل عيد الميلاد هذا العام في الطابق الثاني بفندق سونخه، شرب السَّيِّد لاوتساو كثيراً حتَّى ثمِلَ، واضطرَّ شوين تشينغيي أن يشرب هو الآخر حتَّى الثُّمَالَة. وقبل أن يثملَ قال: "رئيسي الكبير يعرف أنني لا أشرب عادة، وقد حدَّدتُ لنفسي خمسة محظورات، لكنْ، اليوم استثناء، ولذلك سأشرب دون تحفُّظ".

انتفخت أوداجه من فَرْط السعادة. فهو يشرب طيلة حياته، أمَّا شوين تشينغيي، فلم يكن يشرب كثيراً، وأنَّى له أن يكون نِدَّاً لرئيسه السابق في شُرب الخمر. للرئيس السابق طريقتُهُ الخاصَّة والفريدة في شُرب الخمر، فالتدخين والشرب متلازمان عنده، وهو يُطبِّق مقولة "الخمر والدخان أبناء عائلة واحدة". ليس المقصود بأنهما عائلة واحدة أنه يشرب ويُدخِّن في الوقت نفسه، بل إنه كان يملأ كأسه تدريجياً وَفْقَاً لارتفاع علبة السجائر.

في البداية يضع علبة السجائر بجوار الكأس في وَضْع مُستوٍ، ثمَّ يملأ الكاس وَفْقاً لارتفاعها، ويتجرَّعه دفعة واحدة. ثمَّ يضعها على جانبها في وَضْع أُفُقي، ويملأ الكأس وَفْقاً لارتفاعها، ويتجرَّعه دفعة واحدة، بعدها يضعها في وَضْع رأسي، ويصبُّ الكأس وَفْقاً لارتفاعها، ويتجرَّعه أيضاً دفعة واحدة. وعندما تكون علبة السجائر في وَضْع مُستوٍ، تكون سَعَة الكأس أونصة واحدة، وعندما تكون على جانبها في وَضْع أُفُقي، تكون سَعَة الكأس أونصَتَيْن، وعندما تكون قائمة رأسياً، تكون سَعَة الكأس ثلاث أونصات، ومع دورة كاملة لعلبة السجائر في هذه الأوضاع الثلاثة، يكون قد شرب ربع ليتر، وهذا يُسمَّى بداية الشراب. بعدها يبدأ الشراب بشكل فعلي. تعاد هذه الكرة مرَّات ومرات، ومن الصعب التَّكهُّن بكمِّيَّة الخمر التي يشربونها في النهاية. لم يعِ السَّيِّد لاوتساو أنه قد تقاعد، وأن رئيس الهيئة القَضَائيَّة الآن هو شوين تشنغيي، وأن مَنْ يحتفلون ويشربون برفقتهم هم نُوَّاب رئيس الهيئة ورئيس المكتب السِّياسيّ وأعضاء من النيابة وغيرهم من المسؤولين، الذين كانوا تحت إمرته في الماضي، ولم يعودوا كذلك، هم الآن تحت طَوْع الرئيس الجديد. خلال بداية الشُّرب، كان لاوتساو يشرب خمراً حقيقياً، وكذلك كان شوين تشينغيي، ولكنْ، مع بدء مرحلة الشراب الفعلي، يخدعه المسؤولون، فيصبُّون له خمراً حقيقياً، ويصبُّون لرئيسهم ماءً بدلاً من الخمر. ومع تكرار المسألة مرَّات ومرَّات، ثمِلَ السَّيِّد لاوتساو، وكذلك شوين تشنغيي. ثمِلَ الأوَّل كُلِّيّاً، أمَّا الثاني، فكان نصف ثَمِل، لكنه اضطرَّ للتظاهر بالسُّكْر. ولذلك عندما انتهى الحفل قام البعض بحَمْل السَّيِّد لاوتساو، لأنه كان ثمِلاً، وقام بعضهم الآخر بحَمْل شوين تشنغيي الذي كان يتظاهر بالسُّكْر، ثمَّ خرجوا من بوَّابة الفندق. وتصادف في تلك الأثناء أن هُرعت لي شيوليان نحو شوين تشنغيي، وَوَقَفَتْ في طريقه قائلة: "أيُّها الرئيس، رُدَّ لي مَظلَمَتي".

وعلى الرَّغْمِ من أن اعتراض رئيس المحكمة من قِبَل المُتظلِّمين أمر شائع

الحدوث، فإن حدوث ذلك ليلاً، وبعد الخمر، وبهذا الشكل المُفاجِئ، جَعَلَهُ ينتفض مذعوراً. ولأن السَّيِّد لاوتساو كان لا يزال بجواره، تعيَّن عليه أن يستمرَّ في التظاهر بالسُّكْر، وأن يُخفيَ شعوره بالذعر. شَعَرَ الشخص الذي كان يسنده بالذعر أيضاً، فسارع بجذبها بعيداً وهو يقول: "ابتعدي من هنا، ألَّا ترين أن الرئيس ثمِلٌ؟ لو كانت لديك مَظْلَمَة، يمكنكِ أن تدلي بها في الغد".

قال هذه العبارة، ثمَّ استمرَّ يسند رئيسه بيده، ليستقلَّ السَّيَّارة، لكن السَّيِّد لاوتساو سأل بصوت عالٍ: "ما الذي يجري؟".

وعلى الرَّغْم من أنه كان يتحدَّث بصعوبة، بسبب السُّكْر، فإنه استمرَّ يسأل: "هل هناك مَنْ جاء يبثُّ شكواه؟ أحضروه إليَّ، أنا أعرف التعامل مع هذه المواقف جيِّداً".

لو لم يكن السَّيِّد لاوتساو ثمِلاً ما كان ليتدخَّل في أمر كهذا، ولكنْ، لأنه كان ثمِلاً، فقد نسي أنه متقاعد منذُ سنوات، وما إن شاهد أحدهم (مُتظلِّماً) حتَّى عاد لطبيعته التي كان عليها قبل التقاعد. وعندما رآه البقية يحاول التَّدخُّل، هُرعوا نحوه تاركين شوين تشينغيي، وحاولوا أن يُدخِلُوه إلى سيَّارته قائلين: "إنها امرأة ريفيَّة، لن يكون لديها ما يستحقُّ اهتمامكَ، عليكَ أن تهتمَّ بصحَّتكَ، وتعودَ الآن لتستريحَ في بيتكَ، وسيتكفَّل الرئيس شوين تشنغيي بمعالجة هذا الأمر".

السَّيِّد لاوتساو كان ثمِلاً، لدرجة أنه لم يكن قادراً على الوقوف، فحملوه وأدخلوه سيَّارته، ولكنه لم ينصعْ لمشورتهم، فَفَتَحَ نافذة السَّيَّارة، وأشار بيده لمَنْ يخلفه في المنصب الذي كان واقفا بجوار سيَّارته قائلاً بلهجة القائد الذي يخاطب مرؤوسه: "عليكَ أن تهتمَّ بهذه القضية جيِّداً، وأعلم أنه لو لم يكن المسؤولون في خدمة الشعب، فمن الأفضل لهم الذهاب لبَيْع البطاطا".

تقدَّم شوين تشنيغيي نحوه مُسرِعاً، وأجابه: "اطمئنَّ، يا سيِّدي، أنا أحفظ دوماً كلَّ ما تعلَّمتُهُ منكَ، بالطبع سوف أهتمُّ بهذه القضية، وسأوافيكَ بالتفاصيل غداً".

ظلَّ الرئيس السابق يُغَمْغِمُ بتكرار النصائح، إلى أن غادرت سيَّارته. وبسبب توصية السَّيِّد لاوتساو، لم يجرؤ الرئيس الحالي للمحكمة أن يغادرَ على الفور دون أن يهتمَّ لأمر لي شيوليان. فهو يخشى أن يستفيق رئيسه السابق غداً، ويتذكَّر هذا الأمر، ويسأله عنه، وسيكون في مأزق، إذ سيظنُّ السَّيِّد لاوتساو أنه يستخفُّ به، كيف يُنفِّذ أوامره وهو صاح، ويستخفُّ بها وهو ثمِلٌ. هو متقاعد الآن، وربمَّا لن يمكنه مساعدته في شيء، ولكنْ، ما تزال لديه القدرة على التَّسبُّب في المتاعب، فقد شغل منصبه لسنوات طويلة، ولديه الكثير من العلاقات، ومن الصعب توقُّع ما قد يفعله. ولذلك فعلى الرَّغْمِ من أنه كان نصف ثمِل، فإنه عاد وسألها بضجر: "ما هي قضيَّتك؟".

قالت: "أريد أن أتقدَّم بشكوى".

سألها: "ضدَّ مَنْ؟".

قالت: عضو الهيئة القَضَائيَّة "دونغ شيانفا".

في الأصل، كانت تريد شكوى زوجها السابق، ولكنها، بعد ذلك، أضافت إلى قائمة شكواها القاضي وانغ قونغ داو، لأنها تعتقد أنه قد حَكَمَ خطأً في قضيَّتها، والآن طَرَحَتْ شكواها بخصوص القاضي جانباً، وتريد شكوى عضو الهيئة القَضَائيَّة دونغ شيانفا. لا توجد عداوة بينها وإيَّاه من قبل، الأمر لم يكن كذلك عندما ذَهَبَتْ تتوسَّل إليه أن يُنصفَها في قضيَّتها ولكنه رَفَضَ قائلاً إنه أمر لا يخصُّه، ولكن الأمور تحوَّلت بعدها، وزادت وتيرة الجدال بينهما، وتجمَّع الناس حولهما أمام بوَّابة المحكمة، وحينها شَعَرَ

دونغ شيانفا بالضجر، فَسَبَّهَا قائلاً: "امرأة سليطة"، و"اغربي بعيداً". هاتان الجملتان جَعَلَتَاهَا في قمَّة غضبها. كانت ترى نفسها مظلومة، وَذَهَبَتْ للقاضي المسؤول كي ينصفَها، فكيف، إذنْ، ينعتها هذا المسؤول بأنها امرأة سليطة أو يطلب منها أن تغرب بعيداً؟ من هنا قرَّرت الذهاب إلى رئيس الهيئة القَضَائيَّة لتشكوَه إليه. ولم يستطع شوين تشنغيي أن يعيَ كلَّ ما قالتْهُ، فسألها: "ما الذي بَدَرَ من عضو الهيئة القَضَائيَّة تجاهكِ؟".

كونه نَعَتَهَا بأنها امرأة سليطة أو طَلبه منها أن تغرب بعيداً ليس جريمة يعاقب عليها القانون، ولذلك لم تعرف كيف تجيب؛ فقالت بتسرُّع: "إنه فاسد ومُرتش".

قولها فاسد ومرتش ليس عليه دليل، ربمَّا يكون ارتشى من قبل، ولكنه لم يأخذ رَشْوة منها، وإذا كانت زوجته قبلتْ منها صُرَّة قطن ودَجَاجَتَيْن عتيقَتَيْن، فذلك لا يُعدَّ رَشْوة.

هبَّت ريح شديدة، فَشَعَرَ رئيس المحكمة برجفة في جَسَدِه. في الأصل كان نصف ثمَلٍ، ولكنْ، مع الريح الباردة، صار ثمِلاً كُلِّيّاً. هو في العادة يكون حَذِراً في حديثه وهو مُستفيق، ولكنْ، عندما يثمل يكون سريع الغضب. وهذا هو السبب الأهمُّ في أنه يمنع نفسه عن الشُّرب في الظروف العادية.

قال غاضباً: "لو كانت هناك تهمة أُخرى، لَسَمِعْتُكِ جيِّداً، ولكن اتِّهامكِ له بالفساد والرَّشْوَة هو أمرٌ، لا يخصُّني".

سألتْهُ: "ولمَنْ أشتكي، إذنْ؟".

أجاب: "النيابة".

هو حقَّاً لم يخدعْها، فمعروف أن دونغ شيانفا مسؤول حكومي، ولو حَكَمَ خطأً في قضيتها، فالمسؤول هو رئيس الهيئة القَضَائيَّة، ولكن اتِّهامه

بالرَّشْوَة والفساد أمر لا يخصُّ المحكمة، بل يخصُّ النيابة. ولكنْ، هذا أمر لم تستوعبه لي شيوليان، فقالت غاضبة: "كلَّما ذَهَبْتُ إلى مسؤول منكم، أخبرني أن الأمر لا يخصُّه، مَن الذي عليَّ الذهاب إليه، إذنْ؟".

ثمَّ تابعت بحَنَق: "أنتَ رئيس الهيئة القَضَائيَّة، هل يمكن أن تكون أنتَ أيضاً فاسداً ومُرتشياً مثله؟".

هذه العبارة جَعَلَتْهُ يستشيط غضباً. ربمَّا أخذ رَشْوَة من أحدهم فيما سَبَقَ، ولكنه لم يأخذ رَشْوَة منها. وربمَّا لو لم يكن ثمَلاً ما استشاط غضباً هكذا، ولكنْ، في أوج سُكْره وغضبه صاح فيها قائلاً: "لم نلتقِ قطُّ، كيف تقولين إنني فاسد ومُرتشٍ؟ يبدو أنكِ فعلاً امرأة سليطة، اغربي من هنا".

شَتَمَهَا تماماً بنفس الألفاظ التي قالها دونغ شيانفا.

8

مكتبة
t.me/soramnqraa

تقابلت لي شيوليان مع المُحافِظ شي ويمين(*) أمام بوَّابة مبنى حكومة المُحَافَظَة. كان جالساً في الكرسي الخلفي لسيَّارته، يتناول حَسَاء الأرز المخلوط بقِطَع البطاطا، حين هُرِعَتْ سيِّدة، واعترضت طريق سيَّارته. سارع السائق بالضغط على المكابح، كي يتفادى الاصطدام بها، فاصطدمت رأس المُحافِظ بالكرسي الأمامي، وتبعثر الحَسَاء فوق ملابسه. اعتدل في جلسته، ورفع رأسه، لينظر ماذا يجري، فشاهد امرأة تجثو على ركبَتَيْها أمام السَّيَّارة، وترفع بيدها لافتة ورقية، مكتوب عليها: "مظلومة".

كان اليوم يوم أحد، ومن المفترَض أنه يوم عطلة، ولكن المُحافِظ لم يكن يأخذ الأحد عطلة أبداً. هو مُحافِظ مسؤول عن راحة وسلامة وطعام أكثر من مليون شخص في المُحَافَظَة، منهم العُمَّال والطَّلَبَة والمزارعون والتُّجَّار، والحِمْل كان ثقيلاً للغاية، عليه إرسال واستقبال أكثر من مائة وثيقة بشكل يومي، بداية من الحكومة المركزية إلى المُقَاطَعَة، ثمَّ المدينة. العُمَّال يعملون عادة ثماني ساعات في اليوم، أمَّا هو، فكان يعمل من أربع عشرة إلى خمس عشرة ساعة يومياً، بل ويعقد اجتماعاً دورياً كلّ ليلة. ويرافق المسؤولين من المُقَاطَعَة أو المدينة التي تتبعها المُحَافَظَة لتفقُّد العمل، فهناك العشرات من الجهات التي عليه التعامل معها في المُقَاطَعَة والمدينة، ويأتي إلى المُحَافَظَة يومياً ما لا يقلُّ عن ثمانية أفواج من المسؤولين الكبار. وبحساب بسيط، كان عليه مُرافقة هذه الأفواج ستّ

*) معنى اسمه في الصِّينيَّة: من أجل الشعب.

عشرة مرَّة، ثماني مرَّات لتناوُل الغداء وثماني مرَّات لتناوُل العشاء، فكلُّهم مسؤولون كبار، ولا يجرؤ على التقصير في حقِّهم. كان يشرب برفقتهم يومياً حتَّى أُصيب بمرض في أمعائه، وكان عادة ما يتحسَّس بطنه بيده، ويقول: "وظيفة المُحافِظ لا يتحمَّلها بشر".

العمل كمُحافِظ ليس بالأمر السهل، وهناك أكثر من مليون شخص يرغبون في قَنْص هذا المنصب، ولكنْ، أنَّى للجميع ذلك، والأهمُّ من ذلك هو أن السياسة تشبه الإدمان، فَمَنْ يشغل منصب عُمدَة قرية يريد أن يشغل منصب المُحافِظ، ومَنْ يشغل منصب المُحافِظ يريد أن يشغل منصب حاكم المُقَاطَعَة. ليس لأحد أن يلوم الآخرين على شيء، لو كان عليكَ أن تلوم أحداً، فَلْتَلُمْ نفسكَ. وبعدما فَطِنَ إلى هذه الحقيقة، صار مُنكبّاً على عمله يومياً دون تذمُّر. ها هو أُصيب بمرض في أمعائه، وعليه أن يتكيَّف مع ذلك، فعلى الرَّغْم من أنه كان مضطرّاً لشُرب الخمر ظُهراً ومساء، فإنه لم يكن مضطرّاً لذلك صباحاً، ولذلك كان يتناول حَسَاء الأرز المخلوط بقِطَع البطاطا واليقطين، ليُخفِّف من مرض أمعائه.

تعلَّمت لي شيوليان من الدروس السابقة، فلم تذهب ظُهْراً كما حَدَثَ مع عضو الهيئة القَضَائيَّة، أو ليلاً كما حَدَثَ مع رئيس المحكمة، بل ذَهَبَتْ في الصباح، فالمسؤولون غالباً ما يكونون ثَمِلِينْ بعد الغداء أو بعد العشاء، أمَّا في الصباح، فهم مُنتبهون مُتيقِّظون. لذلك وَقَعَ اللقاء بين لي شيوليان والمُحافِظ في الصباح أمام مبنى حكومة المُحَافَظَة.

كان المُحافِظ يستعدُّ للذهاب للمشاركة في حفل افتتاح أحد الفنادق. اسم الفندق: "نبع الكرز البعيد". وعلى الرَّغْم من ذلك، فإنه لم يكن بعيداً، حيثُ لم يكن يبعد عن المُحَافَظَة سوى عشرة كيلومترات وسط غابة شَجَريَّة، في مكان جاذب للطيور، ومالك الفندق يُربِّي هناك بعض الغزلان المرقَّطة، وهناك مبنى متكامل عبارة عن حمَّام فخم ومركز للساونا

والمسَّاج خلف مبنى الفندق، والمكان مجهَّز بوسائل الراحة والترفيه كافَّة. هذا النوع من المنشآت غالباً ما يُشتبه في تورُّطه بالدعارة، ولا ينبغي أن يشارك المُحافِظ في حفل الافتتاح هذا، ولكن مالك الفندق قريب لأحد كبار المسؤولين في المُقَاطَعَة، ولذلك لم يجد المُحافِظ بُدَّاً من المشاركة. فضلاً عن أن هذا المشروع سيدفع الكثير من الضرائب للمُحَافَظَة، وهذا من ضمن واجبات المُحافِظ. اختير موعد الافتتاح يوم الأحد، لأنه يوم عطلة، وهو ما سيجذب الكثير من الحضور. عشاء اليوم السابق انتهى في وقت متأخِّر، وهو ما جَعَلَ المُحافِظ يستيقظ متأخِّراً، فاضطرَّ إلى تناوُل حَسَاء الأرز في سيَّارته. موعد الافتتاح كان مُحدَّداً في التاسعة صباحاً، وعندما غادر بيته كانت الثامنة والنصف، لذا هو في عَجَلَة من أمره، واعتراض لي شيوليان لسيَّارته جَعَلَهُ في عَجَلَة أكبر، سائقه أيضاً كان في عَجَلَة من أمره، ليس بسبب الخوف من تأخُّر المُحافِظ عن الموعد، أو لأن رأس المُحافِظ اصطدمَ بالكرسي، أو لأن الحَسَاء اندلق على ملابس المُحافِظ، بل لأن هناك امرأة اعترضت طريقه فجأة ممَّا اضطرَّه أن يضغط على المكابح بحِدَّة؛ فصار يتصبَّب عَرَقاً من شدَّة الخوف، وأطلَّ برأسه من نافذة السَّيَّارة صارخاً: "هل تبحثين عن الموت؟".

المُحافِظ كان أكثر تهذيباً من السائق، فهذه ليست المرَّة الأولى التي يواجه فيها موقفاً كهذا، كما أن هذا جزءاً من عمله، لذلك نَهَرَ سائقه، وَفَتَحَ الباب، ثمَّ نَفَضَ الحَسَاء عن ملابسه، وَذَهَبَ إلى المرأة الجاثية على ركبَتَيْها أمام سيَّارته قائلاً: "انهضي، واحكِ لي ماذا حَدَثَ".

نَهَضَتْ لي شيوليان، فسألها: "عمَّنْ تبحثين؟".

أجابت: "أريد مقابلة المُحافِظ". عرف المُحافِظ أن هذه المرأة ليس لديها تلفاز، ولا تشاهد الأخبار، فهي لم تتعرَّف عليه، فسألها: "لماذا تريدين مقابلة المُحافِظ؟".

رَفَعَتِ اللَّافتة التي تحمل كلمة "مظلومة" عالياً، وقالت: "أريد التَّقدُّم بشكوى".

سَأَلَهَا ثانية: "مَنْ تشتكين؟".

أجابت: "ليست شكوى واحدة".

ابتسمَ، وَسَأَلَهَا مرَّة أُخرى: "وكم عدد الشكاوى؟".

- "الشكوى الأولى ضدَّ رئيس الهيئة القَضَائيَّة شوين تشنغيي، والشكوى الثانية ضدَّ عضو اللجنة القَضَائيَّة دونغ شيانفا، والشكوى الثالثة ضدَّ القاضي وانغ قونغ داو، والشكوى الرابعة ضدَّ زوجي تشين يوخه، والشكوى الخامسة ضدِّي أنا نفسي".

ذُهل المُحافِظ من كلامها، ليس بسبب أنها تريد شكوى كلِّ هؤلاء، بل لأنها تريد أيضاً أن تشتكيَ نفسها! هل هناك أحد يشكو نفسه؟ فَطِنَ المُحافِظ إلى أنها مشكلة مُعقَّدة، ولن يمكنه حَلّها على الفور. نَظَرَ إلى ساعته، فَوَجَدَهَا الثامنة وأربعين دقيقة، فقال: "حسناً، ما دمتِ تريدين مقابلة المُحافِظ، فسأذهب وأخبره". ثمَّ استدار بجَسَدِهِ، وتوجَّه مُسرعاً نحو مبنى الحكومة. غادر مُسرعاً، لأنه يريد أن يتخلَّص من هذه المرأة، ولأنه يريد تبديل ملابسه الملطَّخة بالحَسَاء حتَّى يذهب للمشاركة في حفل افتتاح فندق "نبع الكرز البعيد". عندما شاهدتْهُ يهمُّ بالمغادرة، تقدَّمت وَوَقَفَتْ في طريقه، وقالت: "لا تهربْ، أعرف أنكَ المُحافِظ".

ظلَّ شي ويمين ينفضُ الحَسَاء عن ملابسه وهو يقول: "وكيف عرفتِ أنني المُحافِظ؟".

قالت: "استعلمتُ عن رَقْم سيَّارتكَ، وأنتَ مَنْ يجلس بداخلها، إذنْ، فأنتَ المُحافِظ".

قال بحَرَج: "ليس بالضرورة أن يكون مَنْ يجلس في سيَّارة المُحافِظ هو المُحافِظ، أنا فقط سكرتيره، وهذه قضية كبيرة، لا يمكنني أن أساعدكِ بشأنها، سأذهب وأُخبر المُحافِظ بذلك".

لم يكن أمامها سوى أن تفسح الطريق، فسارع نحو مكتبه في مبنى الحكومة، وبدَّل ملابسه، وَطَلَبَ من مساعده أن يهاتفَ مدير مكتب الشكاوى، كي يذهب إلى تلك السَّيِّدة، ليحلَّ لها مشكلتها. وبعدما انتهى من تبديل ملابسه، استقلَّ سيَّارته، وغادر من الباب الخلفي مُتوجِّهاً إلى الفندق.

بحلول المساء، ذَهَبَ المُحافِظ إلى فندق المُحَافَظَة لتناوُل العشاء برُفْقَة بعض الضيوف القادمين من المُقَاطَعَة والمدينة كما تجري العادة. كان رئيس مكتب الشكاوى واقفاً أمام الفندق، حيثُ توقَّفت سيَّارة المُحافِظ. رئيس مكتب الشكاوى اسمه لاولوي. نسي المُحافِظ أمر المرأة التي جاءت تتظلَّم في الصباح، وحين ترجَّل من السَّيَّارة، بادره لاولوي قائلاً: "أيُّها المُحافِظ، عليكَ أن تدعمَني في عملي".

المُحافِظ: "ماذا تعني؟".

لاولوي: "السَّيِّد تشانغ رئيس مكتب الشكاوى بالمُحَافَظَة سيأتي بعد قليل لتناوُل العشاء هنا، هَلَّا أتيتَ لتُلقيَ عليه التَّحيَّة بعد قليل؟".

دُهش المُحافِظ قائلاً: "لم يُخبرْني أحد أنه سيأتي".

لاولوي: "اتَّصل للفور يُخبرني بقدومه، عادة لا أطلب منكَ مساعدتي، ولكني في حاجة لدَعمكَ الآن، فالتقييم السَّنويُّ على الأبواب".

المُحافِظ: "هذا هو الضيف التاسع الليلة".

لاولوي: "فقط تَنَاوَلْ معه ثلاث كؤوس، ثمَّ غَادِرْ، بالتأكيد سيكون

تقييمي من الثلاثة الأوائل، هذا أمر مُهمٌّ لا يخصُّني وحدي، بل يخصُّ المُقَاطَعَة بأكملها".

المُحافِظ: "حسناً، سأذهب لأُلقيَ عليه التَّحيَّة بعد قليل، لا داع للتَّحدُّث بهذه اللهجة التَّهديديَّة".

ابتسم لاولوي مُبتهِجاً، وتذكَّر المُحافِظ فجأة أمر المرأة التي جاءت تشتكي في الصباح أمام مبنى الحكومة، فسأله قائلاً: "صحيح، ماذا جرى بشأن تلك المرأة التي جاءت تشتكي في الصباح؟".

أشاح لاولوي بيده غير مكترث وهو يقول: "امرأة سليطة، لقد طَرَدْتُها".

قال المُحافِظ بدهشة: "لقد كانت تنوي الانتحار أمام سيَّارتي، وكانت ترفع لافتة كبيرة، مكتوب عليها "مظلومة"، كيف تنعتُها بأنها امرأة سليطة؟".

لاولوي: "نعم، كانت تحمل لافتة كبيرة، مكتوب عليها "مظلومة"، ولكن الأمر كان تافهاً، لا يستدعي التهويل".

المُحافِظ: "وما هو هذا الأمر؟".

لاولوي: "تطلَّقت العام الماضي، وندمتْ على طلاقها الآن، وتُصرُّ على أن طلاقها كان زائفاً".

المُحافِظ: "هذا فقط؟ ولماذا تريد شكوى كلِّ هؤلاء؟ من بينهم رئيس الهيئة القَضَائيَّة نفسه، هل ذَهَبَتْ إلى المحكمة، ولم يهتمّ أحد لأمرها؟".

لاولوي: "استعلمتُ عنها في المحكمة، لقد اهتمُّوا بأمرها فعلاً، ولكنْ، لأن المحكمة اهتمَّت، فهي تريد شكوى المحكمة، تقول إن طلاقها كان زائفاً، والمحكمة نَظَرَتْ في أدلَّتها، فَحَكَمَتْ بأن الطلاق كان صحيحاً،

هل على المحكمة أن تُخالف قرارها وتحكم بزَيْف طلاقها، لأنها تريد أن تشتكيَ المحكمة؟".

شَعَرَ المُحافِظ شي ويمين بالإشفاق على المرأة، فتنهَّد قائلاً: "ولماذا ندمتْ بعد الطلاق؟".

لاولوي: "وحتَّى لو كانت نادمة، عليها أن تذهب وتحلَّ مشكلتها مع زوجها، ما دَخْل الحكومة في هذا؟ ليست الحكومة هي مَنْ طلَّقتْها".

ابتسم المُحافِظ قائلاً: "لا بدَّ أنها غاضبة، وتريد التنفيس عن غضبها، لا داعي للتَّهكُّم عليها هكذا".

وَصَلَ بعض المسؤولين الذين جاؤوا لتناوُل العشاء برُفْقَة المُحافِظ، فاستأذن المُحافِظ في الانصراف، وَذَهَبَ، ليستقبل ضيوفه، وصافحهم، ودَلَفَ معهم إلى الفندق.

9

لثلاثة أيَّام حَمَلَتْ لي شيوليان لافتتها المكتوب عليها "مظلومة"، وَجَلَسَتْ صامتة أمام مبنى حكومة المدينة. لكن عُمدَة المدينة تساي فوبانغ(*) لم يعلم بأمرها إلاَّ بعد ثلاثة أيَّام، ليس لأنه لا يهتمُّ، بل لأنه كان في مهمَّة عمل في بكين. وبعد عودته من بكين، اكتشف وجود امرأة تجلس في صمت أمام مبنى حكومة المدينة، وقد التفَّ حولها الكثير من المارَّة. حتَّى العاملون في مبنى الحكومة كانوا يسلكون مساراً مُختلفاً لتجنُّب المارَّة المتجمِّعين حولها. ما إن شاهد العُمدَة هذا المشهد حتَّى استشاط غضباً، ليس لجلوسها هكذا، بل لأن نائبه دياو تشنغشين(**) لم يقم بحَلِّ هذه المشكلة في غيابه. سافر العُمدَة إلى بكين في مهمَّة عمل، ولكن النائب لم يسافر، وها هو يترك هذه المشكلة دون حَلٍّ لثلاثة أيَّام كاملة، مُنتظراً عودة العُمدَة لحَلِّ المشكلة بنفسه. يعرف العاملون في حكومة المدينة أن ثمَّةَ خلافاً ما بين العُمدَة ونائبه، وبالحديث عن هذا الخلاف، دائماً ما كان العُمدَة يشعر بمرارة في قلبه، لأنه لم يكن المتسبِّب فيه، بل التاريخ هو السبب. فقبل عشر سنوات كان هو والنائب يشغلان منصب سكرتيرَي الحزب في إحدى المحافظات، وكانت علاقتهما على أفضل ما يكون، بعدها رُشِّحا معاً لمنصب نائب العُمدَة، ومن حيثُ الترتيب الأبجدي للكتابة الصِّينيَّة يكون ترتيب اسم دياو قبل اسم تساي. بعد ذلك تولَّى أحدهما منصب رئيس اللجنة الإعلامية للمدينة، والآخر رئيس اللجنة

*) معنى اسمه في اللغة الصِّينيَّة: الحليف الثَّريّ.

**) معنى اسمه في اللغة الصِّينيَّة: فاقد الإخلاص أو غير المُؤتمَن.

التَّنظيميَّة، وكلاهما يعادل منصب نائب العُمدَة، لكنْ، بعدها تولَّى تساي منصب نائب سكرتير اللجنة الحزبية للمدينة، وشغل دياو منصب النائب الأوَّل للعُمدَة. وبعد ذلك تولَّى تساي منصب العُمدَة رَسْمِيَّاً، وظلَّ دياو في منصبة دون حَرَاك، وبالتالي وَجَدَ نفسه نائباً لزميله. لقد بدءا كزميلَيْن سويَّاً، ولكنَّ تفوُّق أحدهما أمر يُورِث الضغينة والتناحر، وبالطبع لم يكن هذا التناحر عَلَنِيَّاً، فعندما يتقابلان كان كلٌّ منهما يعامل الآخر بطريقة مهذَّبة، ولكنْ، خلف الكواليس كان النائب دائماً ما يضع العقبات في وجه رئيسه. وعدم قيامه بحَلِّ مشكلة تلك السَّيِّدة التي جَلَسَتْ صامتة أمام مبنى الحكومة لثلاثة أيَّام ليست سوى إحدى تلك العقبات. كان العُمدَة غاضباً بشدَّة، ليس لأنه يضع العقبات أمامه، بل لأن تصرُّفه هذا تصرُّف أخرق. فَتَوَلِّيه منصب العُمدَة كان قراراً من حكومة المُقَاطَعَة، ولا دَخْل له فيه، ولو كان دياو يرغب في تولِّي منصب العُمدَة، فعليه أن يساند العُمدَة الحالي في عمله، فلو نَجَحَ العُمدَة الحالي في عمله، سيترقَّى لمنصب آخر، ويخلو له منصب العُمدَة، ولكنْ، ما دام يحوك المؤامرات، ويعرقل نجاح العُمدَة الحالي، فسيظلُّ العُمدَة في موقعه كما هو، ويظلُّ هو في موقعه أيضاً.

ما هو الفساد؟ الفساد ليس مُتعلِّقاً فقط بالرَّشْوَة والجنس، بل الفساد الأكبر هو ألَّا تؤدِّي عملكَ المُوكَل إليكَ. والأكثر فساداً هو وجود أشخاص مثل دياو، يتولَّى منصباً، ويحوك المؤامرات ضدَّ مَنْ هم أعلى منه. إنه يتمرَّد، ويحوك المؤامرات، ولا أحد يستطيع التَّصدِّي له، والسبب هو أنه لم يتولَّ منصبه بقرار من العُمدَة، بل لأنه تولَّى هذا المنصب بقرار من حكومة المُقَاطَعَة. أكثر ما كان يثير حَنَقَ العُمدَة، هو أن النائب اختار الوقت الخطأ لإثارة المتاعب في وجهه، فالمدينة الآن بصدد بناء ما يُعرَف بمشروع "المدينة الحضارية"، ولا يوجد سوى العشرات من المُدُن في الدولة بأكملها تقوم ببناء هذا المشروع، ولو حَدَثَ أن نَجَحَتِ المدينة

في هذا المشروع، فسيتغيَّر وجهها بشكل هائل، وبالتالي ستكون هناك سياسة أكثر وضوحاً لها فيما يخصُّ البيئة الاستثمارية بها، وستكون لديها ميزة تنافُسية في التفاوض مع المستثمرين القادمين من خارج المدينة. ومن أجل هذا المشروع، بَذَلَ العُمدَة جهوداً كبيرة على مدار عام كامل، حيثُ دشَّن العديد من الحدائق والشوارع والمدارس والأسواق وغيرها من مشاريع البنية التَّحتيَّة، بل حتَّى إنه أمر بطلاء جميع المباني السَّكَنيَّة في المدينة من جديد. عمل لعام كامل من أجل اليوم الذي سيتمُّ فيه تقييم المدينة كمدينة حضارية، وقبل شهر طَلَبَ من جميع الموظَّفين العموميِّيْن القضاء على الذباب، حيثُ فَرَضَ عليهم قَتْل عشر ذبابات يومياً على الأقلِّ، وهذا أمر مرتبط بالتقييم السَّنويِّ لهم. انصاع الموظَّفون لأوامره، وظلُّوا يقتلون الذباب يومياً، حتَّى إنهم قضوا عليه تماماً في غضون أسبوعَيْن، ولم يعد لديهم ما يقتلونه. في النهاية، لم يعد هناك ذباب في المدينة، فأصدر العُمدَة تعليمات جديدة، تقضي بتعليم الطُّلَّاب الغناء، وتعليم كبار السِّنِّ الرَّقْص! وها هو قد ذَهَبَ إلى بكين لتقديم تقرير عن إنجازاته في بناء المدينة الحضارية لِلَّجنة المسؤولة هناك، ولكنْ، بعد عودته كي يستعدَّ لاستقبال أعضاء اللجنة لتقييم إنجازاته، لم يكن يتخيَّل أن يجد امرأة تجلس بهذه الهيئة أمام مبنى حكومة المدينة، بل وتجلس هكذا منذُ ثلاثة أيَّام، دون أن يحلَّ لها أحد مشكلتها. يا له من أمر مؤسِف أن يتمَّ القضاء على جميع الذباب في المدينة، ولكنْ، تظهر ذبابة كبيرة كهذه أمام مبنى الحكومة. أليس هذا تعمُّداً بأن يُضيِّع نائبه كلَّ جهوده السابقة سدى؟ ولذلك ما إن دَلَفَ العُمدَة إلى مكتبه حتَّى استدعى سكرتيره على الفور، ثمَّ أشار بيده إلى النافذة، حيثُ تجلس لي شيوليان في الخارج، وقال بغضب: "ما الذي يجري؟".

كان سكرتيره نحيلاً كعود البامبو، له وجه أصفر شاحب، وَقَفَ أمامه، وأجابه مُتلعثماً: "امرأة لديها شكوى".

العُمدَة: "أعرف أن لديها شكوى، سمعتُ أنها تجلس هكذا منذُ ثلاثة أيَّام، لماذا لم يحلّ لها أحد مشكلتها؟"

السكرتير: "تحدَّثْنا معها، ولكنها لم تستمع لنا".

العُمدَة: "ألم يأتِ النائب للعمل طيلة هذه الأيَّام الثلاثة؟ لماذا لم يتصرَّف؟".

لم يجرؤ السكرتير على الحديث بكلام قد يزيد من حِدَّة الخلاف بين العُمدَة ونائبه، فقال متردِّداً: "تحدَّثَ النائب معها بنفسه، ولكنها لم تُنصِتْ إليه، ولم نجرؤ على استدعاء الشرطة للتعامل مع امرأة تجلس هكذا أمام مبنى الحكومة، ويلتفُّ المارَّة حولها خوفاً من أن تسوء الأمور".

بَدَا العُمدَة هادئاً بعض الشيء، ولكنه تصنَّع الغضب قائلاً: "ما هي مشكلتها التي لا تستطيعون حَلَّها؟ هل قَتَلَتْ أحداً أم أضرمتْ حريقاً؟".

السكرتير: "ليس قَتْلاً ولا حريقاً، بل أمر تافه للغاية، هذه المرأة تطلَّقت من زوجها، ولكنها ندمت بعدها، أعتقد أنها تريد معونة مالية، هذه الأمور التافهة صعبة الحَلِّ، لو كان الأمر قَتْلاً أو حريقاً، لكان من السهل التعامل معه".

العُمدَة: "من أيِّ قرية هي؟ لماذا لم يهتمّ قادة المُحَافَظَة هناك لأمرها؟".

السكرتير: "اهتمُّوا لأمرها، ولكنها مُصرَّة على التصعيد، هي لا تريد أن تشتكيَ شخصاً واحداً، بل العديد من الأشخاص".

العُمدَة: "ومَنْ هؤلاء الأشخاص؟"

السكرتير: "هي تظنُّ أن الجميع لم يهتمُّوا لأمرها، وتريد شكوى

المُحافِظ، ورئيس الهيئة القَضَائيَّة، وعضو اللجنة القَضَائيَّة، والقاضي، وزوجها، وأشخاص آخرين، لا أتذكَّرهم".

ابتسم العُمدَة قائلاً: "يا لها من امرأة جريئة! أمر تافه كهذا، وتريد تصعيده إلى هذا الحَدِّ".

هزَّ السكرتير رأسه مُصدِّقاً على كلامه، وقال: "هي بالفعل امرأة عنيدة". ثمَّ تابع يسأل العُمدَة: "وكيف برأيكَ نتعامل معها؟".

غَضِبَ العُمدَة ثانية قائلاً: "جميعكم لم تتمكَّنوا من حَلِّ مشكلتها، وتنتظرون منِّي أن أحلَّ مشكلة تافهة كهذه بنفسي، بعد ثلاثة أيَّام سيأتي وفد لجنة تقييم "المدينة الحضارية"، وتسألني كيف نتعامل مع هذا المرأة؟ أبعدوها من هنا على الفور، وسننظر في أمرها بعد أسبوع".

تحدَّث العُمدَة مع السكرتير صباحاً، حيثُ كانت لي شيوليان جالسة أمام مبنى الحكومة، وترفع لافتة عليها كلمة "مظلومة"، وبعد الظَّهيرة، ظلَّت في مكانها، دون أن يتعرَّض لها أحد. ولكنْ، مع حلول المساء وانفضاض المارَّة من حولها، جَلَسَتْ وحدها، وأخرجت من جَعْبَتِهَا قطعة خبز جافَّة، وَشَرَعَتْ في تناوُلها، وبينما تتناولها حَضَرَ بعض أفراد الشرطة السِّرِّيَّة، واقتادوها معهم دون أن يتحدَّثوا معها. قال العُمدَة لسكرتيره: "أبْعِدُوها من هنا فقط"، ولم يقل أبْعِدُوها إلى أين، قال ذلك، وانشغل في أمر آخر. ولكن تعليماته انتشرت من مسؤول إلى آخر، من حكومة المدينة إلى مكتب الأمن، ومن مكتب الأمن إلى قسم الشرطة، ومن قسم الشرطة إلى الشرطة السِّرِّيَّة، فتبدَّلت صيغة تعليمات المُحافِظ، فتحوَّلت في النهاية إلى أن الحاكم قال: "احبسوها". وفي الأخير جاء أفراد الشرطة السِّرِّيَّة، واقتادوها إلى الحبس بتهمة "زعزعة استقرار المجتمع".

10

بعدها بثلاثة أيَّام، نَجَحَتِ المدينة في اجتياز تقييم "المدينة الحضارية"، وأصبحت المدينة رَسْمِيًّاً من ضمن "المُدُن الحضارية" على مستوى الدولة. وبعدها بسبعة أيَّام، أُطلِق سراح لي شيوليان. في الأصل لم تكن هناك أيُّ علاقة بين شكواها وبين مشروع بناء "المدينة الحضارية"، لكنها أُلقِيَت في السجن، بسبب ذلك المشروع، لذلك صارت هناك علاقة بين شكواها وبين المشروع. ولكنْ، بعد خروجها من السجن، لم تُلقِ باللَّائمة على هذا المشروع. جميع مَنْ في المدينة يعرفون أن العُمدَة هو مَنْ أصدر أوامره بإلقائها في السجن، ولأن الجميع يعرفون، فقد عَرَفَتْ هي الأُخرى. بعد خروجها من السجن، لم تذهب إلى العُمدَة، ولم تذهب للاحتجاج أمام مبنى حكومة المدينة، بل عادت إلى بلدتها، وَذَهَبَتْ لمقابلة جزَّار البلدة لاوخو في محلِّ جِزَارته. كان واقفاً أمام الطاولة، يقطع اللَّحْم، كلُّ شيء كما هو دون أن يطرأ عليه أيُّ تغيير، نادت عليه من بعيد قائلة: "لاوخو، تعال، لديَّ ما أقوله لكَ".

حين رَفَعَ لاوخو - الذي كان مُنهمِكاً في تقطيع اللَّحْم - رأسه، ورآها، أُصيب بالدهشة، فَتَرَكَ السِّكِّين من يده، وهُرع نحوها، فَسَحَبَتْهُ نحو مبنى الطاحونة المهجورة، حيثُ تحدَّث الجزَّار أوَّلاً قائلاً: "عزيزتي، سمعتُ أنكِ كنتِ في السجن".

ضحكت قائلة: "وها أنا خَرَجْتُ".

نَظَرَ إليها وقال مُتعجِّباً: "مظهركِ لا يبدو عليه ذلك، فوجهُكِ مُتورِّد كما هو".

ثمَّ تقدَّم نحوها، وشمَّ رائحتها قائلاً: "ورائحتكِ لا تزال عطرة كالسابق".

أجابتْهُ: "لقد أحببتُ الإقامة في السجن، فهناك ليس عليَّ أن أقلقَ بشأن أيِّ شيء، وأتناول ثلاث وجبات من الطعام، بل ويقدِّمون الطعام بأنفسهم أيضاً".

كانت تخدعه، فقد عانت الكثير والكثير داخل سجنها. حيثُ حُبست داخل غرفة صغيرة مظلمة لأكثر من عشرة أيَّام، الغرفة ضيِّقة، بحيثُ بالكاد تتَّسع لحركتها، كانت تأكل ثلاث وجبات يومياً، ولكن كلَّ وجبة كانت قطعة من الخبز الجافّ وقطعة من الخضروات المخلَّلة، لا تكفي لسَدِّ رمقها، أضف إلى ذلك مشكلة قضاء الحاجة، فلم يكن بوسعها فعل ذلك متى أرادت، كان عليها مع غيرها من السجينات الانتظار لوقت الفسحة، وعندما لم يكنَّ يتحمَّلنَ الانتظار، كن يتبوَّلنَ في غرفهنَّ، وكذلك كانت تفعل هي، حيثُ كانت رائحة الغرفة كريهة للغاية. الأكثر ألماً من ذلك هو أنه لم يكن هناك أحد تتحدَّث إليه، يمكنها تحمُّل الجوع ورائحة البول الكريهة، ولكنها لم تكن قادرة على تحمُّل الصمت دون أن تجد مَنْ تتحدَّث إليه. بعدما أُطلق سراحها، ذَهَبَتْ إلى حقول القمح، وظلَّتْ تتنفَّس الهواء النَّقيَّ طيلة اليوم، وَظَلَّتْ تصرخ بأعلى صوتها تجاه الجبال البعيدة، لتُنفِّس عن غضبها، وتقول: "اللعنة على أُمَّهاتكم جميعاً".

عادت بعدها إلى قريتها، وَذَهَبَتْ إلى الحمَّام، واغتسلت، ثمَّ ذَهَبَتْ لبيتها، واستبدلت بملابسها ملابس جديدة، وتعطَّرت، وتزيَّنت ببودرة الخدود الحمراء، ثمَّ ذَهَبَتْ لمقابلة الجزَّار، هو شخص صَلِفٌ للغاية، ولم يلاحظ ما طَرَأَ عليها.

حَدَّثَتْهُ قائلة: "هل ما زلتَ تتذكَّر كلامكَ لي الشهر الماضي؟".

قال متحيِّراً: "أيّ كلام؟".

قالت معاتبة: "أنكَ ستساعدني في القَتْل".

تعجَّب قائلاً: "نعم، قلتُ ذلك، ولكنكِ لم توافقي، فقط أردتِ منِّي المساعدة في الضَّرْب".

قالت: "وقتها لم أكن أريد منكَ أن تقتلَ، ولكني غيَّرتُ رأيي الآن".

حرَّكَ حَدَقَتَي عَيْنَيْه، وقال: "لو أردتِ منِّي قَتْل أحدهم، فلنفعل ذلك الأمر أوَّلاً، ثمَّ أقتل بعدها".

قالت: "موافقة".

كاد لاوخو أن يرقص فرحاً، ثمَّ تحرَّك نحوها، ومدَّ يده نحو صدرها وقال: "متى إذنْ؟ فلنفعلْها اليوم".

صدَّتْ يده قائلة: "هل تعرف مَن الذي ستقتله؟".

قال بتردُّد: "أليس هو تشين يوخه زوجك السابق؟".

قالت: "بخلاف تشين يوخه، فَمَنْ أيضاً؟".

دُهش قائلاً: "مَنْ؟".

أخرجت من جيبها ورقة، بها قائمة أسماء، وقالت: "العُمدَة تساي فوبانغ، المُحافِظ شي ويمين، رئيس الهيئة القَضَائيَّة شوين تشنغيي، عضو اللجنة القَضَائيَّة دونغ شيانفا، القاضي وانغ قونغ داو، ابن العاهرة تشين يوخه".

ذُهل لاوخو بعدما سمع هذه القائمة الطويلة، وقال: "يا عزيزتي، هل أصابكِ الجنون وأنتِ داخل السجن؟".

قالت: "هؤلاء جميعاً أشرار مثيرون للاشمئزاز".

بَدَا مُتلعثماً، وقال: "هل يمكنني قَتْل كلِّ هؤلاء وحدي؟".

ثمَّ استطرد: "بالإضافة إلى ذلك، فبخلاف تشين يوخه، كلُّهم مسؤولون كبار، ويحيط بهم الحَرَس ليل نهار، كيف لي أن أقتلَهم".

قالت: "اقتلْ منهم أيَّ عدد ممكن، فأنا لم أعد أتحمَّل الانتظار".

جَثَا على ركبَتَيْه فجأة، ثمَّ وَضَعَ يَدَيْه فوق رأسه، ونَظَرَ إليها قائلاً: "هل تعتقدين أن هذه صفقة متكافئة؟ أقتل كلَّ هؤلاء من أجل أن أضاجعَكِ مرَّة، أتظنِّين أني رئيس مافيا؟".

بَصَقَتْ لي شيوليان على الأرض مغتاظة، وقالت: "كنتُ أعرف أنكَ تخدعني".

انهمرت الدموع من عَيْنَيْها، وَرَكَلَتْهُ بقَدَمِها، واستدارت مُغادِرَة.

11

بعدما غادرت لاوخو، قرَّرت لي شيوليان ألَّا تقتل أحداً، ليس هذا فقط، بل قرَّرت ألَّا تضربَ أحداً، ليس هذا فقط، بل وقرَّرت ألَّا تشتكيَ أحداً. أيقنت فجأة أن كلَّ هذا لا طائل منه. في البداية كانت تريد أن تنغِّص على زوجها حياته، ولكنَّ ما حَدَثَ في النهاية هو أنها نغَّصَت على نفسها حياتَها. ولكنها في داخلها لم تستسلم، أرادت أن يعرف الناس الحقيقة. أن تتحدَّث بالحقيقة إلى كلِّ مَنْ يقابلها أمر لن يفيد، ولكن الحديث إلى شخص واحد فقط قد يفيد. فالكل يقول إنها هي المخطئة، فقط شخص واحد يعرف أنها على صواب، الكلُّ يقول إن طلاقها كان حقيقياً، واحد فقط يعرف أنه كان زائفاً، ويعرف تفاصيل هذا الطلاق، وهذا الشخص وحده هو مَنْ دَفَعَهَا لفعل كلِّ هذا، ممَّا أدَّى إلى حَبْسها، هذا الشخص ليس غريباً عنها، بل هو زوجها السابق تشين يوخه. كانت ترغب في أن تسأله وجهاً لوجه هل كان طلاقهما العام الماضي حقيقياً أم زائفاً. الغرض من هذا السؤال مُختلف الآن عن غرضه في الأيَّام السابقة، من قبل ذَهَبَتْ وَرَفَعَتْ قضية بسبب هذه الجملة، وقد تخلَّت الآن عن فكرة رَفْع القضية، لم تعد تريد إثبات أن الطلاق كان زائفاً، كي تتزوَّج من تشين يوخه مرَّة أُخرى، ثمَّ تتطلَّق منه طلاقاً حقيقياً، فقد تعبت وأُرهِقَت بما فيه الكفاية. هناك شخص واحد في هذا العالم لو أقرَّ بأنها على صواب، فسوف ترفع الراية البيضاء، ولن تتحدَّث ثانية عمَّا عانتْهُ في الأيَّام السابقة. لم يعد بوسعها الآن إثبات الحقيقة أمام الناس، وتريد فقط أن تُثبتَها أمام نفسها. تريد بهذا أن تُنهيَ هذا الأمر تماماً حتَّى تبدأ حياتها من جديد. هي الآن في

التاسعة والعشرين، ليست صغيرة، وليست كبيرة أيضاً، كما أنها جميلة، عيناها واسعتان، وجهها بيضاوي، لها صدر كبير، وخصر نحيل، لو لم تكن هكذا، لَمَا كان لُعاب الجزَّار يسيل في كلِّ مرَّة يراها فيها، هي لا تريد أن يذهب شبابها هَبَاء خلال سعيها خلف هذا الأمر غير المجدي، تنوي الآن أن تتخلَّى عن كُرهها وبُغضها، وأن تذهب لتجدَ لنفسها زوجاً آخر، ثمَّ تستعيدَ ابنتها من عند صديقتها، وتبدأ حياتها من جديد.

ومن أجل طَيِّ صفحة الماضي، وفَتْح صفحة جديدة للمستقبل، ذَهَبَتْ مرَّة أُخرى إلى مصنع السماد في البلدة، لكي تقابل تشين يوخه. قبل شهر حين ذَهَبَتْ لتقابله، كانت تنوي استدراجه لتقتلَهُ، ولكي تستدرجَهُ، حَمَلَتْ معها ابنتها الرضيعة. لكنها بَحَثَتْ عنه في أنحاء المصنع دون أن تجدَهُ، فقد قاد الشاحنة لتوصيل السماد إلى مُقَاطَعَة هيلونغجيانغ، وَهَرَبَ مثل أخيها الذي ذَهَبَ إلى مُقَاطَعَة شاندونغ حتَّى لا يساعدَها في قَتْله. ولحسن الحظِّ أن تشين يوخه هَرَبَ، وأن أخاها أيضاً هَرَبَ، وإلَّا فلربمَّا كانت قَتَلَتْهُ بالفعل. لو قَتَلَتْهُ ماذا سيكون مصيرها الآن؟ ربمَّا كانت قابعة في السجن تنتظر حبل الإعدام، ولم تكن لتذهب اليوم لتقابله. في المرَّة السابقة بَحَثَتْ عنه في جميع أنحاء مصنع السماد دون جدوى، ولكنْ، هذه المرَّة وَجَدَتْهُ حتَّى قبل أن تدخل المصنع. كان جالساً أمام مطعم بالقرب من بوَّابة المصنع، يحتسي بعض البيرة. لم يكن وحده، بل يجلس برفقته خمسة أو ستَّة رجال، من ضمنهم شخص تعرفه، اسمه لاوتشانغ، هو، أيضاً، سائق شاحنة في المصنع. كانوا يحتسون البيرة، ويتبادلون النُّكات والضحكات. على يسار بوَّابة المصنع يوجد مرحاض عمومي غير مجَّانيّ، وعلى يمين البوَّابة يوجد ذلك المطعم. المسافة بين المطعم والمرحاض عدَّة أمتار فقط، لكنَّ بابيَ المطعم والمرحاض كانا في اتِّجاهَيْن مُختلفَيْن، ولا تَعَارُضَ بين الأكل والذهاب للمرحاض. في السابق كان تشين يوخه يتهرَّب منها، وبعدما حَكَمَ القاضي لصالحه، لم يعد يتهرَّب منها، صار

يظهر علانية في أيِّ مكان، ولم يعد يذهب إلى مُقَاطَعَة هيلونغجيانغ لتوصيل السماد، وبات يجلس أمام بوَّابة المصنع يحتسي البيرة برُفْقَة زملائه، فقد كان يعتقد أن هذا الأمر انقضى وانتهى. شاهدتْهُ لي شيوليان يجلس برُفْقَة زملائه هناك، لكن أحداً منهم لم يرها، حيثُ تقدَّمتْ نحوه، ونادتْهُ؛ فالتفتَ برأسه، وأُصيب بالذهول حين وَجَدَهَا واقفة خلفه. رفاقه، أيضاً، أُصيبوا بالذهول. أجاب نداءها بنبرة هادئة قائلاً: "ماذا؟"

قالت بحزم: "تعالَ هنا، أريد أن أتحدَّث إليكَ".

تلفَّتَ نحو زملائه، وَصَمَتَ قليلاً، ثمَّ قال: "لو كان لديكِ ما تقولينه، فلتقوليه هنا".

قالت بنفاد صبر: "هذا حديث خاصٌّ بنا".

ظلَّ جالساً دون حَرَاك وهو يقول: "لو كان لديكِ ما تقولينه، فلتقوليه هنا، البلدة بأكملها تعرف بأمرنا، لا يوجد ما نخفيه عن الآخرين".

فكَّرَتْ قليلاً، ثمَّ قالت: "حسناً، سأتحدَّث هنا".

قال باستهزاء: "تحدَّثي، إذنْ".

قالت: "ما دُمنا سنتحدَّث على الملأ، إذنْ، أخبرني بالحقيقة، هل كان طلاقنا العام الماضي حقيقياً أم زائفاً؟".

شَعَرَ تشين يوخه بالضَّجَر الشديد عندما سَمِعَهَا تتحدَّث عن هذا الأمر ثانية. لم يكن يتوقَّع أن تسأل هذا السؤال. كانت تريد منه إجابة من أجل تسوية الأمر تماماً، أمَّا هو، فظنَّ أنها لا تزال مُصرَّة على إثارة المشاكل، فأجابها غاضباً: "سواء أكان حقيقياً أم زائفاً، ألم تذهبي إلى المحكمة؟ بماذا حَكَمَ القاضي؟".

أجابت: "المحكمة حَكَمَتْ بخسارتي، وأنا لم أعد أهتمّ لحُكْم المحكمة، ولا لكلام الآخرين، فقط أريد أن أسألكَ، هل كان حُكْم المحكمة صائباً؟ هل كان طلاقنا العام الماضي حقيقياً أم زائفاً؟".

حين سمعها تتحدَّث بتلك الطريقة أيقن بشكل أكبر أنها تريد بالفعل إثارة المشاكل من جديد، هي تريد أن تسأله هذا السؤال، لكي تستخدم إجابته كدليل ضدَّه، فَمَنْ يدري ربَّما كانت تُخبِّئ جهاز تسجيل في ملابسها، لذا تجهَّم في وجهها قائلاً: "لن أجادلكِ في هذا الشأن، المحكمة حَكَمَتْ، وانتهى الأمر، لو كان لديكِ ما تقولينه، فلتقوليه في المحكمة".

لم تتمالك نفسها، وانخرطت في البكاء وهي تقول: "يا لكَ من شخص معدوم الضمير، كيف لكَ أن تكون كاذباً هكذا؟ كيف لكَ ألَّا تفيَ بوعدكَ لي؟ اتَّفقْنا على أن يكون طلاقنا زائفاً، كيف لكَ أن تُغيِّر من رأيكَ بهذه الطريقة دون أن تأخذ رأيي؟ ليس هذا فقط، بل إنكَ تتعمَّد الإضرار بي، أنتَ تعلم أن الطلاق كان زائفاً، لمَ تقول عكس ذلك؟".

حين شاهدها تبكي، ثارت ثائرته وقال: "مَنْ هذا الذي تعمَّد الإضرار بكِ؟ أنا؟ هل أنا مَنْ شكوتُكِ في المحاكم وعند المسؤولين؟ سأنصحكِ نصيحة، الحال قد وَصَلَتْ إلى ما هي عليه اليوم، توقَّفي عن إثارة المتاعب، فلو استمرَّيتِ على هذا الحال، لن تنتهيَ مشكلاتكِ، كلُّ مشكلة ستجلب وراءها واحدة جديدة، فلنفترضْ أنني ظلمتُكِ، هل ظَلَمَكِ القاضي وعضو اللجنة القَضَائيَّة ورئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة؟ لو توقَّفتِ عن إثارة المشكلات الآن لربمَّا ينتهي الأمر عند حَبْسكِ لعدَّة أيَّام، ولكنْ، لو استمرَّيتِ على هذه الحال، فستدخلين السجن، ولن تخرجي منه. هل تعتقدين أنكِ تعانديني بأفعالكِ هذه؟ أنتِ تعاندين القاضي وعضو اللجنة القَضَائيَّة ورئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة، هَلَّا فكَّرتِ قليلاً؟ هذا أمر لن يجدي نَفْعاً".

لقد ذَهَبَتْ لتُسوِّي معه هذا الأمر، كي تأخذ منه جواباً، وينتهي الأمر، ولكنْ، بسبب ما قاله، اشتعلت نيران الغضب داخلها من جديد. لم يعد هو ذلك الشخص الذي كانت تعرفه في السابق، تغيَّر تماماً. في الماضي عندما كان برفقتها، كان أحياناً ما يرتكب بعض الحماقات، ولكنه كان مُتعقِّلاً، ولو حَدَثَت بينهما مشكلة، كان غالباً ما يرضخ لها، ولكنْ بعد عام من طلاقهما، صارا مثل الأعداء، لم يعد على وفاق معها، ولهذا السبب ذَهَبَ وتزوَّج امرأة أُخرى. لو كانا على وفاق الآن، لَمَا أصرَّ على أن تتحدَّث فيما يخصُّهما أمام الناس، وأكثر ما أغضبها هو أنه يظنُّ أن القاضي وعضو اللجنة القَضَائيَّة ورئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة كلّهم في جانبه، وكأنهم من أقاربه، أمَّا هي، فليست سوى امرأة وحيدة عاجزة. ولكنْ، أليست الحقيقة كذلك؟ ألم يقف القاضي وعضو اللجنة القَضَائيَّة ورئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة بجانبه خلال الشهر الماضي؟ وأكثر ما أغضبها أيضاً هو أنه بعدما انتهى من كلامه بَصَقَ على الأرض، ثمَّ أمسك بزجاجة البيرة، وأخذ يتجرَّع منها. لم تكن تحمل سِكِّيناً أو آلة حادَّة، وإلَّا لانقضَّت عليه، وَطَعَنَتْهُ بها.

في تلك الأثناء، نَهَضَ زميله لاوتشانغ، وأخذ ينصحها قائلاً: "يصعب الحديث في أمر كهذا، من الأفضل أن تعودي إلى بيتكِ".

لم تغادر، بل تسمَّرت مكانها تبكي وتقول بحُرْقَة: "تشين يوخه، كنَّا زوجَيْن، كيف لكَ أن تكون بغيضاً إلى هذا الحَدِّ؟ أنا لم أتحدَّث عن أمر القضية، ولا عن أمر المُحافِظ، ولا حتَّى العُمدَة، فقط أريد أن أسألكَ، هل ما زال لديكَ ضمير؟ تتركُني وأنا حامل، وتقيم علاقة مع أُخرى؟".

حين سمعها تشين يوخه تتحدَّث عن أمر علاقته بامرأة أُخرى، زادت وتيرة غضبه، فَرَفَعَ زجاجة البيرة، وَشَرَعَ يحتسي منها ثانية، ثمَّ بَصَقَ على الأرض، وقال: "هذا أمر ليس لكِ أن تسأليني عنه، عليكِ أن تسألي نفسكِ". ذُهِلَتْ من كلامه قائلة: "ماذا تقصد؟".

ردَّ بتحدٍّ: "لو أردتِ الحديث عن أمر علاقتي بامرأة أُخرى، فأنا كنتُ الخاسر في علاقتي بكِ".

سألتُهُ: "ماذا تقصد؟".

تشين يوخه: "هل كنتِ بكْراً عندما تزوَّجتُكِ؟ ليلة زواجنا اعترفتِ لي بنفسكِ أنكِ كنتِ على علاقة بشخص آخر قبل زواجنا، أنتِ لست لي شيوليان، أنتِ بان جين ليان"(*).

بَدَتْ لي شيوليان كَمَنْ أصابتْها صاعقة، لو لم تستند بيدها على الحائط، لَسَقَطَتْ على الأرض. لم تتخيَّل قطُّ أن يتفوَّه تشين يوخه بكلام كهذا. قبل اليوم، كانت تعاني من أجل قضية حقيقة أو زَيْف طلاقها، ولم تكن تتخيَّل أن تكون النتيجة بعد كلِّ هذا أنها ستعاني بسبب أن اسمها صار "بان جين ليان". في الأصل كانت تنوي أن تُنغِّص عليه حياته، ولكنها الآن تُنغِّص على نفسها حياتَها. كانت جميلة وهي فتاة يافعة، والكثير من الشُّبَّان يخطبون ودَّها، ومرَّت ببعض علاقات الحُبِّ قبل زواجها منه، من بينها علاقتان، تطوَّرت الأمور فيهما إلى حَدٍّ كبير، وَصَلَ إلى حدوث علاقة جنسية. ولأسباب متعدِّدة، لم تكتمل هاتان العلاقتان، وتزوَّجتْهُ في النهاية. في ليلة زواجهما، اكتشف أنها ليست بِكْراً، وعندما سألها عن الأمر، أجابتْهُ بكلِّ صراحة. فكم عدد الفتيات اللواتي تجاوزن الثامنة عشر وما زلنَ عذارى في الصِّينْ؟ كان غاضباً، واستمرَّ غضبه لفترة من الوقت، ولكنه لم يتحدَّث عن الأمر بعدها. لم تكن لي شيوليان تتخيَّل أن يتحدَّث عن هذا الأمر بعد مرور أكثر من ثماني سنوات على زواجهما، هو لم يتحدَّث عن هذا الأمر فقط، بل يتَّهمها بأنها خائنة أيضاً. القصَّة القديمة المعروفة في الصِّينْ تقول

---

*) شخصية من التراث الشَّعبيِّ الصِّينيِّ يُضرَب بها المَثَل في الخيانة الزَّوجيَّة، حيثُ تحكي القصَّة أن بان جي ليان خانت زوجها، ثمَّ قَتَلَتْهُ بمساعدة عشيقها حتَّى يخلوَ لهما الجوُّ، وصار الصِّينيُّون يستخدمون اسمها للإشارة إلى السَّيِّدة التي تخون زوجها.

إن "بان جين ليان" كانت تخون زوجها وو دالانغ مع عشيقها شي مينتشينغ بعد زواجها، أمَّا هي، فكانت على علاقة بأحدهم قبل الزواج، ولم تكن تعرف تشين يوخه من الأساس، فضلاً عن أنها لم تفعل كما فَعَلَتْ بان جين ليان التي تآمرت مع عشيقها ضدَّ زوجها، بل ما حَدَثَ هو العكس، هو مَنْ ذَهَبَ وتآمر مع امرأة أُخرى ضدَّ زوجته. كانت تعرف أنه كان غاضباً ومُندفِعاً في كلامه، ولم يقصد الحديث عن هذا الأمر، بل كان يقصد أن يُنفِّس عن غضبه، أو يقصد أن يتخلَّص من إلحاحها وإزعاجها. ولهذا شَعَرَتْ أن الأمر أخذ مَنحَى آخر، والسبب أنه لم يتلفَّظ بهذا الكلام أمامها وحدها، بل أمام مجموعة من الأشخاص يشربون البيرة برفقته.

وَصَدَقَ المَثَلُ حين قال: "الأخبار الجيِّدة لا تغادر الباب، أمَّا السَّيِّئة، فتنتشر لآلاف الأميال". وموضوع أنها بان جين ليان سينتشر غداً في أنحاء البلدة كافَّة، وبعد غد سينتشر في أنحاء المدينة كافَّة. لقد صارت بالفعل مشهورة في البلدة والمدينة بسبب قضية طلاقها، وأمر كونها بان جين ليان هو أكثر إثارة للاهتمام من قضية طلاقها. فقد لا يكون مُهمَّاً للناس كون طلاقها حقيقياً أم زائفاً؛ لكنَّ الأهمَّ من هذا كلِّه هو أنه لو صارت مثل بان جين ليان، فسيصبح كون طلاقها حقيقياً أم زائفاً أمر له ما يُبرِّره، فَمَنْ هذا الذي يرغب في أن يعيش مع بان جين ليان؟ بعبارة أُخرى، أن تُوصَمَ بأنها بان جين ليان، فهذا يعطي زوجها الحقَّ في كلِّ ما فِعْل، وتصير هي الجاني بعدما كانت صاحبة المَظْلَمَة. وهذا هو مَكمَن خطورة تلك العبارة التي قالها تشين يوخه. لقد جاءتْهُ في الأصل، لتُسوِّي الأمر، وتبدأ حياة جديدة، وتبحث لنفسها عن زوج جديد، ولكنها الآن صارت مُتَّهمة بأنها بان جين ليان، وصار من المستحيل عليها أن تبدأ الحياة الجديدة التي كانت تُخطِّط لها، فَمَنْ هذا الذي يرغب في أن يتزوَّج امرأة وُصِمَت بأنها بان جين ليان؟ شَعَرَتْ بالدوار؛ فاستندت على الحائط، ونَهَضَ لاوتشانغ،

وأخذ يوبخ تشين يوخه قائلاً: "هذا تجاوُز كبير منكَ، أنتَ تخلط الأمور، المَثَلُ يقول: لو ضَرَبْتَ، فلا تضربْ وجهاً، ولو شَتَمْتَ، فلا تفضحْ أحداً".

ثمَّ استدار ينصح لي شيوليان قائلاً: "كلَّما استمرَّيتِ، تعقَّد الأمر، عودي إلى بيتكِ الآن".

مَسَحَتْ دموعها، واستدارت مغادرة. لم تغادر استجابة لنصيحة لاوتشانغ، بل لأنه خَطَرَتْ ببالها فكرة جديدة. فبما أنها لن تستطيعَ أن تبدأ حياتها من جديد، وَجَدَتْ أن عليها الاستمرار في تقليب أوراق الماضي. في السابق، كانت تُقلِّب في أوراق الماضي، كي تُثبت أن طلاقها زائف، والآن ستُقلِّب في أوراق الماضي، لتُثبت أنها ليست بان جين ليان. ما فَعَلَتْهُ في الماضي كان فقط من أجل تنغيص حياته، وما ستفعله الآن هو من أجل إثبات براءتها. سبب تعقيد هذا الأمر هو أنه نَتَجَ عن صراعها مع تشين يوخه حول صحَّة الطلاق من عدمه، أو يمكن القول إنه لكي تُثبت أنها ليست بان جين ليان، عليها أوَّلاً أن تُثبت حقيقة طلاقها من زَيْفه. في الأصل لم يكن هناك علاقة بين هذَيْن الأمرَيْن، ولكنهما اختلطا معاً بعدما تفوَّه زوجها بتلك العبارة. عبارة لاوتشانغ: "لو ضَرَبْتَ أحداً، فلا تضربْ وجهاً، ولو شَتَمْتَ، فلا تفضحْ أحداً"، هي أيضاً أثارت حَنَقَهَا بشدَّة. فهذه العبارة تدلُّ على أنه يُصدِّق كلامه، ويصدِّق بالفعل أن هناك فضيحة، وأنها بالفعل هي بان جين ليان. قرَّرت أن تستسلم، وألَّا تتمادى في شكواها، ولكنها عادت الآن، وقرَّرت أن تشتكيَهُ ثانية. المشكلة الآن هي أين تذهب لكي تشتكيَهُ؟ لقد اشتكتْهُ في كلِّ الأماكن الممكنة، سواء في المُحَافَظَة أو في المدينة، وعانت الويلات في سبيل ذلك. شكواها في السابق لم تُنصِفْها، وشكواها الآن بالتأكيد لن تنصفَها أيضاً، ومن المحتمل أن يزجَّ بها في السجن ثانية. قرَّرت فجأة أن تغادر بلدتها، وأن تذهب إلى بكين مباشرة، كي تشتكيَهُ. فهي لن تستطيعَ العيش، لو ظلَّت تعاني من

هذه الفضيحة. المسؤولون هنا ليسوا أكْفَاء، ولكن بكين هي العاصمة، وبالتأكيد هناك مسؤولون أكثر كفاءة. المسؤولون هنا بداية من القاضي وعضو اللجنة القَضَائيَّة ورئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة كلّهم قالوا إن الطلاق الزائف حقيقي. بالتأكيد هناك في بكين مَنْ سيقول إنّ الطلاق الزائف هو، بالفعل، زائف. كما أن كون الطلاق حقيقي أو زائف لم يعد مُهمّاً الآن، المُهمُّ هو أنها لي شيوليان، وليست بان جين ليان أو أنها لي شيوليان وأنها ضحيَّة للظُّلم.

12

ذَهَبَتْ لي شيوليان إلى بكين في وقت غير مناسب بالمرَّة. هي لا تفهم الأحوال في بكين جيِّداً. فعندما ذَهَبَتْ للشكوى، تصادف موعد "اجتماع المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب" ببكين. ليست هناك علاقة بين شكواها وبين عقد هذا الاجتماع بالطبع، ولكنْ، بسبب توقيت ذهابها إلى بكين، صارت بينهما علاقة. ففي الوقت الذي يُعقد فيه "اجتماع المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب"، كان العاطلون وأمثالهم يُمنَعُون من دخول بكين، والمقصود بالعاطلين وأمثالهم هم هؤلاء الذين يُعكِّرون صفوَ عقد الاجتماع. فكلُّ جَامِعِي القمامة، والمُتسوِّلين، والنَّشَّالين، وبائعات الهوى، وأيضاً أصحاب الشكاوى، جميعهم اختفوا من شوارع بكين في يوم وليلة. استقلَّت الحافلة في طريقها إلى بكين، في الأصل، كانت ترغب في السَّفَر بالقطار، ولكن تذكرة القطار أغلى من تذكرة الحافلة بخمسة عشر يواناً، فقرَّرت أن تسافر بالحافلة. سارت ليوم وليلة، وما إن وَصَلَتْ إلى محطَّة تحصيل الرسوم عند مدخل بكين، حتَّى علمت أن "اجتماع المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب" يُعقَد الآن. والسبب هو أن هناك العشرات من سيَّارات الشرطة تقف أمام محطَّة تحصيل الرسوم لفَحْص القادمين. الحافلات والشاحنات والسَّيَّارات الصغيرة كلُّها كانت مُصطفَّة على جانب الطريق، في انتظار تفتيش رُكَّابها. عدد السَّيَّارات كان كبيراً للغاية، وصفوف الانتظار طويلة جدَّاً. بعد مرور ساعَتَيْن، جاء شرطيَّان، وصَعِدَا إلى الحافلة التي تستقلُّها. أخذا يتفحَّصان هُويّات الرُّكَّاب وأمتعتهم، ويسألان عن سبب قدومهم إلى بكين. الإجابات كانت مُتنوِّعة، منهم مَنْ قال إنه في رحلة عمل، ومنهم مَنْ

جاء ليُتاجر، ومنهم مَنْ جاء لزيارة أقاربه، ومنهم مَنْ قال إنه مريض جاء لزيارة طبيب، وأيضاً منهم مَنْ جاء بحثاً عن طفله المفقود. بعضهم قُبلَت علَّة زيارته لبكين، وَنَجَحَ في العبور، وبعضهم لم تُقبَل منه، وأُنزِلَ من الحافلة. كانت لي شيوليان تراقب كلَّ ما يجري، ولكنها لم تفطن إلى معايير الشرطة في قبول أو رَفْض دخول بكين. في النهاية، جاء أحد الشّرطيَّيْن لتفحُّص هُوِيَّتها، وسألها: "لماذا تذهبين لبكين؟".

هي تعي أنه لا يمكن القول إنها في زيارة عمل، ولا ذاهبة للتجارة، أو للبحث عن طفلها المفقود، فهذه أمور لا تتوافق مع هيئتها، وهي، أيضاً، لا يمكنها أن تقول السبب الحقيقي لمجيئها إلى بكين، وهو الشكوى، قرَّرت أن تقول كما قال الجالس أمامها: "أنا مريضة، جئتُ للعلاج".

قالت تلك العبارة، ثمَّ تظاهرتْ بالدوار، واستندت برأسها إلى زجاج نافذة السَّيَّارة. حدَّق الشّرطيّ فيها، وسألها: "أيّ مرض هذا؟".

قالت: "مرض في الرَّحِم".

بَدَتْ عضلات وجه الشّرطيّ وكأنها ترتجف وهو يواصل الأسئلة: "إلى أيِّ مستشفى تذهبين؟".

تسمَّرت دون أن تعرف كيف تجيب، فهي لم تذهب إلى بكين من قبل، ولا تعرف أسماء المستشفيات بها؛ فارتجلت قائلة: "مستشفى بكين".

إجابتها كانت بديهية، فمدينة بكين من الطَّبيعيِّ أن يوجد بها مستشفى بكين. حدَّق الشّرطيّ بها، وسألها: "وأين ملفُّكِ المَرَضِيُّ؟".

أجابت بذهول: "ملفِّي المَرَضِيّ؟ أيُّ ملفٍّ مَرَضِيٍّ؟".

بَدَا الشّرطيّ حانقاً وهو يقول: "ملفُّكِ المَرَضِيُّ الذي أعطتْهُ لكِ المستشفى، سجلُّ تاريخِكِ المَرَضِيِّ".

لمَعَتْ في ذهنها فكرة، فأجابت: "هذه ليست المرَّة الأولى التي أذهب فيها لمستشفى بكين، وملفِّي المَرَضِيُّ موجود في المستشفى، لم أحملْهُ معي".

ظلَّ الشّرطيّ يُحدِّق فيها، ثمَّ تغاضى عن سؤاله عن ملفِّها المَرَضِيِّ، وتابع بسؤال آخر: "أين تصريحُكِ؟".

قالت متعجِّبة: "تصريح؟ أيُّ تصريح؟".

بَدَا الشّرطيّ حانقاً ثانية وهو يقول: "كيف لكِ أن تكوني جاهلة إلى هذا الحَدِّ؟ اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب تُعقَد الآن في بكين، وعلى كلِّ القادمين إلى بكين أنْ يحملوا تصريحاً من حكومة المُحَافَظَة التابعين لها، وإلَّا فكيف أعرف أنكِ جئتِ للعلاج بالفعل؟".

بَدَا الذهول على وجه لي شيوليان، فهي لا تعلم شيئاً عن هذا الأمر بالفعل، وحتَّى لو كانت تعلم، فحكومة المُحَافَظَة لن تمنحَها تصريحاً للذهاب إلى بكين، وقالت: "لم أكن أعرف أن اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب تُعقَد الآن، لقد نسيتُ هذا الأمر تماماً".

فَطِنَ الشّرطيّ إلى أنه وَجَدَ سبباً كي يمنَعَها من الدخول، فأخذ نَفَساً عميقاً، وقال: "هذا ممنوع، ما دام ليس لديكِ تصريح، فلن أسمح لكِ بالمرور".

أجابت: "وما العمل؟ ألن أتعالج؟".

الشّرطيّ: "الاجتماعات ستُعقَد لمدَّة أسبوعَيْن، بعدها يمكنكِ أن تأتيَ إلى بكين للعلاج".

بَدَتْ لي شيوليان مُتعنِّتة، وظلَّت جالسة مكانها دون حَرَاك، وقالت: "أنا لن أنزل من السَّيَّارة".

الشّرطيّ: "نَزَلَ الآخرون، فلماذا لا تنزلين؟".

لي شيوليان: "لديَّ مرض خطير في الرَّحِم، ولا يمكنني تأجيل العلاج".

ارتجفت عضلات وجه الشّرطيّ للمرَّة الثالثة، وهو يقول: "هذا شأن آخر، لا تخلطي الأمور ببعضها، فقط انتظري لأسبوعَيْن، ليس أكثر".

نَهَضَتْ واقفة، وقالت: "لو أرغمتَني على النزول، فسوف أنزل، ولكنْ، عليكَ أن تتحمَّل المسؤولية".

دُهِشَ الشُّرطيّ، وسألها: "أيّ مسؤولية؟".

لي شيوليان: "أنا في الأساس لا أريد الذهاب للعلاج، أنفقتُ كل ما لديَّ، وحالتي لا تتحسَّن، ولا أريد أن أعيش، لو أرغمتَني على النزول، فلن أنتظر أسبوعَيْن، بل سأعود وأنتحر".

تسمَّر الشّرطيّ مكانه، وهي تنظر إلى الرَّقْم المعلَّق على ملابسه، ثمَّ تابعت: "حفظتُ رَقْمَكَ الوظيفيَّ، وقبل أن أنتحر سأكتب في وصيَّتي أنكَ كنتَ المُتسبِّب في ذلك".

زاد ذهول الشّرطيّ، وظلَّ فمه مفتوحاً حتَّى تدلَّى منه اللُّعاب، ثمَّ استدرك، فأغلق فمه، وغَمْغَمَ قائلاً: "أنتِ امرأة سليطة، ليس من السهل التعامل معكِ". ثمَّ هزَّ رأسه وهو يردِّد: "امرأة سليطة". ثمَّ عَقَدَ حاجبَيْه، وتجاوزها، ليسأل الراكب التالي دون أن يُنزِلها من الحافلة؛ فالتفتت بوجهها نحو النافذة، وتنفَّست ملء رئَتَيْها.

13

هذه المرَّة الأولى التي تذهب فيها لي شيوليان إلى بكين، وما إن وَصَلَتْ، حتَّى أُصيبَتْ بالدُّوار من فَرْط التَّلفُّت حولها. كانت تشعر أن بكين كبيرة جدًّا، أكبر من القرية والمُحَافَظَة والمدينة معاً، كبيرة لدرجة لا حدود لها. ركبت حافلة النقل العامّ، وكلَّما سارت بها الحافلة شاهدت العديد والعديد من المباني الشاهقة، والكثير من الجسور المُعلَّقة. كما أنها لم تكن تعرف الاتِّجاهات في بكين، فقد دَرَسَتْ في كُتُب المرحلة الابتدائية أن ميدان تيان آنمن يقع في الجهة الشَّمَاليَّة من شارع تشانغان، وحين عَبَرَتْ بها الحافلة أمام ميدان تيان آنمن، اكتشفت أن الميدان يقع في الجهة الجنوبية من شارع تشانغان، فظلَّتْ تحاول أن تفهم الاتِّجاهات كما تعوَّدت في قريتها، ولكنها لم تنجحْ، فعلى ما يبدو، ينبغي عليها خلال إقامتها في بكين أن تنظر إلى الشَّمَال على أنه جنوب، وإلى الشرق على أنه غرب. الأكثر إرهاقاً من هذا هو أنها جاءت إلى بكين للشكوى، ولكنها بعدما وَصَلَتْ إلى بكين، لم تكن تعرف أين تشتكي، وإلى مَنْ تشتكي، أين هي الأماكن التي يتعيَّن عليها الذهاب إليها، أين يوجد هؤلاء الذين سيستمعون لشكواها. لحسن الحظِّ أن هناك اجتماع المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وهذا الاجتماع يُعقَد بالتأكيد في قاعة الشعب الكُبْرَى، كما أن قاعة الشعب الكُبْرَى تقع في الجهة الغربية من ميدان تيان آنمن، بالطبع يقع في الجهة الشَّرقيَّة حسبما ترى لي شيوليان. المكان الذي تعقد فيه اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب بالتأكيد يوجد فيه مسؤولون كبار، بل وليسوا مسؤولين كباراً عاديِّيْن، فَلَمَعَتْ في ذهنها فكرة،

وهي أن تغتنم فرصة عقد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وتذهب للاعتصام في ميدان تيان آنمن، وبذلك يمكنها أن تلفت أنظار هؤلاء المسؤولين الكبار القادمين للمشاركة في الاجتماعات.

لكي تستقرَّ في بكين هذه الفترة، ذَهَبَتْ إلى زميل دراسة قديم. هذا الزميل اسمه تشاو جينغلي، كان زميلها في المرحلة الإعدادية والثَّانويَّة، جَلَسَ في المقعد الذي خلفها ستّ سنوات. كان له رأس كبير، ومستدير، وفي جبهته جزء بارز، أشبه بثمرة القرع. تشاو جينغلي هو اسمه الحقيقي، ولكنْ، لم يكن أحد في صفِّه يناديه بهذا الاسم، بل كانوا جميعاً ينادونه تشاو داتو، أي تشاو ذو الرأس الكبير. وبمرور الوقت، عندما كان أحد يناديه "تشاو داتو"، كان يردُّ عليه، وعندما كان أحدٌ يناديه "تشاو جينغلي"، لم يكن هو نفسه يعرف مَن المقصود. هو لم يتحدَّث معها خلال سنوات المرحلة الإعدادية الثلاثة قطُّ، ولكنْ، بعدما التحقا بالمرحلة الثَّانويَّة، لاحظتْ أنه مُعجَب بها. فَقَدَ والدته في طفولته، ووالده كان يعمل خيَّاطاً في البلدة، وله ثلاثة أخوة أصغر منه، والده ينكبُّ طيلة اليوم على ماكينة الخياطة حتَّى يعول أبناءه الأربعة، وأحوال أسرته ليست في أحسن حال. فإنه منذُ التحقا معاً بالمرحلة الثَّانويَّة، كان يعطيها بعضاً من حلوى الزبدة ماركة "الأرنب الأبيض الكبير" كلّ يومَيْن أو ثلاثة، ويناولها إيَّاها خِلْسَة من خلف المقعد. لم يكن أحد يعرف من أين يأتي بمال لشراء الحلوى. وبعدما استمرَّ يهديها الحلوى على هذا الحال لِمَا يزيد على عامَيْن، لم يلحظْ أيَّ اهتمام منها نحوه. وعندما كانا على وشك التَّخرُّج من المرحلة الثَّانويَّة، خَرَجَتْ لي شيوليان ذات ليلة من غرفة الدراسة، لتذهبَ إلى دورة المياه، وبعد عودتها، وَجَدَتْهُ ينتظر أمام غرفة الدراسة، تلفَّتَ يَمْنَةً ويَسْرَةً، فلم يجد أحداً، فتقدَّم، وخَاطَبَهَا: "لي شيوليان، أريد أن أتحدَّث معكِ قليلاً".

قالت: "حسناً، تحدَّثْ".

قال مُتلفِّتاً: "فلنذهبْ إلى مكان آخر".

قالت باندهاش: "حسناً، فلنذهبْ".

اصطحبها إلى ساحة تخزين القمح خلف المدرسة، حيثُ كان المكان خالياً مُظلماً، وسألتْهُ: "ماذا تريد؟". لم يتحدَّث بأيِّ شيء، بل تقدَّم، واحتضنها، ثمَّ حاول أن يُقبِّلها من فمها، ولأن تصرُّفه كان مُفاجِئاً دون مُقدِّمات، فلم يكن متوقَّعاً بالنسبة إليها؛ دَفَعَتْهُ بيدها بعيداً بشكل غريزي، فتعثَّر تشاو داتو، وسَقَطَ على الأرض. لو كان شابّاً آخر غيره، لَنَهَضَ، وحاول تقبيلها ثانية، حتَّى لو ظلَّت ترفض وتقاوم، أو حتَّى تصرخ، المهمُّ هو أن يحصل على ما يريد، ولكنها لم تتوقَّع أن ينهض من الأرض، ويقول مشدوهاً: "اعتقدتُ أننا صرْنا حبيبَيْن". ثمَّ صَمَتَ قليلاً، وقال: "أرجوكِ، لا تُخبري أحداً من زملائنا".

استدار، وجرى هارباً، فضحكتْ في غضب، لم تغضبْ لأنه احتضنها وحاول تقبيلها، بل لأنه فرَّ هارباً. عندما تقابلا في اليوم التالي، ظلَّ خافضاً رأسه ووجهه محمرّاً خجلاً، لم يجرؤ على النَّظَر في وجهها. فعلمت أنه مجرَّد صبيٍّ ساذج على فطرته. كَتَمَتْ لي شيوليان غيظَها، وتجاهلتْهُ. وبعدما تخرَّجا في المرحلة الثَّانويَّة، لم ينجح أيُّهما في الالتحاق بالجامعة، حيثُ عادت هي إلى قريتها، وَذَهَبَ هو إلى عاصمة المُقَاطَعَة، ليتعلَّم حرفة الطَّهْي من خاله الذي يعمل طاهياً في فندق هناك. بعدها انتقل خاله ليعمل في الفندق التابع لفرع حكومة المُقَاطَعَة ببكين، فانتقل تشاو داتو برفقته. ثمَّ تقاعد خاله، وعاد إلى مسقط رأسه، وبقي وحده في بكين. كانت لي شيوليان وحيدة في بكين، ففكَّرَتْ في كلِّ مَنْ تعرفهم، ولم تجد سوى تشاو داتو فقط، فَعَزَمَتْ على الذهاب إليه. لكنها أكلت الحلوى التي قدَّمها لها طَوَالَ عامَيْن في المرحلة الثَّانويَّة، وَطَرَحَتْهُ أرضاً عندما اقترب منها في ساحة تخزين القمح، وفرَّ خوفاً منها، فربمَّا لا يزال

ناقماً عليها. فكَّرَتْ مليَّاً، لو كان غير غاضب منها الآن، فسيكون لديها مكان تقيم فيه، وإن كان لا يزال غاضباً، ستغادر، وتذهب للبحث عن مكان آخر. هي أيضاً فكَّرَتْ في هذا المكان الآخر، إنه محطَّة القطارات. فعلى الرَّغْمِ من أنها لم تدخلها من قبل، فإنها تعرف أن جميع محطَّات القطارات تتحوَّل بحلول المساء لمكان، يمكن للغرباء النوم تحت سقفه.

وعلى الرَّغْمِ من معرفتها بعمله في فرع مقرِّ حكومة المُقَاطَعَة في بكين، فإنه من الصعب العثور على هذا المقرِّ. استقلَّت حافلة النقل العامِّ ثماني مرَّات، وفي كلِّ مرَّة تضلُّ طريقها، وسارت في العديد من الاتِّجاهات الخاطئة، وظلَّت تبحث من الصباح إلى المساء حتَّى وَجَدَتْهُ. المقرُّ عبارة عن مبنى من ثلاثين طابقاً، به فندق للإقامة. وحين وَصَلَتْ إليه اكتشفتْ أنها لن تستطيع الدخول. ثمَّةَ ساحة كبيرة أمام المبنى، وعند البوَّابة منفذ للدخول، وعلى طول الممرِّ شريط حاجز، أمامه ستَّة حُرَّاس، يمنعون القادمين من الدخول. كان المقرُّ وقتها مُخصَّصاً لإقامة ما يزيد على 100 نائب، أتوا من المُقَاطَعَة للمشاركة في اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وحين تقدَّمت للدخول، اعتقد الحَرَسُ أنها جاءت لتقيمَ في الفندق، ولكنْ، بتفحُّص مظهرها، أدركوا عجزها عن تحمُّل تكاليف الإقامة به، فتحدَّث إليها أحدهم بلهجة ودِّيَّة قائلاً: "فلتذهبي للبحث عن مكان آخر للإقامة، هذا الفندق مُخصَّص لإقامة النُّوَّاب".

علمت لي شيوليان أن أمورها تشابكت ثانية مع هذا الاجتماع، ولكنها لم تَهَبِ الموقف، وحاولت النظر إلى الداخل، وقالت: "أنا لم آتِ للإقامة، جئتُ لزيارة أحد أقاربي".

سألها أحد الحُرَّاس مُتعجِّباً: "وهل قريبكِ نائب جاء للمشاركة في الاجتماعات؟".

هزَّت رأسها نافية وهي تقول: "لا، بل يعمل طبَّاخاً هنا، اسمه تشاو جينغلي".

فكَّر الحارس قليلاً، وقال: "أعرف جميع الطُّهاة هنا، لا يوجد أحد بهذا الاسم".

تسمَّرتْ مكانها، وقالت: "جميع مَنْ في البلدة يعرفون أنه يعمل طاهياً هنا".

ثمَّ تابعت تسأل بقلق: "كيف له ألَّا يكون هنا؟ سافرتُ لمسافة تزيد على الألف كيلو متر، لأقابله".

ساعدها حارس آخر بالتفكير قائلاً: "أنا أيضاً أعرف جميع الطُّهاة هنا، فعلاً لا يوجد مَن اسمه تشاو جينغلي".

تذكَّرت فجأة، فقالت بسرعة: "صحيح، له اسم آخر، تشاو داتو".

ما إن سمع الحَرَسُ اسم "تشاو داتو"، حتَّى انفجروا ضاحكين، وقالوا بنَفَس واحد: "تتحدَّثين عن تشاو داتو".

قال أحدهم: "لماذا لم تقولي ذلك من البداية؟! انتظري هنا، سأذهب لأناديهُ".

بعدها بخمس دقائق، جاء تشاو داتو. كان يرتدي اللباس الرَّسْمِيَّ الأبيض الخاصَّ بالطُّهاة، وعلى رأسه قُبَّعة الطُّهاة الطويلة. ملامحه لم تختلف كثير عمَّا كانت عليه خلال المرحلة الثَّانويَّة، فقط صار أسمن قليلاً، فقد كان نحيلاً للغاية في السابق. بعدما صار سميناً، لم يعد رأسه يبدو كبيراً كما كان. لو قابلتْهُ في الشارع فلن تعرفَ مَنْ هو بالتأكيد. حين رآها أُصيب بالدهشة لبُرْهَة، ثمَّ عرف أنها هي لي شيوليان، فَخَبَطَ يداً بيد وهو يبتسم قائلاً: "يا إلهي، كيف أتيتِ إلى هنا؟".

اطمأنَّت لي شيوليان عندما شاهدتْهُ يستقبلها بفرح هكذا، وعلمت أنه لم يعد غاضباً بسبب ما حَدَثَ بينهما منذُ أكثر من عشر سنوات. فأجابتْهُ قائلة: "كنتُ في زيارة إلى شَمَال شرق الصِّيْن لزيارة عمَّتي، ومررتُ ببكين في طريق عودتي، فجئتُ لزيارتكَ".

تقدَّم وَحَمَلَ حقيبتها وهو يقول: "هيَّا، تفضَّلي بالدخول".

لم يتوقَّع الطَّبَّاخ أن يمدَّ أحد الحَرَس يده مانعاً إيَّاها من الدخول وهو يقول: "تشاو داتو، لو كان لديكما ما تقولانه، فَلْتَتَحَدَّثا بالخارج، هذا موعد عقد الاجتماعات، وممنوع دخول الغرباء".

دُهش تشاو داتو، ودُهشت هي أيضاً، فقد كانت قلقة من عدم الدخول، لكن تشاو داتو دَفَعَ الحارس بيده، وقال: "اللعنة على أُمِّكَ، هذه أُختي، مَنْ قال إنها غريبة".

الحارس: "هذه تعليمات".

بَصَقَ تشاو داتو على الأرض، وقال: "أنتَ لستَ سوى حارس، لا تُهوِّل من الأمور، هل والدكَ يسكن هنا؟ هل والدكَ في فترة نَفَاس ما بعد الولادة، ولا يُسمَح له بأن يرى غرباء؟".

امتقع وجه الحارس غضباً، وقال: "تشاو داتو، انتبهْ لألفاظِكَ، لا تشتمْني".

تشاو داتو: "لا أشتمكَ لأنكَ تمنع أُختي من الدخول، بل لأنكَ ناكر للجميل، تأتي إلى المطبخ يومياً، وأتركَكَ تأخذ ما تريد، بالأمس فقط أعطيتُكَ قطعة كبيرة من اللَّحْم، إن لم ترضَ بالسِّباب، فسأضربكَ، يا ابن اللعينة". ثمَّ لوَّح بيده يهمُّ بضربه؛ فاحمرَّ وجه الحارس، وانتحى جانباً؛

فضحك بقية الحُرَّاس. علمت لي شيوليان أن تشاو داتو ذاك الطفل عديم الشَّخصيَّة في الماضي تغيَّر الآن.

صحبها تشاو داتو، وتجاوزا الشريط الحاجز، ثمَّ دَلَفَا إلى الساحة، ولكنهما لم يدخلا الفندق، استدارا حوله وصولاً إلى مبنى صغير من طابقَيْن، أمامه لافتة كبيرة، مكتوب عليها: "المطبخ". ثمَّ صحبها إلى غرفة المخزن. غرفة المخزن بها سرير، فعلمت أنه يسكن هنا. شرح لها قائلاً: "مديري يثق بي، لذلك أُقيم هنا حتَّى أراقبَ المخزن".

ثمَّ طَلَبَ منها أن تذهب وتغتسل، وصبَّ لها كأساً من الشاي، وَذَهَبَ إلى المطبخ، وعاد حاملاً طَبَقاً من المعكرونة الساخنة. بعدما أكلت وشربت، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء، سألها تشاو داتو: "لماذا جئتِ إلى بكين؟".

لم تجرؤ أن تُخبره أنها جاءت للشكوى، فقالت: "كما أخبرتُكَ، كنتُ في زيارة إلى منطقة شمال شرق الصِّينْ لزيارة عمَّتي، ومررْتُ ببكين في طريق عودتي، فقرَّرتُ أن أتجوَّل هنا، لم آتِ إلى بكين من قبل".

أخذ تشاو داتو يفرك يَدَيْه ويقول: "التَّجوُّل أمر رائع، التَّجوُّل أمر رائع". ثمَّ استطرد يقول: "ستنامين هنا".

فكَّرَتْ قليلاً وقالت: "لو كنتُ سأنام هنا، فأين ستنام أنتَ؟".

قال: "أنا أعمل هنا، ولديَّ أماكن كثيرة أنام فيها، لا تقلقي بهذا الشأن".

ثمَّ تابع يقول: "اغتسلي ونامي، وأنا سأذهب الآن لتحضير بعض الأطعمة الخفيفة للسادة النُّوَّاب، ليأكلوها ليلاً".

نامت على فراشه، ولم تعرف أين قضى ليلته. في صبيحة اليوم التالي، فوجئت بمَنْ يطرق الباب قبل أن تستيقظ، فنَهَضَتْ وارتدت ملابسها،

وَفَتَحَتِ الباب، لتجد تشاو داو يقول بعجل: "هيَّا بسرعة، بسرعة". ظنَّت أن أحدهم اكتشف أمر وجودها، وأنه يطلب منها المغادرة بسرعة، فسألتْهُ مندهشة: "ماذا حَدَثَ؟". أجابها: "ألم تقولي إنكِ جئتِ لتتجوَّلي في بكين؟ طَلَبْتُ إجازة، وسأصحبكِ اليوم، لنتجوَّل عند سور الصِّيْن العظيم، وعلينا أن نذهب مُبكِّراً، لنستقلَّ الحافلة الصَّباحيَّة".

تنفَّست ملء رئَتَيْها، ولكنها ما لبثت أن شَعَرَتْ بالارتباك. فهي لم تأت إلى بكين للتَّنزُّه، بل لتشتكيَ، هي فقط خَدَعَتْهُ بالأمس بأنها جاءت للتَّنزُّه، ولم تكن تتخيَّل أن يأخذ الأمر على محمل الجدِّ. لم تجرؤ على رَفْض دعوته عندما رأت جدِّيَّته، كما أنها قالت ذلك بالأمس فقط، وليس لها أن تُبدِّل كلامها بسرعة، فلو حَدَثَ أن بدَّلت كلامها، فسوف ينكشف أمر مجيئها إلى بكين للشكوى، ولن تتمكَّن من تنفيذ خطَّتها، كما أن الشكوى لن تنتهيَ في يوم واحد، فاجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب ستنعقد لمدَّة أسبوعَيْن، وخروجها للتَّنزُّه يوماً لن يؤثِّر. ذَهَبَتْ واغتسلتْ وَخَرَجَتْ برُفْقَة تشاو داتو، حيثُ استقلَّا الحافلة إلى سور الصِّيْن العظيم. تجولا لمدَّة طويلة، ولكنها كانت مهمومة بشأن شكواها، ولم تستمتع بالتَّنزُّه، وعلى العكس منها، كان هو مُستمتعاً برفقتها. ففي اليوم التالي، استيقظ باكراً أيضاً، واصطحبها لزيارة المعبد السَّماويِّ وحديقة تيان تان. ثمَّ صحبها لصالون تصفيف شَعْر أمام الحديقة لعمل تسريحة جديدة، وبعدما انتهت، نَظَرَ لها قائلاً: "هذا أجمل بكثير، أنتِ الآن على وشك أن تصبحي مثل أهل بكين، طريقة تصفيف الشَّعْر تدلُّ على ذوق صاحبها".

قالها، ثمَّ قَهْقَهَ ضاحكاً، هي الأُخرى نَظَرَتْ في المرآة، ولم تتمالك نفسها من الضحك خَجَلاً. بعدها صحبها لتناوُل الطعام البكيني الشهير: "لحم الضأن المنقوع في القِدْر الساخن"، شَعَرَتْ بالامتنان له وهي تجلس أمام البخار المتصاعد من القِدْر، فقالت: "عطَّلتُكَ عن عملكَ في هذَيْن اليومَيْن، وكلَّفتُكَ الكثير من المال، حقَّاً أشعر بالحرج منكَ".

شَعَرَ بالغضب من كلامها، فقال: "ماذا تقصدين، هل تعدِّينني شخصاً غريباً؟".

أجابت: "لا، لا أعدُّكَ غريباً".

ابتسم وَخَبَطَ بيده على الطاولة وقال مُبتهِجاً: "نحن لم ننتهِ بعد".

سألتْهُ: "ماذا؟".

ردَّ بفرح: "غداً سأصطحبكِ لزيارة القصر الصَّيفيِّ، هناك يمكننا أن نتنزَّه بالقارب في البُحيرة".

في المساء، عندما عادت واستلقت على فراشه، لم تتمكَّن من النوم في البداية. في اللَّيلَتَيْنِ السَّابقَتَيْنِ نامت جيِّداً، ولكنْ، تلك الليلة انتابها الأرق. كلُّ ما مرَّت به خلال العام الماضي، والتجارب التي خاضتْها الشهر الفائت خلال شكواها، أخذت تدور في ذهنها. لم تكن تتخيَّل أن شكوى شخص ما ستكون بهذه الصعوبة. أو لم تكن تتخيَّل أن إثبات صحَّة كلام صحيح سيكون صعباً هكذا، طلاقها كان زائفاً، ولم تكن تتخيَّل أن إثبات زَيْف أمر زائف صعب هكذا. لم تكن تتخيَّل، أيضاً، أن جُملة قد تجرُّ خلفها جُملة أُخرى، تصفها بأنها بان جين ليان تلك المرأة الخائنة. أكثر ما لم تكن تتخيَّله هو أن تأتيَ في نهاية المطاف إلى بكين، لتبثَّ شكواها. جاءت إلى بكين، ولا تدري أين تشتكي، ولا كيف تشتكي، كلُّ ما توصَّلت إليه هو الذهاب للاعتصام في ميدان تيان آنمن، ولا تعرف ما النتيجة التي ستترتَّب على ذلك. تشاو داتو شخص جيِّد، ويعرف بكين جيِّداً، ولكنْ، بإمكانها أن تستشيره في أيِّ أمر بخلاف هذه الشكوى. كانت مُستلقية على الفراش تفكِّر وتتنهَّد، حتَّى إنها تذكَّرت فجأة ابنتها الرضيعة التي تركتْها عند زميلتها منذُ شهر، كان عُمُر ابنتها شهرَيْن، صارت الآن ثلاثة شهور، ولا تعرف كيف حالها. فمنذُ أن وَضَعَتْهَا وهي مشغولة في أمر

شكواها، حتَّى إنها لم تخترْ لها اسماً. ثمَّ تذكَّرت، أيضاً،أنها جاءت إلى بكين لتشتكيَ، وليس لتتنزَّه، وعليها ألَّا تجعل تنزُّهها يُعطِّلها عن غرضها الذي جاءت لأجله. على الرَّغْمِ من أنها لم تكن تعرف كيف تشتكي، فإنها تعرف أن الشكوى كغيرها من الأمور التي لا تحتمل التأجيل. وبينما كانت تتقلَّب في الفراش وهي تفكِّر، سمعت صوت قِفْل الباب يتحرَّك فجأة، فشَعَرَتْ بالاضطراب، ثمَّ شاهدت الباب وهو يُفتَح بحَذَر، ورأتْ ظلَّ شخص يدخل. تطلَّعتْ إلى الظِّلِّ العريض والرأس الكبير، فعرفت أنه تشاو داتو، عرفت أن عليها دَفْع ثمن تنزُّهها اليومَيْنِ الماضيَيْنِ، أغمضت عَيْنَيْها دون أن تتحرَّك، وشَعَرَتْ به يقترب من الفراش، ثمَّ اقترب منها يتفحَّص وجهها، واستمرَّ هكذا لدقائق، لم تجد بُدَّاً من فَتْح عَيْنَيْها لتقول: "تشاو داتو، افعلْ ما تريد فِعْله".

كلامها المُفاجِئ وسط العَتْمَة أصابه بالذعر. نَهَضَتْ هي، وأضاءت الأنوار، فتسمَّر مكانه من شدَّة الحرج. كان يرتدي ملابسه الدَّاخليَّة فقط. لم يكن يدري كيف يتصرَّف عندما قالت له: "فلتفعلْ ما تريد". ربَّما شَعَرَ بالحرج بسبب هذه الجُملة، فظلَّ واقفاً مكانه، وأخذ يفرك يَدَيْه، ويقول: "كيف تقولين هذا؟! أيّ نوع من الناس تظنِّينني؟!". ثمَّ أخذ يتظاهر أنه يبحث عن شيء ما في المخزن وهو يقول: "أنا لم أقصد شيئاً، جئتُ لآخذ بعض الخميرة، كي أُجهِّزَ العجين ليلاً حتَّى أطهوَ خُبز الصباح، لا أُخفيكِ سرَّاً، حاكم مقاطعتنا يشارك في الاجتماعات، وهو يحبُّ أن يأكل من الخبز الذي أطهوه".

ارتدت لي شيوليان معطفها، ثمَّ جَلَسَتْ قائلة: "سمحتُ لكَ أن تفعل ما تريد، لا تندم بعد ذلك".

بَدَا عليه الذهول، فاستمرَّت تقول: "وإلَّا فسوف تذهب جهودكَ هذَيْن اليومَيْنِ هَبَاء".

شَعَرَ بخجل أكبر، فحاول أن يحفظ ماء وجهه قائلاً: "ماذا تقصدين؟ ما المشكلة في اصطحابكِ للتَّنزُّه ليومَيْن؟ كنَّا زملاء دراسة لستِّ سنوات".

ردَّت قائلة: "لا رغبة لي في الذهاب إلى القصر الصَّيفيِّ غداً".

سألها: "وأين تريدين الذهاب، إذنْ؟".

لم تستطع أن تخبرَهُ أنها تريد الذهاب للاعتصام في الميدان، فَخَدَعَتْهُ قائلة: "أريد الذهاب إلى المتجر لشراء بعض المستلزمات لطفلي".

شَعَرَ بالحماسة ثانية وقال: "فلنذهبْ معاً إلى المتجر، لو كانت هذه هي رغبتكِ".

ردَّت: "لا أرغب في تعطيلكَ عن عملكَ".

قال: "أخبرتُكِ مُسبَّقاً أنني طَلَبْتُ إجازة من العمل، وما دمتِ أنتِ في بكين، فسوف أُرافقكِ في كلِّ مكان، تريدين الذهاب إليه".

همَّتْ بخَلْع معطفها ثانية، وقالت: "لا تشغلْ نفسكَ بذلك، هيَّا، فلتفعلْ معي ما تريد".

حدَّق فيها لبُرْهَة، ثمَّ جَلَسَ بجوارها على الفراش، أشعل سيجارة، وقال: "حتَّى لو كنتُ أريد أن أفعل معكَ شيئاً، فَلْتَمْنَحِيْنِي بعض الوقت".

ضحكتْ بشدَّة، علمتْ أنه لا يزال نَفْس الطفل الساذج الذي كان عليه، قالت: "أنا أريد الخروج وحدي غداً، وكما يقولون، عليكَ أن تعطي غيركَ مساحته الشَّخصيَّة".

ضحك هو الآخر قائلاً: "لو كنتِ تودِّين الخروج وحدكِ، فَلْتَخْرُجِي وحدكِ، أُصدِقُكِ القول، رئيس الطُّهاة لا يستطيع الاستغناء عنِّي".

ابتسمتْ وَمَسَحَتْ بيدها على رأسه، ثمَّ طَبَعَتْ قبلةً على خَدِّه.

صباح اليوم التالي، ارتدتْ ملابس جديدة، وَخَرَجَتْ مستعدَّة لتذهب للاعتصام في ميدان تيان آنمن. ارتدت ملابس جديدة، تناسب ذهابها إلى الميدان، فلو ارتدت ملابس قديمة، ستمنعها الشرطة من الدخول إلى الميدان. اشترت هذه الملابس عندما قرَّرت شكوى تشين يوخه الشهر الماضي، لكنْ، لم تلبسها طيلة الشهر، وها قد حان الوقت لارتدائها. وليس هناك فرصة لترتديَ هذه الملابس في بلدتها، ولكنَّ الفرصة جاءت في بكين.

لم تكد تصل إلى الجهة الأمامية للفندق، حتَّى سمعتْ أحدَهُم ينادي عليها قائلاً: "إلى أين أنتِ ذاهبة؟". انتابها الذُّعْر، واستدارت بوجهها، فشاهدتْ رجلاً سميناً، يرتدي بِزَّةً وربطة عنق، يُعلِّق على صدره دَبُّوساً مَعْدِنيَّاً، عليه اسم الفندق. بَدَا على مظهره أنه أحد المسؤولين هنا. اعتقدتْ أنه اكتشف إقامتها سرَّاً هنا عند تشاو داتو، ولكنه سألها إلى أين أنتِ ذاهبة، ولم يسأل من أين أنتِ قادمة، وهذا ما جَعَلَهَا تطمئنُّ قليلاً. لم تعرف كيف تُجيب على هذا السؤال، فهي لا تستطيع أن تُخبرَه الحقيقة، وأنها ذاهبة للاعتصام في ميدان تيان آنمن، كما أنها، أيضاً، لم تتمكَّن من العثور على إجابة مناسبة، فاضطرَّت أن تقول: "أنا ذاهبة للتَّنزُّه".

غضب الرجل وقال: "لا تذهبي، لديكِ عملٌ الآن".

سألتْهُ بدهشة: "أيّ عمل؟".

أشار بيده إلى كومة من الأوراق عند سُلَّم المدخل قائلاً: "هذه الأوراق، انقليها إلى السَّيَّارة، ألَا تعلمين أن اليوم هو موعد عقد اجتماع تقرير العمل الحكومي؟ هيَّا، بسرعة، السادة النُّوَّاب في عَجَلَة للذهاب إلى قاعة الشعب الآن".

اكتشفت صفَّاً من الحافلات، يقف خارج الشريط الحاجز. كانت

الحافلات تستعدُّ للانطلاق، وامتلأت عن آخرها بركَّابها. رُكَّاب الحافلات كانوا يتحدَّثون ويتبادلون الضحكات. ربمَّا ظنَّ هذا الرجل أن لي شيوليان التي خَرَجَتْ من خلف المبنى بملابسها الجديدة، وتسريحة شَعْرها العصرية واحدة من العاملات في الفندق. فَطِنَتْ أن هناك سوء فَهْم، ولم تجرؤ على عدم تنفيذ طَلَبِه، حتَّى لا ينكشف أمرها. بالإضافة إلى أن نَقْل بعض الرُّزَم من الأوراق ليس بالأمر المُرهِق. ذَهَبَتْ وَحَمَلَتْ رُزَم الأوراق، فاكتشفت أنها ثقيلة بالفعل. سارت بها نحو آخر حافلة، وحين وَصَلَتْ هناك سمعت أحدهم يقول: "ضَعِي الأوراق في الخلف".

نَظَرَتْ لمَنْ في الحافلة، كانوا جميعاً من نُوَّاب المُقَاطَعَة، تتدلَّى من أعناقهم بطاقات، تحمل أسماءهم، ويتجاذبون أطراف الحديث. أخذت تُحدِّق فيهم، ولكنْ، دون أن يلتفت أحد إليها. نَظَرَتْ داخل الحافلة، فلاحظت أنها غير ممتلئة كما يبدو من الخارج. ما إنْ صَعِدَتْ، لتضع الأوراق على المقعد الخلفي، حتَّى أُغلِق الباب فجأة، وتحرَّكت السَّيَّارة. ربمَّا ظنَّ السائق أنها واحدة من النُّوَّاب، وبقية النُّوَّاب في الحافلة كانوا منشغلين في أحاديثهم الجانبية، وربمَّا ظنُّوا أنها أحد العاملين في تنظيم الاجتماعات. شَعَرَتْ ببعض الخوف والرهبة، وفكَّرَتْ أن تناديَ السائق، وتطلبَ منه التَّوقُّف، ولكنْ، جاءتْها فكرة: هذه السَّيَّارة متوجِّهة نحو قاعة الشعب الكُبْرَى، وهي تقع في الجهة الغربية من ميدان تيان آنمن، أو الجهة الشَّرقيَّة حسب تقديرها، وركوبها هذه الحافلة أفضل وأسرع من ركوبها حافلات النقل العامِّ، وبعدما تصل، يمكن للنُّوَّاب أن يدخلوا إلى القاعة، وتذهب هي إلى الميدان للاعتصام، وتُحقِّق غرضها.

ولأنه وقت ذروة الذهاب إلى العمل، كانت الطُّرُق ممتلئة بالمارَّة والسَّيَّارات. لكنَّ موكب حافلات النُّوَّاب كان يسير بسرعة كبيرة، والسبب هو أن هناك سيَّارة شرطة تفسح الطريق للموكب، إشارات المرور خضراء أمام الموكب في كلِّ مكان، والسَّيَّارات والمارَّة مُنِعُوا من المرور حتَّى

يمرَّ الموكب. بعد خمس عشرة دقيقة، وَصَلَ الموكب إلى ميدان تيان آنمن؛ فأدركت لي شيوليان كم هو ضخم وهائل حجم اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب. لم يكن هناك موكب واحد، بل أكثر من ثلاثين موكباً، من جميع المقاطعات والمناطق ذاتية الحُكْم، جميعها قادمة من اتِّجاهات مُختلِفة. أمام قاعة الشعب هناك العشرات من أفراد الشرطة لتنظيم دخول هذه المواكب، كلُّ أفراد الشرطة كانوا ذوي خبرة وكفاءة عالية، حيثُ نَجَحُوا في تنظيم اصطفاف هذه المواكب التي تزيد على ثلاثين موكباً، وتضمُّ مئات الحافلات أمام قاعة الشعب الكُبْرَى في وقت قياسي، بعدها ترجَّل آلافٌ من النُّوَّاب من مئات الحافلات، كانوا يحملون ملفَّات وأوراقاً، ويتجاذبون أطراف الحديث وهم يسيرون نحو مدخل القاعة. أُصيبَتْ لي شيوليان بالذهول ممَّا رأتْهُ، بعدما نَزَلَ النُّوَّاب من الحافلة، اختفت رُزَم الأوراق، حيثُ أخذ كلُّ نائب جزءاً. ظلَّت جالسة في مكانها، تنظر بِمَنْةً ويَسْرَةً، فالتفت إليها السائق الذي لا يزال يعتقد أنها من النُّوَّاب قائلاً: "لماذا لا تنزلين؟".

هذه الجُملة كانت بمثابة تنبيه لها، فلو تمكَّنتْ من الدخول إلى قاعة الشعب برُفْقَة النُّوَّاب، سيكون من السهل عليها أن تشتكيَ. اليوم سيتمُّ مناقشة تقرير عمل الحكومة، وبالتأكيد هناك الكثير من كبار قادة الدولة، ولو تمكَّنت من لقاء المسؤولين، وَشَرَحَتْ لهم الظُّلم الذي تعرَّضتْ له، فبالتأكيد ستكون نتيجته أفضل بكثير من الاعتصام في ساحة الميدان. نَهَضَتْ على عَجَل، وسارت برُفْقَة حشود النُّوَّاب للدخول إلى قاعة الشعب الكُبْرَى. ولأنها جاءت برُفْقَة النُّوَّاب داخل الحافلة، لم يُوقِفْها أحد، فسارت معهم نحو مدخل القاعة.

قبل دخول النُّوَّاب إلى القاعة يجب المرور بالتفتيش الأمني. كانت إجراءات التفتيش تجري يدوياً، حيثُ الكثير من العاملين يقفون حاملين أجهزة أشبه بمضارب الكرة، يفحصون بها النُّوَّاب قبل دخولهم. بضعة آلاف

من النُّوَّاب يتعرَّضون للفَحْص في نفس الوقت، وهو ما جَعَلَ العاملين يهتمُّون فقط بإجراءات السلامة دون اكتراث لهُوِيَّة النُّوَّاب. كانت تقف وسط النُّوَّاب، ومرَّت من التفتيش الأمني بسهولة، ثمَّ سارت برُفْقَة الحشود نحو القاعة الرَّئيسة، وعندما همَّت بدخول القاعة، استوقَفَهَا أحد الحُرَّاس، كان شرطيّاً، يرتدي لباساً مَدَنِيّاً، حدَّثها بطريقة مهذَّبة، وقال مبتسماً: "من فضلكِ، ضعي بطاقة التعريف خاصَّتكِ". يبدو أن هذا الحارس ظنَّها من ضمن النُّوَّاب فعلاً. أُصيبت بذهول أكبر بعدما دَخَلَت القاعة، كانت فخمة للغاية، الزهور اليانعة تُزيِّن كافَّة الأرجاء، والرايات تتدلَّى في جميع الأركان، لم تشاهد منظراً كهذا في حياتها، حتَّى إن قلبها كان يخفق بشدَّة من هَوْل ما تراه. في تلك الأثناء، أوقَفَها الشّرطيّ السابق نفسه فجأة، فشَعَرَتْ بالخوف والاضطراب، لكنها حاولتْ أن تبدو هادئة، وقالت: "عذراً، لقد نسيتُ بطاقة التعريف الخاصَّة بي في الفندق". ظلَّ الشّرطيّ مبتسماً وهو يقول: "لا يهمُّ، ما اسم المجموعة التي تتبعين لها؟". أجابت بعفوية باسم المُقَاطَعَة التي جاءت منها. استمرَّ الشّرطيّ يسأل: "وما اسمكِ؟". لم تعرف كيف تجيب، يمكنها أن تقول اسمها، ولكنها تعرف أن هذا لن يجديَ نفعاً، كما أنها لا تعرف أيَّ اسم من أسماء النُّوَّاب الحقيقيِّيْن، فتسمَّرتْ مكانها للحظات. استمرَّ الشّرطيّ يسأل: "ما اسمكِ؟". لم يكن بوسعها سوى المجازفة، فأجابت قائلة: "اسمي لي شيوليان". ولأنها كانت مضطربة، ومتردِّدة، قال الشّرطيّ: "حسناً، أيَّتُها النائبة لي شيوليان، تفضَّلي معي، لأتحقَّق من هُوِيَّتكِ". ثمَّ أردف: "أنا لا أقصد شيئاً، هذا فقط إجراء احترازي من أجل سلامة سَيْر الاجتماعات".

اضطرَّتْ أن تسير برفقته، فصحبها للسَّيْر في ممرٍّ على الجانب الأيسر للقاعة. تحدَّث في جهاز اللَّاسلكي بصوت منخفض. ثمَّ انعطف الشّرطيّ في ممرٍّ خالٍ، حيثُ جاءت مجموعة من الحَرَس مُتوجِّهين نحوها فجأة؛ فأدركت أن أمرها انكشف، فصاحت من فورها تقول إنها جاءت كي

تشتكيَ، ثمَّ أخرجت ورقة الشكوى من جيبها، وَرَفَعَتْهَا عالياً وهي تقول: "أنا مظلومة". لم تكد تنتهي من جُملتها حتَّى انقضَّ أفراد الشرطة عليها، وألقوها أرضاً، ثمَّ كمَّمُوا فمها، ولم تتمكَّن من الحراك.

لم يستغرق الأمر سوى بضع لحظات، حيثُ استمرَّ النُّوَّاب في القاعة الرَّئيسة في التَّدفُّق دون أن يلحظَ أحدٌ ما حَدَثَ، وبحلول الساعة التاسعة، تعالت أصوات التصفيق مُعلنةً وصول كبار المسؤولين، والبدء في اجتماع تقرير عمل الحكومة.

14

كانت أجندة عمل اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب في هذا اليوم هي: "تقرير عمل الحكومة" في الصباح، والنقاش بين مجموعات وفود النُّوَّاب بعد الظُّهْر. جرى تنظيم مكان عَقْد نقاش وفد المُقَاطَعَة التي تنتمي إليها لي شيوليان في غرفة الاجتماعات الأولى بقاعة الشعب الكُبْرَى. لم يكن ترتيب مكان نقاش المجموعات في تلك القاعة للاستمرار في الحديث حول تقرير عمل الحكومة الصَّباحيِّ حرصاً على عدم إرهاق النُّوَّاب - فهذا الترتيب نتيجته عكسية، لأن النُّوَّاب سيُضطرُّون للمغادرة إلى محلِّ إقامتهم لتناوُل الغداء وقت الظَّهيرة، والعودة ثانية إلى القاعة، حيثُ إن اجتماعات نقاش الوفود تجري عادةً في محلِّ إقامتهم - بل لأنه وَفْقاً لما تقرَّر مُسبَّقاً، فسوف يشارك أحد كبار المسؤولين في الدولة في مناقشات وفد نُوَّاب هذه المُقَاطَعَة. وبصفة عامَّة، فعندما يتقرَّر مشاركة أحد كبار مسؤولي الدولة في مناقشات أحد الوفود، يجري تغيير مكان المناقشة إلى قاعة الشعب الكُبْرَى بدلاً من مقرِّ إقامة النُّوَّاب، حتَّى يتسنَّى لكبار المسؤولين المشاركة في أكبر عدد من المناقشات خلال فترة ما بعد الظَّهيرة.

نتيجة اجتماعات نقاش الوفود تكون مُختلفة بالطبع حال مشاركة أحد كبار مسؤولي الدولة. فعندما يشارك أحد كبار المسؤولين في اجتماعات نقاش الوفود تُذاع الاجتماعات في نشرة الأخبار المسائية. وبما أن النتيجة تكون مُختلفة، فنظام الاجتماع يكون مُختلفاً. في العادة

عندما يشارك كبار المسؤولين في هذه الاجتماعات، يستمع المسؤولون أوّلاً إلى كلمات النُّوَّاب، ثمَّ يُلقون خطابات موجزة في نهاية الاجتماع. ومن أجل عَقْد الاجتماعات بأفضل صورة مُمكنة، يقوم وفد النُّوَّاب باستعدادات مستفيضة مُسبَّقاً، حيثُ يُوكِّلُون عشرة نُوَّاب من أعضاء الوفد لإلقاء كلمة، وتتنوَّع صفة هؤلاء النُّوَّاب بين العُمدَة والمُحافِظ ورجال الأعمال وأساتذة الجامعات وغيرهم، بحيثُ يُعبِّر المتحدِّثون عن فئات الشعب كافَّة. ويجري تعديل وتصحيح كلماتهم مرَّات ومرَّات، بحيثُ لا تتجاوز مدَّة الكلمة الواحدة العشر دقائق. تبدأ هذه الاجتماعات في الثانية عصراً، ويتعيَّن على النُّوَّاب الحضور في الواحدة والنصف، كما يتعيَّن أن يكون بينهم عدد من النُّوَّاب من الأقلِّيَّات العِرْقِيَّة الذين يُطلَب منهم ارتداء أزيائهم التَّقليديَّة. بعدما يدخل النُّوَّاب إلى القاعة، يتبادلون أطراف الحديث، وبحلول الواحدة وخمسين دقيقة، يسود الصمت في انتظار وصول المسؤول الكبير. ولكنْ، حلَّت الساعة الثانية دون أن يأتيَ المسؤول. في العادة لا يتأخَّر كبار المسؤولين عن مواعيدهم، ولكنْ، قد يتصادف أن يتأخَّر أحدهم بسبب ازدحام جدول أعماله. ظلَّ النُّوَّاب صامتين، ينتظرون وصول المسؤول الكبير. حلَّت الساعة الثانية والنصف، دون أن يحضر المسؤول، فأخذ الحضور يتهامسون، وَطَلَبَ حاكم المُقَاطَعَة السَّيِّد تشو تشينغ ليان من النُّوَّاب الصبر والانتظار. بحلول الثانية وخمس وأربعين دقيقة، فُتح الباب، ولكن القادم لم يكن هو المسؤول الكبير، بل كان سكرتيراً من العاملين في القاعة، تقدَّم وسار نحو الحاكم، وَهَمَسَ في أُذُنه ببضع كلمات، فَبَدَتْ على الحاكم علامات الدهشة، وبعدما غادر ذلك السكرتير تحدَّث الحاكم للنُّوَّاب قائلاً: "لن يحضر المسؤول الكبير، فَلْنَعقد اجتماعنا بأنفسنا".

ساد بعض الضجيج، ولكنَّ ما حَدَثَ قد حَدَثَ، وليس بإمكان أحد تغيير رأي المسؤول الكبير، وَجَدَ النُّوَّاب أنفسهم مضطرِّين لعَقْد الاجتماع دونه. عَقْدُ الاجتماع دون المسؤول الكبير يختلف عن عَقْده في حضوره،

فالجميع نُوَّاب عن المُقَاطعَة نفسها، ويعرفون بعضهم جيِّداً، عدَّل كلُّ واحد من هندامه وجلسته، وصاروا يتحدَّثون بعبارات رنَّانة جوفاء، فَبَدَا الاجتماع وكأنه ساحة للاستعراض. اقترح الحاكم تغيير طريقة سَيْر الاجتماع، وأن يُلقيَ النُّوَّاب الكلمات بحُرِّيَّة، كلٌّ حسب رغبته، فأبدى الجميع حماستهم، وَرَفَعَ بضعة عشر نائباً أيديهم راغبين في التَّحدُّث، وعلى الرَّغْمِ من إبداء الكثيرين رغبتهم في الحديث، فإن كلماتهم كانت متشابهة إلى حَدٍّ كبير، وكلُّها تؤيِّد تقرير عمل الحكومة، وتطرح بعض الطَّلَبَات، الخاصَّة بدوائرهم أو الهيئات التابعين لها، وكذا طَرْح بعض الاقتراحات والسياسات، وكلُّ نائب يسعى لأن يكون له حضور. ألقى ستَّة نُوَّاب كلماتهم، وحان وقت الاستراحة، وبينما كان الحاكم يُعلن عن حلول وقت الاستراحة، فُتح باب القاعة، وشَعَرَ الجميع بالدهشة حين شاهدوا أحد المسؤولين الكبار يدخل إلى القاعة، وكاميرات التلفاز خلفه تتعقَّبه. لم يكن هذا المسؤول هو نفسه المسؤول المحدَّد سَلَفاً للمشاركة في هذا الاجتماع، وهو ما أصاب النُّوَّاب بالدهشة. ولكنهم نهضوا يُصفِّقون له، والمسؤول يُلوِّح بيده، وهو يطلب منهم التَّوقُّف عن التصفيق، وقال: "شاركتُ لتوِّي في اجتماعات أحد الوفود، وجئتُ للمشاركة معكم بشكل مُؤقَّت".

دوَّى صوت التصفيق ثانية، فسار المسؤول نحو منصَّة الاجتماع، وَجَلَسَ بجوار الحاكم، والتقط منديلاً من إحدى المضيفات، ثمَّ خاطب الحاكم قائلاً: "هيَّا، استمرُّوا، أريد الاستماع لآراء النُّوَّاب". ثمَّ أشار بيده إلى النُّوَّاب، وقال: "فلنتَّفقْ من البداية، أنا هنا اليوم فقط لأستمعَ إليكم، ولن أُلقيَ كلمة"؛ فابتسم الحاكم، وابتسم الحضور. وما دام المسؤول الكبير حَضَرَ، فلن يكون هناك وقت راحة، واستمرَّ عقْد الاجتماع. تغيَّر نظام عَقْد الاجتماع نَظَراً لحضور المسؤول الكبير، حيثُ ألقى النُّوَّاب كلماتهم كما تحدَّد سَلَفاً، وكأن الاجتماع يُعقد من البداية. أخرج المسؤول أوراقاً من الحقيبة التي ناولها له سكرتيره، وَجَلَسَ يُدوِّن ملاحظاته حول خطابات

النُّوَّاب، النُّوَّاب، أيضاً، أخرجوا أوراقهم لتدوين ملاحظاتهم. وعلى الرَّغْمِ من أنهم كانوا جهَّزوا كلماتهم مُسبَّقاً، فإن الأمر كان مُختلفاً عن إلقاء الكلمات ارتجالاً بحُرِّيَّة، كما كان في البداية قبل قدوم المسؤول. بعضهم ألقوا خطاباتهم باقتضاب، ثمَّ تطرَّقوا للحديث عن إنجازاتهم في دوائرهم، أو الهيئات التابعين لها. أصغى المسؤول باهتمام، وأخذ يهزُّ رأسه، ويُدوِّن ملاحظاته. لم يقاطع الحاكمُ النُّوَّابَ عندما شاهد المسؤول الكبير مُنصتاً باهتمام. بعد انتهاء كلمات النُّوَّاب، تحدَّث الحاكم قائلاً: "والآن فَلْنَسْتَمِعْ إلى توجيهات السَّيِّد المسؤول". تقدَّم حاملو الكاميرات، وتعالت أصوات التصفيق، ابتسم المسؤول الكبير، ثمَّ قال: "أيُّها الحاكم، قلتُ مُسبَّقاً، أنا هنا للاستماع، لا لأُلقيَ كلمة". تعالت أصوات التصفيق بشكل أكثر حِدَّة؛ فابتسم المسؤول ثانية، وقال: "يبدو أن هناك إصراراً على إجباري على الحديث". ضحك الحضور ثانية، واعتدل المسؤول الكبير في جلسته مستعدَّاً للحديث، فكان الدَّوْر على النُّوَّاب لتدوين كلامه.

تحدَّث المسؤول الكبير أوَّلاً عن "تقرير العمل الحكومي"، حيثُ أبدى تأكيده على الإنجازات الواردة في التقرير، وأوجه القصور في العام الماضي، والخطط المستقبلية للعام المقبل. وقال بحزم إن علينا تعزيز إصلاح النظام الاقتصادي، والتَّقدُّمَ التَّدريجيَّ لإصلاح النظام السِّياسيِّ، وتحسينَ قيادة الحزب، وتعزيزَ الدِّيمقراطيَّة والنظامَ القانونيَّ، وتعزيزَ الوحدة بين طوائف الشعب، واستغلالَ جميع العوامل التي يمكن استغلالها، وتحقيقَ حصاد وفير على الجانبَيْنِ الحضاريَّيْنِ المادِّيِّ والرُّوحيِّ. بعدها، تطرَّق بالحديث خارج نطاق تقرير عمل الحكومة، كما فَعَلَ النُّوَّاب خلال كلماتهم. تحدَّث أوَّلاً عن الوَضْع الدَّوليِّ؛ بداية من أمريكا الشَّماليَّة وأوروبا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا. تحدَّث عن أفريقيا بشكل مُفصَّل، لأنه كان قد عاد لتوِّه من زيارة إليها. ثمَّ تحوَّل إلى الحديث عن آسيا. ومن الحديث عن الوَضْع الدَّوليِّ إلى الوَضْع المحليِّ، كما تحدَّث عن الوَضْع الحالي للاقتصاد الوطني.

وتحوَّل بالحديث من المُدُن إلى القرى، ومن الصناعة إلى الزراعة، وإلى التكنولوجيا الفائقة ... بَدَا كأنه كان يتحدَّث خارج الموضوع، ولكنه لم يكن كذلك بالفعل. كان الصمت يعمُّ القاعة خلال حديثه، حتَّى تكاد تسمع صوت جَرْي الأقلام على الورق، بل حتَّى لو وَقَعَتْ إبرة على الأرض، يمكن سماع صوتها. انتهى من الحديث عن هذه الأمور، ثمَّ استمرَّ يقول: "بالطبع، الوَضْع برُمَّته جيِّد بالنسبة إلينا. والآن سأتحدَّث عن أوجه القصور".

تحدَّث بصِدْق عن أوجه القصور في العمل، وصار النُّوَّاب يُدوِّنون كلامه وهم يشعرون بمدى صِدْق حديثه، وسَعْيه للبحث عن الحقائق، بعدها انتقل بالحديث من أوجه القصور في العمل إلى أسلوب ونَهْج عمل المسؤولين والكوادر، وإلى الفساد والمحسوبية وغيرها من أوجه الانحراف. أشار المسؤول الكبير إلى حاملي الكاميرات، كي يتوقَّفوا عن التصوير، ثمَّ استمرَّ يقول: "الفساد وسوء استغلال السلطة هما أكثر ما يصيبني بالصداع، وهما، أيضاً، أكثر ما يُثير حفيظة الشعب. الفساد يزداد يوماً بعد يوم، المياه تحمل القارب، وقد تُغرقه أيضاً، إن لم نستأصل هذا الوَرَمَ، فسينتهي أمرُ حزبنا وبلدنا عاجلاً أم آجلاً ". واستمرَّ في التأكيد بشكل صارم: "حزبنا هو الحزب الحاكم. وتطلُّعات حزبنا تتطلَّب منَّا دائماً أن نضع مصالح الجماهير في المقام الأوَّل. لكنْ، هل هذا هو ما يفعله بعضهم؟ الفساد والمحسوبية يعنيان وَضْع مصالحنا الخاصَّة فوق مصالح الحزب والجماهير. ما هو الغرض من كون الشخص مُوظَّفاً رَسْمِيَّاً؟ الغرض في نَظَرَ هؤلاء هو ألَّا يكون موظَّفاً عامَّاً لصالح الناس، بل أن يكون سيِّداً لهم، ويجني ثروات طائلة، ويتزوَّج بفتاة شابَّة جميلة، كلُّ قضايا الفساد التي جرى الكشف عنها مُثيرة للصدمة. أنصحكم بالعودة إلى المسار السليم، صَدَقَ الزعيم ماو حين قال: (إن عدداً لا يُحصى من الشهداء الثَّوريِّين، ضحُّوا بدمائهم وأرواحهم من أجل مصلحة

الشعب، أيّ مصالح شخصية أُخرى تلك التي لا يمكننا التَّخلِّي عنها؟) هل أنا مُحقٌّ أم لا، أيُّها الرفقاء؟"؛ فأجاب الجميع بصوت واحد: "نعم".

ارتشف المسؤول الكبير رَشْفَة من الشاي، ثمَّ استدار بوجهه تجاه الحاكم، وسأله: "أيُّها الحاكم، هل مُحَافَظَة xx تابعة لمقاطعتكم؟". لم يعرف الحاكم ما الذي يعنيه هذا المسؤول الكبير، فنَظَرَ نحوه مرتبكاً. تلك المُحَافَظَة بالفعل تابعة لمقاطعته، وهزَّ رأسه قائلاً: "نعم، نعم".

وَضَعَ المسؤول الكبير كأس الشاي من يده، واستمرَّ يقول: "هناك أمر غريب وَقَعَ صباح اليوم، جاءت امرأة إلى قاعة الشعب الكُبْرَى، كي تُقدِّم شكوى، أخبرَني السكرتير أنها جاءت من مُحَافَظَة تابعة لمقاطعتكم، هل لديكَ علْم بهذا الأمر، أيُّها الحاكم؟".

تصبَّب الحاكم من الخوف عَرَقاً، فهناك مَنْ جاء من مُحَافَظَة في مقاطعته إلى قاعة الشعب الكُبْرَى للشكوى، وفي وقت انعقاد المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، أليس هذا حادثاً سياسيّاً كبيراً؟ ولكنه بالفعل لم يكن يعلم شيئاً عن هذا الأمر، فهزَّ رأسه نافياً. تحدَّث المسؤول الكبير قائلاً: "لم أكن لأعرف أنا أيضاً، لولا أن الحَرَسَ مَنَعُوها، مُعتقدين أنها بصدد القيام بعمل إرهابي. حين سألها الحَرَسُ قالت إنه أمر يتعلَّق بطلاقها. هل يستدعي طلاق امرأة رِيفيَّة أن تأتيَ لتشتكيَ في قاعة الشعب الكُبْرَى؟ هذا أمر في غاية الغرابة. أمر صغير كهذا، كيف له أن يصير بهذا الحجم؟ هل بسبب أنها تبالغ وتُهوِّل من الأمور؟ بالطبع لا، هذا بسبب أن المسؤولين كافَّة على جميع الأصعدة لم يهتمُّوا لأمرها، وَوَضَعُوا أمامها العوائق والعراقيل، هم مَنْ أرغموها على ذلك، كما أرغمتُمُوني اليوم على الحديث، حبَّة سِمْسِم صارت ثمرة بِطِّيخ، نملة صغيرة صارت بحجم الفيل، طلاق امرأة من زوجها هو في الأصل مسألة خاصَّة بها مع زوجها، ولكنْ، هي الآن تريد شكوى سبعة أو ثمانية مسؤولين: عُمدَة

المدينة، والمُحافِظ، ورئيس الهيئة القَضَائيَّة، والقاضي، وغيرهم، أليست هي "شياو باي تساي(*)" العصر الحديث كما نقول؟ بل حتَّى إنها تريد أن تتقدَّم بشكوى ضدَّ نفسها، أنا حقَّاً مُعجب بجرأتها. سمعتُ أيضاً أنه أُلقي القبض عليها مُسبَّقاً، بسبب هذا الأمر، مَن الذي دَفَعَهَا إلى الإصرار على الاستمرار في شكواها إلى هذا الحَدِّ؟ إنهم، بلا شكٍّ، أبناء الحزب المُخلصون، الذين يشربون من دماء الشعب الكادح، ويركبون فوق أكتافه، ليُظهِرُوا سطوتهم، ويعيشوا في رَغَد".

امتقع وجه المسؤول الكبير عندما وَصَلَ بالحديث إلى تلك النقطة، ثمَّ خَبَطَ بيده على الطاولة. لم يجرؤ أحد من النُّوَّاب على رَفْع رأسه والنَّظَر إليه، بينما كان الحاكم جالساً بجواره يتصبَّب عَرَقَاً. استمرَّ المسؤول الكبير في التقريع قائلاً: "ليس هذا فقط هو الظُّلم الذي وَقَعَ على تلك المرأة، لقد جاءت إلى قاعة الشعب الكُبْرَى تتظلَّم من اتِّهامها بخيانة زوجها، فالكثير من أبناء بلدتها صاروا يصمونها بالعار، ويتَّهمونها زوراً حتَّى يمنعوها من الاستمرار في شكواها. عانت تلك المرأة كثيراً، هل ستستطيع العيش بعد اليوم في ظلِّ وصمها بالعار؟ إن لم تأتِ لتشتكيَ هنا في قاعة الشعب الكُبْرَى، فأين ستذهب؟ تذهب إلى الأمم المتَّحدة؟ مَن الذي دَفَعَهَا لتأتيَ إلى هنا؟ ليسوا أبناء الحزب المخلصين، بل أولئك الذين يشربون من دماء الشعب الكادح، ويركبون فوق أكتافه، ليُظهروا سطوتهم، ويعيشوا في رغد". ثمَّ التفت بوجهه، ونَظَرَ إلى الحاكم وقال: "أيُّها الحاكم، هل علينا أن نترك أمثال هؤلاء يعبثون هكذا؟". امتقع وجه الحاكم هو الآخر، وأخذ يهزُّ رأسه بسرعة كالدجاجة التي تلقط الحَبَّ وهو يقول: "لا، لا، ليس علينا أن نتركَهُم".

---

*) تعني الترجمة المباشرة للكلمة: "نبات الملفوف الصِّينيّ الصغير"، ولكنْ، يشار بالكلمة في الثقافة الصِّينيَّة إلى الشخص الذي وَقَعَ عليه ظُلم كبير، وتعرَّض للكثير من القَهْر، وهي مأخوذة من مَلْحَمَة غنائية شعبية في شَمَال الصِّيْن عن ريفيَّة صِينيَّة صغيرة، فَقَدَتْ أبوَيْها، وتعرَّضتْ للتعذيب والقَهْر من الناس بدون أن يكون لها مَنْ يدافع عنها أو ينصرها.

تنهَّد المسؤول الكبير، ثمَّ أردف: "من حسن حظِّها أن سكرتيري كان هناك، فعندما اعتقلها الحَرَس ظنّاً منهم أنها تنوي القيام بعمل إرهابي، مرَّ السكرتير بالجوار، فسألهم عن السبب، وَطَلَبَ منهم إطلاق سراحها، سمعتُ، أيضاً، أن لديها رضيعة، عُمُرها ثلاثة شهور. لقد تصرَّف سكرتيري تصرُّفاً صائباً، هذا ليس موقفاً تجاه امرأة رِيفيَّة عادية، بل هو موقف عامٌّ تجاه جمهور الشعب، ألسنا نحن الآن بصدد عَقْد اجتماع مجلس نُوَّاب الشعب؟ عمَّنْ ننوب إذنْ؟ ومَنْ هم الإرهابيُّون في نَظَرنا؟ ليست تلك المرأة الرِّيفيَّة، بل هؤلاء المسؤولون الفاسدون الذين يُنصِّبون أنفسهم أسياداً، ولا يعملون من أجل الشعب".

تصاعدت وتيرة غضبه مع استمراره في الحديث، ولكنْ، لحسن الحظِّ، فُتح الباب، وَدَخَلَ أحد العاملين، وتقدَّم نحو المسؤول الكبير، وَهَمَسَ في أُذُنه ببعض العبارات. هزَّ المسؤول رأسه، وَبَدَا هادئاً بعض الشيء، ثمَّ خاطب النُّوَّاب قائلاً: "أعرف أن كلماتي حادَّة، ربمَّا جانَبَني الصواب، أرجو أن يكونَ كلامي مرجعاً لكم، ليس إلَّا". ثمَّ نَهَضَ مبتسماً، وقال: "لديَّ موعد مع ضيوف أجانب، هذا كلُّ ما أريد قوله لكم اليوم". ثمَّ لوَّح بيده للحضور مغادِراً.

ظلَّ الحاكم جالساً مكانه مشدوهاً، وظلَّ الحضور يتلفَّتون إلى بعضهم بعضاً. فقد تذكَّروا أنهم لم يُصفِّقوا للمسؤول بعدما انتهى من خطابه، كما تذكَّر الحاكم أنه لم يُعقِّب على كلام المسؤول الكبير قبل مغادرته.

في تلك الليلة، ظلَّ الحاكم مُستيقِظاً طيلة الليل. وبحلول الرابعة والنصف فجراً، استدعى أمين عامّ الحكومة بالمُقَاطَعَة إلى غرفته. عندما دَخَلَ الأمين العامُّ إلى الغرفة، كان الحاكم يتمشَّى على السَّجَّادة ذهاباً وإياباً. يعلم الأمين العامُّ أن هذه عادة الحاكم عندما يواجه مشكلة كبيرة، تماماً كعادة الجنرال الشهير لين بياو. في العادة لا يميل الحاكم للكلام

الكثير، والشخص قليل الكلام هو شخص كثير التفكير، عادةً ما يمشي في غرفته ذهاباً وإياباً لوقت طويل، عندما يكون بصَدَد كتابة مُستند أو مواجهة قرارات مُهمَّة، وأحياناً يتفوَّه ببعض العبارات القليلة وهو يتمشَّى. مَنْ لا يعرفونه جيِّداً، يصعب عليهم معرفة ما يفكِّر فيه، وأيُّ كلام قد يتفوَّه به. هو لا يقدِّم تفسيراً لما يقوله، كلُّ شيء يتوقَّف على فَهْم مَنْ يستمع إليه. خطابه في المؤتمر كان مفهوماً لدى الجميع، ولكنَّ حديثه مع الشخص مُنفرداً بجُمل متقطِّعة على فترات وهو يتمشَّى يجعل من الصعب على الكثيرين فَهْمه. سكرتيره الخاصُّ الذي هو الأمين العامُّ للحكومة عمل معه لأكثر من عشر سنوات، ولديه القدرة على مواكبة إيقاع فِكْره. في السابق كان الحاكم يسير هكذا لبضع ساعات في مثل هذه المواقف، ولكنْ، في ذلك اليوم، ظلَّ يتمشَّى طيلة الليل حتَّى الفجر، وهذا أمر لم يعهده الأمين العامُّ من قبل. علم الأمين العامُّ أن الأمر جدُّ خطير هذه المرَّة. لم يتحدَّث إليه الحاكم، بل استمرَّ يتمشَّى في غرفته لبضع عشرة دقيقة، ثمَّ توقَّف أمام النافذة، ونَظَرَ إلى بالخارج، حيثُ الليل المُظلم، وقال: "ما حَدَثَ عصر الأمس ليس بالأمر الهَيِّن".

فَهِمَ الأمين العامُّ أن الحاكم يتحدَّث عن اجتماع مناقشة النُّوَّاب عصر الأمس.

ظلَّ الحاكم يتمشَّى، ثمَّ نَظَرَ إليه وقال: "كان مُستعدَّاً استعداداً مُسبَّقاً لِمَا سيقوله".

فَهِمَ الأخير، أيضاً، أنه يتحدَّث عن المثال الذي ذَكَرَهُ المسؤول الكبير بالأمس بخصوص المرأة الرِّيفيَّة التي جاءت تشتكي في قاعة الشعب الكُبْرَى.

توقَّف الحاكم، ثمَّ قال: "جاء يفتِّش عن العيوب".

تصبَّب الأمين عَرَقاً، فقد فَهِمَ تماماً ما يعنيه الحاكم، فالمسؤول تحدَّث في خطابه عن تلك المرأة بشكل يبدو عفويّاً، لكنه ليس كذلك، كما أن هذا المسؤول الكبير لم يكن مُقرَّراً له سَلَفاً أن يأتيَ للمُشاركة في هذا الاجتماع، ومُشاركته تبدو مُفاجَأة، ولكنها ليست كذلك أيضاً. كما تذكَّر السكرتير أيضاً أن الحاكم كان على وشك الترقية، وسمع قبلها أن كبار المسؤولين لديهم وجهات نَظَرَ مُختلفة بشأن هذه الترقية، لذلك ظلَّ الأمين العامُّ مكانه فاغراً فمه دون أن يتحدَّث.

عاد الحاكم ليتمشَّى ثانية، ثمَّ توقَّف أمام النافذة، كان نور الصباح في بكين قد حلَّ، ثمَّ تحدَّث قائلاً: "أقترح على اللجنة الحزبية بالمُقَاطَعَة أن تعزلَهم جميعاً من مناصبهم".

ازداد تصبُّب الأمين العام عَرَقاً، وفَهِمَ كلَّ ما قاله الحاكم تماماً، هو يريد إقصاء كلِّ مَنْ كانت له علاقة بقضية تلك المرأة الرِّيفيَّة من موقعه، كلُّ هؤلاء الذين كانوا سبباً في إجبار تلك السَّيِّدة على أن تأتيَ لتشتكيَ في قاعة الشعب الكُبْرَى، هؤلاء الذين ضَرَبَ المسؤول بهم مثالاً في اجتماع الأمس، هؤلاء الذين جَعَلُوا حبَّة السِّمْسِم تصبح ثمرة بِطِّيخ، وَجَعَلُوا النملة تصير فيلاً، أي العُمدَة، والمُحافِظ، والقُضَاة، وغيرهم.

تلعثم السكرتير، وقال: "أيُّها الحاكم، هل من المعقول عَزْل كلِّ هؤلاء الكوادر، بسبب هذه الفلَّاحة؟".

أخذ الحاكم ينظر من النافذة وهو يقول: "تحرَّيتُ عن الأمر، فعلى الرَّغْم من وجود بعض الاختلافات عمَّا قاله المسؤول الكبير، فإن الأمر حقيقيٌّ بالفعل". ثمَّ سار وَوَقَفَ أمام الأمين العامِّ والشَّرَر يتطاير من عَيْنَيْه وهو

يقول: "لقد جَعَلُوا الأمور تسوء إلى هذا الحَدِّ، أليسوا بذلك يُسيئون إلى المُقَاطَعَة بأكملها؟". ثمَّ صَرَّ على أسنانه قائلاً: "صَدَقَ المسؤول الكبير، هؤلاء ليسوا أبناء الحزب، إنهم مَنْ يشربون من دماء الشعب الكادح، ويركبون فوق أكتافه، ليُظهِروا سطوتهم، ويعيشوا في رَغَد، يجب عقابهم، فَهُم مَنْ يجب وَصْمهم بالخيانة، وليست تلك المرأة الرِّيفيَّة".

15

بعد سبعة أيَّام، أصدرت حكومة المُقَاطَعَة البيان التالي:

إقالة العُمدَة تساي فوبانغ من منصبه، وعلى اللجنة الدائمة للمجلس الشَّعبيِّ بالمدينة تنفيذ الإقالة في اجتماعها القادم.

إقالة المُحافِظ شي ويمين من منصبه، وعلى اللجنة الدائمة للمجلس الشَّعبيِّ بالمُحَافَظَة تنفيذ الإقالة في اجتماعها القادم.

إقالة رئيس الهيئة القَضَائيَّة شوين تشنغيي من منصبه، وعلى اللجنة الدائمة للمجلس الشَّعبيِّ بالمُحَافَظَة تنفيذ الإقالة في اجتماعها القادم.

إقالة عضو اللجنة القَضَائيَّة دونغ شيانفا من منصبه، وعلى اللجنة الدائمة للمجلس الشَّعبيِّ بالمُحَافَظَة تنفيذ الإقالة في اجتماعها القادم.

يُوصَى بتوقيع عقوبة إدارية مُغلَّظة على القاضي وانغ قونغ داو.

ظلَّ العُمدَة تساي فوبانغ في حَيْرة من أمره بعد صدور البيان، فلم يكن يدري ما السبب في كلِّ ما حَدَثَ. استفهم عن الأمر، فعلم أنه حينما كان مُنشغلاً في بناء "المدينة الحضارية"، أصدر تعليمات بشأن التعامل مع المرأة الرِّيفيَّة التي كانت تعتصم بالباب، ولكن الأمور تطوَّرت، فاعتقلوها. هناك تطوُّرات كبيرة للأحداث وَقَعَتْ بدايةً من شكوى تلك المرأة وصولاً إلى إقالته من منصبه. ولكنْ، عليه أن يتفهَّم أن هناك لغزاً ما، وسَبَقَ السيفُ

العَدَل، والتفكير في الأمر لن يفيد. فَمَنْ هذا الذي يمكنه تغيير قرار صادر من حكومة المُقَاطَعَة؟

تنهَّد قائلاً: "ما معنى تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن؟ هذه هي الرياح. يقولون إنها شياو باي تساي المظلومة، بل أنا في الحقيقة شياو باي تساي المظلوم".

صاح المُحافِظ ورئيس الهيئة القَضَائيَّة من تعرُّضهما للظُّلم، حيثُ وَضَعَ المُحافِظ يده على بطنه الذي يؤلمه دائماً وهو يقول: "أهكذا جاء البيان؟ بلا أيِّ سبب للإقالة؟ سأذهب للشكوى غداً أنا أيضاً".

أمَّا رئيس الهيئة القَضَائيَّة، فقال باكياً: "لو كنتُ أعرف أن هذا سيحدث، ما كنتُ سأشرب تلك الليلة". يقصد تلك الليلة التي قابل فيها لي شيوليان وهو نصف ثَمِل، فَنَعَتَهَا بأنها امرأة سليطة، وأشاح لها لتغربَ عن وجهه. لو لم يكن ثَمِلاً، لَغَيَّرَ من طريقة تعامله معها، فهو عادةً لم يكن يشرب في أوقات العمل.

أمَّا عقوبة القاضي، فكانت الأخفَّ، لأنه لم يكن في منصب كبير يُقالُ منه، ولكنه قال غاضباً: "ألستُم تطالبُوننا بتطبيق القانون؟ طبَّقناهُ، لماذا لا تُطبِّقونه أنتُم؟".

الوحيد الذي لم يشتكِ ولم يتذمَّر هو عضو اللجنة القَضَائيَّة، فبعدما علم بالبيان، استدار بجَسَدِه، وقال مغادِراً مكتبه: "حسناً فعلوا، أنا لم أكن أُحبُّ هذا العمل، سأذهب إلى السوق لأبيعَ المواشي".

16

عادت لي شيوليان من بكين، فَذَهَبَتْ أوَّلاً إلى منزل زميلتها، لتُعيدَ طفلتها، ثمَّ إلى المعبد، لتشكرَ بوذا، فاشترت تذكرة، وَدَخَلَتْ، ثمَّ أشعلت البخور، وَجَثَتْ على ركبَتَيْها أمام تمثال بوذا قائلة: "بوذا الرحيم، يا لكَ من عادل رحيم، عقابكَ أغلظ من عقابي، أقصيتَ كلَّ هؤلاء الفاسدين من مناصبهم، هذا أفضلُ من قَتْلِهم، شفيتَ غليلي".

أنهت هذه الصلاة، ثمَّ قامت وأشعلت عود البخور الثاني، وسَجَدَتْ على الأرض وهي تقول: "يا بوذا العظيم، لا يمكنكَ التعامل مع الكبار فقط دون الصغار. عاقبتَ كلَّ هؤلاء المسؤولين الفاسدين، ولكنكَ لم تُعاقِبْ ابن اللعينة تشين يوخه، فهو ما زال حُرّاً يمرح، لم تُبرِّئني بعدُ من تهمة الخيانة، ووَصْفه لي بأني بان جين ليان".

مُلحق:

بسبب شكوى امرأة، أقالَتْ مُقَاطعَة العديد من المسؤولين في المدينة والمُحَافَظَة والمحكمة التابعة لها، وجرى إدراج إعلان الإقالة في صحيفة المُقَاطعَة. وفي صباح نفس اليوم، طالع المسؤول الذي حَضَرَ اجتماع وفد مؤتمر النُّوَّاب التابع لتلك المُقَاطعَة هذا الخبر، فاستدعى سكرتيره، وأشار بيده إلى الخبر الوارد في الصحيفة، وسأله: "ما هذا؟".

أجابه السكرتير الذي طالع الخبر هو الآخر: "ربمَّا كان ذلك بسبب انتقادكَ لتلك الحادثة خلال مشاركتكَ في اجتماع وفد نُوَّاب تلك المُقَاطعَة".

ألقى المسؤول بالصحيفة على الطاولة، وقال: "هذا هُرَاء، انتقدتُ تلك الظاهرة فقط. إقالتُهم لكلِّ هذا العدد من الكوادر مرَّة واحدة تصرُّف مُبالَغٌ فيه مبالغة كبيرة للغاية".

السكرتير: "هل عليَّ الاتِّصال بهم، وَطَلَبُ التعديل؟".

فكَّر المسؤول الكبير، ثمَّ أشاح بيده قائلاً: "هذا تصرُّف مبالغ فيه أيضاً".

ثمَّ تنهَّد قائلاً: "اتِّخاذ التدابير التَّنظيميَّة هو أسهل شيء في العالم. لماذا نُحبُّ دائماً سلك الطريق الأسهل؟ لماذا لا نفكِّر بعمق في أهمِّيَّة

هذا الأمر؟ لماذا نكيل بمكيالَيْن، ولا ننظر إلى الأمور بالعين نفسها، لو كنتُ أعرف أن الأمور ستسير هكذا، لم أكن لأذهبَ للمشاركة في هذا الاجتماع، أنتَ تعرف أنه كان لديَّ موعد مع ضيوف أجانب في الرابعة عصر ذلك اليوم، وأُصيب أحد الضيوف الأجانب في الطريق بوعكة، وَذَهَبَ للمستشفى، فتأجَّل الموعد قليلاً، كان لديَّ بعض الوقت، فَذَهَبْتُ إليهم، لأتحدَّث عن قضية تلك المرأة الرِّيفيَّة، بوَصْفها مثالاً لتعرُّض الناس لفساد المسؤولين ليس أكثر".

قال هذه الكلمات، وأخذ يتجوَّل في مكتبه ذهاباً وإياباً، ثمَّ توقَّف وقال: "هذا الحاكم تشو تشينغ ليان قاس للغاية". ثمَّ توقَّف عن الكلام، وَجَلَسَ على مكتبه، وأخذ يُراجِع بعض الأوراق.

حاكم المُقَاطَعَة كان على وشك أن يترقَّى للعمل كسكرتير عامٍّ للحزب في مُقَاطَعَة أُخرى، ولكنْ، بعد شهر واحد، عُيِّن شخص آخر بدلاً منه في هذا المنصب. ولا يزال تشو تشينغ ليان يشغل منصب الحاكم للمُقَاطَعَة نفسها دون أن يحصل على ترقية. بعدها بثلاث سنوات، انتقل للعمل كرئيس للمجلس الاستشاري السِّياسيِّ لنُوَّاب الشعب في المُقَاطَعَة، وبعد خمس سنوات أُحيل للتقاعد.

الفصل الثاني
تمهيد / بعد عشرين عاماً

1

طَرَقَ وانغ قونغ داو باب لي شيوليان لمدَّة خمس عشرة دقيقة، دون أن يجيبَهُ أحد. صاح وهو يطرق: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، أنا وانغ قونغ داو".

لم يجبْهُ أحد، فاستمرَّ يصيح: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، افتحي الباب، لقد رأيتُ ضوء المصباح بالداخل".

لم يسمعْ صوتاً، فاستمرَّ يقول: "حلَّ الظلام، ولم أتناولْ طعامي بعد، أحضرتُ لكِ فخذ خروف، دعينا نطهوه بسرعة".

لكنه لم يتلقَّ إجابة أيضاً.

وفي صبيحة اليوم التالي، فَتَحَتْ لي شيوليان باب بيتها، فشاهدتْهُ واقفاً أمام الباب وبجواره بعض العاملين في محكمة البلدة، فقالت في دهشة: "هل وَقَفْتُم هكذا طيلة الليل؟".

هزَّ وانغ قوانغ داو رأسه بأسى قائلاً: "بالطبع، ألَا تشاهدين قطرات الندى التي تُبلِّل شعري؟".

نَظَرَتْ إلى شَعْره، فلم تجد قطرات ندى، وضحك قائلاً: "أنا لستُ أحمقاً إلى هذا الحَدِّ، طرقْتُ الباب الليلة الماضية، وتعمَّدتِ ألَّا تجيبي، فاضطررتُ للعودة، واستيقظتُ مُبكِّراً، كي أضمن وجودكِ".

وَجَدَتْ لي شيوليان نفسها مضطرَّة لأن تستضيفَهم. قبل عشرين عاماً كان وانغ قونغ داو فتى شابّاً، وها هو الآن صار رجلاً في منتصف العُمُر،

قبل عشرين عاماً، كان ذا حاجبَيْن خفيفَيْن، والآن صار بلا شَعْر في حاجبيه تماماً، أمرد اللحية، وجهه ممتلئ بالبثور، قبل عشرين عاماً، كان شاباً أبيض اللون، وهو الآن رجل ذو بشرة خشنة داكنة. التغيير لم يقتصر على وانغ قونغ داو وحده، فقبل عشرين عاماً، كانت لي شيوليان في التاسعة والعشرين، وهي الآن في التاسعة والأربعين، قبل عشرين عاماً كان شَعْرها أسود، والآن غزا الشَّيْب نصف رأسها، قبل عشرين عاماً، كانت جميلة الملامح، لها صدر مُكتنز، وخصر نحيل، والآن عَلَت التجاعيد وجهها، وصار خصرها عريضاً.

جَلَسَ برفقتها داخل البيت، وتحدَّث إليها قائلاً: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، جئتُ اليوم فقط لأطمئنَّ على أحوالكِ، ليس لديَّ غرض آخر".

وَضَعَ مُرافقوه فخذ الخروف على الطاولة، فخاطبتْهم قائلة: "لو كانت زيارتكم لهذا السبب، فأنا بخير، يمكنكم المغادرة الآن، وخذوا معكم فخذ الخروف، أنا الآن أعتنق البوذية، ولا أتناول اللحوم".

قالت هذا العبارة، ثمَّ نَهَضَتْ وأمسكت بمَكْنَسَتِهَا، لِتَكْنُسَ الأرض. نَهَضَ وانغ قونغ داو من مجلسه، والتقط المِكْنَسَة، لِيَكْنُسَ بدلاً منها، وأخذ يَكْنُسُ الأرض ويقول: "حتَّى لو كان كلُّ شيء على ما يرام، فنحن أقارب، ألَّا يتعيَّن عليَّ أن آتيَ لزيارتكِ؟".

قالت: "لا تُنادِني بأُختكَ الكُبْرَى، أنتَ رئيس محكمة الآن، لا أُحبُّ سماعكَ تناديني بهذا اللقب".

ظلَّ يَكْنُسُ الأرض وهو يقول: "حسناً، أريد أن أسألكِ، هل تعرفين أن ما داليان الذي تُوفِّي العام الماضي هو خالي؟".

قالت: "لا يخصُّني، يمكن أن تسأل والدتكَ هل هو خالكَ أم لا".

أضاف: "أُخت زوجة ما داليان الصُّغْرَى تزوَّجت من عائلة هو في قرية هو جياوان، كما أن ابنة خالتكَ قد تزوَّجتْ من ابن أخ عمِّ حماتها، ولهذا فقرابتنا ليست بعيدة".

قالت: "أيُّها القاضي، لو لم يكن لديكَ طَلَب معيَّن، فلا تُرهِق نفسكَ بالحديث، أريد أن أذهب لزيارة ابنتي، وُلِدَتْ بَقَرَتُهَا بالأمس".

وَضَعَ المِكْنَسَة من يده وَجَلَسَ قائلاً: "بما أننا أقارب، فسأتحدَّث مباشرة، أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب ستُعقَد بعد عشرة أيَّام، هل تنوين الذهاب للشكوى كعادتكِ؟".

قالت: "أعرف أنكَ جئتَ لهذا السبب، سأُخبركَ، لن أذهب للشكوى هذا العام".

قال ساخراً: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، لقد تحدَّثتُ معكِ بشكل مباشر، وها أنتِ تُراوغِينني، منذُ عشرين عاماً وأنتِ تذهبين للشكوى كلّ مرَّة وقت اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، مَن الذي يُصدِّق أنكِ لن تذهبي هذا العام؟".

قالت: "هذا العام مُختلف عمَّا قبله".

سألها: "كيف ذلك؟ أخبريني ما الاختلاف؟"

قالت: "في السابق كانت لديَّ عزيمة، والآن لم أعد أملكها".

قال: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، كلامكِ غير مُقنع، أعرف أنكِ عانيتِ من الظلم طيلة العشرين عاماً الماضية، ولكن الأمر لم يعد يتعلَّق بكِ وحدكِ الآن، في البداية كان الأمر صغيراً بحجم حبَّة السِّمْسِم، ولكنه الآن صار كبيراً بحجم ثمرة البِطِّيخ، في البداية كان نملة صغيرة، وفي النهاية أصبح فيلاً ضخماً. بسبب موضوع يتعلَّق بالطلاق، أُقيل العُمدَة والمُحافِظ وعضو

اللجنة القَضَائيَّة، ورئيس الهيئة القَضَائيَّة، هذا أمر لم يحدث في تاريخ الصِّيْن منذُ عصر أسرة تشينغ(*) المَلَكِيَّة. ولكنْ، قولي الحقَّ، بِغَضِّ النَّظَر عن كون طلاقك حقيقيّاً أم زائفاً، هل زواجك من تشين يوخه ثانية، ثمَّ طلاقك منه مرَّة أُخرى هو أمرٌ يقرِّره المُحافِظ أو العُمدَة؟ هل عدم تمكُّنك من الزواج ثانية، ثمَّ الطلاق مرَّة أُخرى هي مشكلة، تَسبَّب فيها المُحافِظ والعُمدَة؟ تقولين إنكِ مظلومة، ولكن الجميع، أيضاً، مظلومون بسببك. الشخص المسؤول عن قضيَّتك ليس العُمدَة أو المُحافِظ، بل هو زوجك السابق تشين يوخه. لو كان هذا اللعين يعيش في عصر أسرة تشينغ لَقَتَلْتُهُ بنفسي، ولكن القانون الآن تغيَّر. كم هو بغيض هذا الشخص! موضوع الطلاق والزواج كان مُعقَّداً بما يكفي، ولكنه لم يكتفِ بذلك، بل زاد الطين بَلَّة، واتَّهمك بأنكِ خائنة لزوجك مثل بان جين ليان، وسدَّ كلَّ الطُّرُق في وجهك. طيلة هذه العشرين عاماً من الشكوى، فإن كلَّ الجهات الحكومية تتفهَّم موقفك، والكثيرون من مسؤولي الحكومة والقضاء حاولوا نُصْح تشين يوخه كثيراً، لكن رأسه صَلْب كالحَجَر، وظلَّ مُصرّاً على عناده طيلة عشرين عاماً. عناده هذا هو السبب الأساسي في المشكلة، أليس هذا صحيحاً؟ نحن أصحاب موقف واحد، أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، هَلَّا تشاورنا معاً ألَّا تذهبي للشكوى هذا العام، ونحن نتعهَّد بالاستمرار في الضغط على تشين يوخه؟ الوقت لا يرحم، ابنكِ منه صار الآن في الثلاثين تقريباً، وقد تزوَّج وأنجب، وحفيدك التحق بالمدرسة، أمَّا تشين يوخه، فلا يزال صامداً جامداً مُتمسِّكاً بعناده. لقد فكَّرتُ لكِ في خطَّة، سنستمرُّ في الضغط على تشين يوخه هذا العام، ولكنْ، لن نفعل ذلك مباشرة، بل سنفعل ذلك من خلال ابنكما، أو من خلال زوجة ابنكما، سوف نجعلهما يضغطان عليه، فالدم لن يصير ماءً مهما حَدَثَ، حفيدكما أيضاً التحق بالمدرسة، ويعي ما يحدث حوله، لنترك الحفيد ينصح جَدَّه، فلربمَّا حرَّكت

*) آخر الأسر الإقطاعية الصِّينيَّة الحاكمة، وتُعرَف، أيضاً، باسم: إمبراطورية تشينغ العظيمة. حَكَمَتِ الصِّيْن منذُ عام 1644 حتَّى عام 1912.

كلمات الحفيد مشاعره. ابنتكما أيضاً صارت يافعة الآن، ويمكنها أن تنصح والدها، سواء كان ذلك لمصلحتها أم لمصلحتكِ، فصراع الوالدَيْن على الطلاق والزواج هو أمر ليس في صالح الأبناء. سوف نضغط عليه جميعاً من الجوانب كافَّة، ولو حَدَثَ أن استمع إلى أيٍّ منَّا، وطلَّق زوجته الحالية، وتزوَّج منكِ ثانية، فسيُنهي أمر كونكِ بان جين ليان".

قاطعت نصيحته الطويلة قائلة: "ليس لكم شأن بأمر تشين يوخه، فحتَّى لو نَجَحْتُم في إقناعه، لن أتزوَّج منه ثانية".

ردَّ قائلاً: "وهل عدم زواجكِ منه ثانية يُثبت أن طلاقكما كان زائفاً، وأنكِ لستِ بان جين ليان؟!".

قالت: "في الماضي أردتُ إثبات ذلك، أمَّا الآن، فلا".

قال: "لقد سعيتِ لإثبات ذلك طيلة عشرين عاماً، لماذا ستتوقَّفين فجأة هذا العام؟ مَنْ يُصدِّق هذا؟".

قالت: "أخبرتُكَ أنني غيَّرتُ رأيي".

قال: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، لماذا أنتِ عنيدة هكذا؟ لو كان هذا جوابكِ، فهذا يعني أنكِ ستذهبين للشكوى ثانية. لا عليكِ من الآخرين، انظري إلى حالي، لقد عملتُ بجدٍّ طيلة عشرين عاماً، وقد ارتكبتُ خطأً بسببكِ، وجرى عقابي، ولكني لاحقاً نَجَحْتُ أن أصبح رئيس محكمة، وهذا ليس بالأمر اليسير، لو تنازلتِ عن شكواك، يمكنني الاستمرار في منصبي هذا، ولكنْ، لو تماديتِ في شكواك، فسوف يكون حالي كحال السَّيِّد شوين تشينغيي قبل عشرين عاماً، مصيري مُعلَّق بيدكِ الآن".

قالت: "لو كان مجيئكَ خوفاً على مُستقبلكَ، يمكنكَ أن تطمئنَّ، قلتُ لكَ إنني لن أذهب للشكوى هذا العام".

كاد وانغ قونغ داو أن يبكي وهو يقول: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، لماذا تُصرِّين على خداعي؟ نحن أقارب، لماذا لا تصارحيني بالحقيقة؟".

بَدَتْ غاضبة وهي تقول: "مَنْ هذا الذي يخدعكَ؟ أنا أُخبركَ الحقيقة، ولكنكَ لا تُصدِّقني". ثمَّ قامت والتقطت حقيبتها وهي تقول: "أنتَ لا تُصدِّقني، على أيِّ حال، ولن أخوض معكَ في جدال لا فائدة منه، عليَّ أن أذهب لزيارة ابنتي، يمكنُكُم المكوث هنا، إن أردتُم، فقط أغلِقُوا الباب عندما تغادرون".

قالت عبارتها هذه وهي تغادر، فتبعها وهو يقول: "لمَ العَجَلَة، إذنْ؟ حتَّى لو كنتِ ذاهبة لزيارة ابنتكِ، يمكنكِ أن تنتظري قليلاً، وسأطلب من سيَّارة المحكمة أن تنقلكِ إلى هناك".

2

تولّى المُحافِظ الجديد تشنغ تشونغ(*) منصبه قبل ثلاثة أشهر فقط. ومن بين كلِّ مسؤولي المُحَافَظَة، هو الوحيد الذي لا يهتمُّ لمدى الخطورة التي تتسبَّب فيها لي شيوليان. هو لا يهتمُّ بذلك، ليس لأنه لا يعرف أنها تسبَّبت في مشكلات كبيرة في السابق، ولا لأنها تسبَّبت في إقالة العُمدَة والمُحافِظ وغيرهم، بل على العكس، فلأنه يعرف كلَّ هذا، فقد كان يشعر أن بقية المسؤولين يُبالغون في خوفهم ووساوسهم بشأنها، فهم كالملدوغ من الأفعى الذي يخاف الحبلَ. كيف لمسؤولي المُحَافَظَة بكلِّ درجاتهم أن يخافوا من رِيفيَّة أو يجعلوا مصائرهم مُعلَّقة بيدها؟ وما داموا يُعلِّقون مصائرهم بيدها، فلن يجدوا مخرجاً، ولن يهنأ لهم بال. الوئام والتناغم مطلوبان، ولكنْ، هذه ليست طريقة وئام ولا تناغم. تماماً كالتعامل مع الإرهابيِّيْن، ليس عليكَ أن تتهاون معهم أو تُهادنَهم، ولو حَدَثَ، فسيُمْلُون عليكَ شروطهم، ولن تضع حَدَّاً لهم، فالتفاوض ليس كلَّ شيء. كان يشعر أن كلَّ المسؤولين من الكبير إلى الصغير ضعفاء ومُتهاونون، وأن عليهم أن يكونوا صارمين حين يتطلَّب الأمر، وما دام الوَضْع يحتمل الانفجار، فلنتركْهُ ينفجر، ما دام الإرهابي يريد أن يُطلِق النار، فَلْيُطلِق النار. بالطبع انفجر الأمر مُسبَّقاً قبل عشرين عاماً، وتسبَّب في إقالة العُمدَة والمُحافِظ وغيرهم، ولكنْ، لأنه انفجر بهذا الشكل قبل عشرين عاماً، فلا داعي للخوف الآن، هذا المكان أُقِيْلَ فيه العديد من المسؤولين من قبلُ، ولن يحدث ذلك هنا ثانية. أو كما يقال: "أكثر الأماكن خطورة في العالم، هو أيضاً أكثرها أماناً".

*) معنى اسمه في الصِّينيَّة: "الكبير الغليظ" أو "المكرّر".

بالإضافة إلى أن هذا المُحافِظ حَلَّ من قبلُ قضية احتجاج في مُحَافَظَة أُخرى، ولديه خبرة سابقة في التعامل مع هذه الأمور. تلك القضية التي كانت أكبر بكثير من قضية لي شيوليان، حيثُ كانت حكومة المُحَافَظَة بصدد إنشاء منطقة صناعية، ستشغل مساحة، تزيد عن مائتَي فدَّان من إحدى القرى، ولم تستطع الحكومة التَّوصُّل إلى اتِّفاق مع القرويِّين، بشأن التعويضات المالية عن الأراضي، وتجمَّع ما يزيد على ألف قروي، واعتصموا أمام مقرِّ حكومة المُحَافَظَة. أجرى لاوشيونغ المُحافِظ في ذلك الوقت عشر جولات من التفاوض معهم دون أيِّ نتيجة. وزاد عدد المُعتصمين، فاستأذن المُحافِظ عُمدَة المدينة ما ونبين لاستخدام القوَّة ضدَّهم، لكن العُمدَة أجابه باقتضاب قائلاً: "قُمْ بحَلِّ المشكلة بشكل صائب". وفي ظلِّ هذه الضغوطات من رؤسائه ومَرؤوسيه، مرض المُحافِظ لاوشيونغ، وَدَخَلَ المستشفى. وبمَرَضِه، أُلقيَت المهمَّة على عاتق نائبه تشنغ تشونغ. وعلى الرَّغْم من أنه كان يعرف أن المُحافِظ يدَّعي المرض، ويتفادى الاقتراب من عشِّ الدبابير، فإنه كانت لديه طريقته الخاصَّة لعلاج هذه الأزمة. فبعدما تولَّى المهمَّة، لم يستشرْ أحداً، فقط استدعى عدداً من مُمثِّلي الاعتصام إلى مقرِّ الاجتماعات بمبنى المُحَافَظَة لإجراء الجولة الحادية عشرة من المفاوضات. ما إن دَخَلَ هؤلاء الممثِّلون إلى مقرِّ الاجتماعات، حتَّى اكتشفوا أن المقرَّ مُدجَّج بأفراد الشرطة. وبدون سابق إنذار، انقضَّ عليهم أفراد الشرطة، واعتقلوهم، وكبَّلوهم بالأصفاد، وكمَّموا أفواههم، ثمَّ اقتادوهم إلى الخارج من الباب الخلفي. ثارت ثائرة بقية المُعتصمين بعدما علموا بما حَدَثَ لمُمثِّليهم، فاقتحموا مبنى حكومة المُحَافَظَة، وحطَّموا زجاج نوافذ المبنى، وعدداً من السَّيَّارات، وأشعلوا بها النيران. كان تشنغ تشونغ ينتظر تلك اللحظة، حيثُ اكتشف المخرِّبون أنهم مُحاصَرون بقوَّات الشرطة من كلِّ جانب، ثمَّ توالى توافد أفراد الشرطة المُدجَّجين بالسلاح والذخيرة والهَرَاوى، وترامن ذلك مع وقوع مصادمات

بين الشرطة والمخرِّبين، وأصدر أوامره للشرطة بإطلاق النار في الهواء لتفريقهم. ما إن أطلقت الشرطة النيران حتَّى فرَّ المُعتصمون هاربين، وأُصيب اثنان منهم برصاص طائش. وهكذا جرى إنهاء الاعتصام، وأُطلق سراح المُمثِّلين المُعتقلين، وأُلقي القبض على عدد من المخرِّبين، وحُكم عليهم بالسجن لفترات مُختلفة، تراوحت بين ثلاث وخمس سنوات بتُهم "تخريب النظام المُجتمعي"، و"عرقلة العمل العامّ"، و"وتدمير الممتلكات العامَّة والخاصَّة". بعدها قامت الحكومة بتعويض القرويِّيْن مادِّيّاً وَفْقاً لما جرى تقريره مُسبَّقاً، ولم يجرؤ أحد على الاعتراض. وبدأ بناء مشروع المنطقة الصِّناعيَّة، وعُوقب تشنغ تشونغ إداريّاً، بسبب إصداره أوامر بإطلاق النار، تسبَّبت في إصابة بعض المواطنين.

في السابق، لم يكن العُمدَة ما ون بين يعرف تشنغ تشونغ جيِّداً، ولكنْ، بعد تلك الواقعة، صار مُعجَباً به للغاية. لم يكن العُمدَة مُعجَباً به، بسبب إصداره أوامر إطلاق النار وإصابة مواطنين، بل لأنه كان حازماً، ولديه قدرة على اتِّخاذ القرار دون استشارة أحد، وتحمُّل مسؤولية قراراته. بعدها بعام، انتقل المُحافِظ لاو شيونغ للعمل في مكان آخر، وتولَّى تشنغ تشونغ منصب المُحافِظ بدلاً منه بقرار من العُمدَة ما ون بين.

وعندما جاء رئيس المحكمة يشرح للمُحافِظ الجديد مشكلة لي شيوليان، ويُخبره باكياً أنها قد تذهب للشكوى هذا العام، لم يعرْهُ المُحافِظ أيَّ انتباه.

قال رئيس المحكمة: "على مدار عشرين عاماً، صارت هذه المرأة صعبة وعنيدة أكثر من ذي قبل، وكلَّما قالت إنها لن تذهب للشكوى زاد قلقي، فلا أحد يمكنه التَّكهُّن بما تفكِّر به".

ردَّ المُحافِظ: "وليكنْ، دَعْها تذهب وتشتكي".

قال رئيس المحكمة رافضاً: "أيُّها المُحافِظ، لقد تولَّيتَ منصبكَ للتَّوِّ، ولا تعرف خطورة الأمر، ليس علينا أن نتركَها تشتكي".

رد المُحافِظ بحِدَّة: "أيُّ بند في القانون ينصُّ على مَنْع الناس من الشكوى؟".

أجابه: "هي لن تذهبَ لتشتكيَ في محكمة المُحَافَظَة، لو كان الأمر كذلك، فلا داعي للقلق، إنها تذهب لتشتكيَ في بكين. في العادة، لا نقلق من ذهابها إلى بكين للشكوى، ولكنَّ بكين الآن على وشك عَقْد اجتماعات مجلس نُوَّاب الشعب، ولو ذَهَبَتْ واقتحمتْ قاعة الشعب الكُبْرَى كما فَعَلَتْ من قبلُ، فكلُّنا سنُقالُ من مناصبنا، بدايةً من العُمدَة وحتَّى أنا وأنت".

ضحك المُحافِظ قائلاً: "عليكَ أن تعرف أنه بسبب إقالة المسؤولين قبل عشرين عاماً، فلن يحدث هذا ثانية الآن".

استمرَّ رئيس المحكمة في رَفْضه قائلاً بحزم: "أيُّها المُحافِظ، أعرف أن كلامي لا يروق لكَ، ولكنْ، عليكَ أن تتفهَّم، لكلِّ عصر أوان، ولكلِّ مقام مقال، ولهذا السبب، فلا أحد يعرف كيف يفكِّر المسؤولون الآن، تماماً كما لا يعرف أحد كيف تفكِّر لي شيوليان، هل تعتقد أن المسؤولين قد يشعرون بالضيق لإقالة الكوادر؟ الصِّينْ لديها عجْز في كلِّ شيء، ما عدا الكوادر، والجميع ينتظرون إقالة الكوادر لاستبدالهم غيرهم".

فُوجِئ المُحافِظ قليلاً بالكلام، فاعتدل في جلسته قائلاً: "فليكنْ، في الأصل أودُّ تَرْك هذا العمل".

بَدَا رئيس المحكمة قَلِقَاً للغاية وهو يقول: "هذا ليس قرارك بمفردكَ، أنتَ تريد الاستقالة، ولكنْ، ماذا لو لم يكن العُمدَة يريدها؟".

ثمَّ أحنى رأسه، وقال بصوت خفيض: "وأنا أيضاً لا أريد أن أستقيلَ".

عندما رآه تشنغ تشونغ خائفاً هكذا ضحك قائلاً: "إذنْ، يجب على جميع المسؤولين هنا الخوف من هذه المرأة الرِّيفيَّة؟".

أجابه: "بالطبع، فهي مُصرَّة على موقفها هذا لأكثر من عشرين عاماً، المشكلة الآن هي أنها ليست شخصاً واحداً، بل في الواقع صارت ثلاثة أشخاص".

سأله مُستغرباً: "ماذا تقصد؟".

أجاب: "نحن نراها حمقاء، وزوجها السابق يراها بان جين ليان الخائنة، وهي ترى نفسها مظلومة، أليست بذلك ثلاث نساء؟ هؤلاء النساء الثلاث كلُّهنَّ مثيرات للمتاعب، الواحدة منهنَّ صعبة في التعامل، فما بالكَ بالثلاث معاً، لقد صارت كجسد له ثلاثة رؤوس وستَّة أذرع، كما أنها تمرَّست في إثارتها للمتاعب لعشرين عاماً حتَّى صارت بارعة في الأمر. من أجل كَسْب ودِّها، كنتُ أهديها الكثير من الهدايا على مدار العشرين عاماً الماضية، لو تحدَّثْتُ عن أفخاذ الضأن التي أهديتُها لها فقط، لَبَلَغَ عددها ستَّة أو سبعة عشر فخذاً، لقد شاهدتُ الناس يرسلون الهدايا للمسؤولين، ولكني لم أشاهد مسؤولين يرسلون هدايا للناس!".

ثمَّ أردف مُتذمِّراً: "الدولة تَعقد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب بكثرة، كلُّ عام تَعقد الاجتماعات بشكل مُصغَّر، وكلُّ خمسة أعوام تَعقده بشكل مُوسَّع، وهذا العام دورة مُوسَّعة، وستحدث تغيُّرات كُبْرَى في الحكومة، مَنْ هذا الذي يجرؤ على تَرْكها تذهب للشكوى؟ علينا الحذر .. أشدّ الحذر، أنا لا ألوم أحداً، فَمَنْ هذا الذي يتخيَّل أن يكون خوفنا من امرأة رِيفيَّة مرتبطاً بحَدَثٍ كبير كهذا؟".

ردَّ المُحافِظ: "تصرُّفاتكَ تلك هي التي جَعَلَتْهَا تتمادى إلى هذا الحَدِّ".

قال رئيس المحكمة: "أيُّها المُحافِظ، هذا هو الواقع الآن، أنا لستُ سوى مسؤول صغير، لا أستطيع إقناعها، أمَّا أنتَ، فمسؤول كبير، هَلاَّ تحدَّثتَ معها، وأقنعتَها؟".

ضحك المُحافِظ بشدَّة من كلامه، فهو يعرف أن وانغ قونغ داو يريد تصعيد الموضوع لمستويات أعلى، كي ينأى بنفسه بعيداً عن عشِّ الدبابير، هذا الشخص يبدو وديع المَظْهَر، ولكنه خبيث المَخْبَر، وقد أدرك المُحافِظ هذه النقطة، فغيَّر دَفَّة الحديث، وسأله: "هل يمكننا عمل تحرِّيات حول تلك المرأة، لنعرف ما إذا كان لها أيُّ مُخالفات قانونية كالسرقة أو الاعتداء أو المقامرة أو غيرها؟".

فَهِمَ ما يقصده المُحافِظ، فأجابه: "أترقَّب ذلك، بل وأتمنَّاه، لو كانت لديها مُخالفات قانونية، لَألقَيْتُ القبض عليها منذُ زمن، حينها ستكون مهمَّتي انتهتْ، ويأتي دَوْر الشرطة للتعامل معها. راقبتُها لعشرين عاماً، إنها رِيفيَّة، لا تملك جرأة ارتكاب الجرائم، وليس لديها مال للمُقامرة".

عارضَهُ المُحافِظ قائلاً: "وَفْقاً لكلامكَ هذا، فهي مُواطنة صالحة، فلنُغيِّر من خطَّتنا، إذنْ، ماذا لو أقنعْنا زوجها السابق أن يعودَ ويتزوَّج منها ثانية، فلو حَدَثَ وتزوَّجا ثانية، لن يكن لديها شكوى بعد الآن".

أجابه رئيس المحكمة: "فكَّرْنا في هذا الأمر لعشرين عاماً، وقمْنا بتلك المحاولة مئات المرَّات، لكن رأس زوجها مُتصلِّب، قال إنها لو لم تفعل ما فَعَلَتْهُ طَوَالَ هذه العشرين عاماً، لكان بإمكانه الزواج منها ثانية، ولكنْ، لأنها فَعَلَتْ ذلك، فلن يعود إليها أبداً، حتَّى لو كانت هي آخر امرأة في العالم. كما أن زوجها السابق تزوَّج بأُخرى، ولديه منها ولد، ولو أراد الزواج منها ثانية، فعليه أن يُطلِّق زوجته الحالية. كما أن لي شيوليان لا تريد الزواج منه ثانية، لأنها تريد العيش معه، بل لأنها تريد أن تتزوَّج، ثمَّ تتطلَّق. الخلاصة هي أنها تريد أن تُنغِّص حياة زوجها، تريد فقط أن تُثبت

أنها ليست بان جين ليان الخائنة. ولكنَّ ما حَدَثَ الآن هو أنها لم تُنغِّص حياة زوجها، بل نَغَّصَتْ حياتنا نحن. عشرون عاماً كاملة، أيُّها المُحافِظ، جَعَلَتْني أعيشها في قَلَق واضطراب، حتَّى إنني فكَّرتُ أن أستقيل من القضاء، وأعمل في التجارة".

ضحك المُحافِظ قائلاً: "ما دامت قد نَغَّصَتْ عليك حياتكَ إلى هذا الحَدِّ، فسوف أتحدَّث معها".

نَهَضَ رئيس المحكمة قائلاً: "هذا هو المطلوب، الاجتماعات على وشك الانعقاد، هَلَّا سارعتَ وَنَصَحْتَهَا؟ وما دام هذا الشهر قد مرَّ، وانتهت الاجتماعات، يمكنها أن تذهب وتشتكي متى وأنَّى شاءت، حينها لن نخاف منها".

في صباح اليوم التالي، ذَهَبَ المُحافِظ إلى قرية لي شيوليان، كان برفقته رئيس المحكمة وبعض المسؤولين. لكنه لم يذهب للقائها، بسبب حديث رئيس المحكمة معه، بل لأنه بعدما غادر رئيس المحكمة مكتبه، هَاتَفَهُ العُمدَة، ليُخبرَهُ أنه سيذهب بعد عشرة أيَّام لحضور اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب في بكين، وَنَبَّهَهُ أن يحرصَ على ألَّا تتكرَّر حادثة لي شيوليان التي حَدَثَتْ قبل عشرين عاماً حين ذَهَبَتْ لتشتكيَ في قاعة الشعب الكُبْرَى وقت الاجتماعات. حيثُ قال له بنبرة واضحة: "أنا ذاهب إلى بكين للمشاركة في الاجتماعات، عليكَ أن تمنعَ لي شيوليان من الذهاب".

كانت له حُرِّيَّة الاهتمام لكلام ونصائح وانغ قونغ داو رئيس المحكمة أو عدم الاهتمام، ولكنْ، لا يمكنه ألَّا يهتمَّ بمكالمة العُمدَة، ولا يجرؤ على ذلك. كما أنه كان يرغب في مقابلة تلك الرِّيفيَّة العنيدة، ليعرف هل هي حقَّاً كما يقال ثلاثة أشخاص معاً، ولها ثلاثة رؤوس وستَّة أذرع حتَّى تتمكَّن من تنغيص معيشة المسؤولين طيلة عشرين عاماً. وعندما قابلها، وَجَدَهَا

امرأة رِيفيَّة عادية، شَعْرها خالطه الشَّيْب، خصرها سميك، لهجتها رِيفيَّة قحَّة. وحين شاهدت لي شيوليان رئيس المحكمة قادماً برُفْقَة المُحافِظ سألتْهُ مُتعجِّبة: "ألم تأتِ بالأمس؟ لماذا جئتَ اليوم ثانية؟".

أجابها: "اليوم شيء، والأمس شيء آخر". ثمَّ أشار إلى المُحافِظ قائلاً: "هذا هو المُحافِظ تشنغ تشونغ، جاء اليوم ليتحدَّث معكِ، فأنا مسؤول صغير، وأنتِ لا تستمعين إليَّ".

جَلَسَ الجميع أسفل شجرة العُنَّاب في فناء منزلها، وتحدَّث المُحافِظ قائلاً: "أيَّتُها الأُخت، أنا أُحبُّ الكلام المباشَر، فلنتحدَّثْ بإيجاز، أوشكت اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب على الانعقاد، فهل تنوين الذهاب للشكوى؟".

أشارتْ لي شيوليان إلى رئيس المحكمة قائلة: "أخبرتُهُ بالأمس أني لن أذهبَ هذا العام".

سألها المُحافِظ كما سألها رئيس المحكمة بالأمس: "ولماذا لن تذهبي؟".

وأجابتْهُ أيضاً كما أجابت بالأمس: "كنتُ عنيدة، وتخلَّيتُ عن عنادي".

خَبَطَ رئيس المحكمة بيده وهو يقول بغيظ: "كلَّما تحدَّثتِ هكذا، ارتبتُ فيكِ أكثر. لو كان هذا جوابكِ، فهذا يعني أنكِ ستذهبين".

مَدَّ المُحافِظ يَدَهُ، ليُسكِتَهُ، وحدَّثها قائلاً: "القاضي وانغ قونغ داو لا يُصدِّقكِ، ولكني أُصدِّقُكِ، وما دمتِ تخلَّيتِ عن عنادِكِ، وقرَّرتِ عدم الذهاب، فَلْنَكْتُب تعهُّداً بذلك".

سألتْهُ بدهشة: "أيّ تعهُّد هذا؟".

المُحافِظ: "تعهُّد بأنكِ لن تذهبي للشكوى، ثمَّ تُوقِّعين عليه".

قالت: "وما الفائدة من ذلك؟".

قال: "فائدتُهُ أنكِ ستتحمَّلين المسؤولية القانونية، لو ذَهَبْتِ للشكوى".

ردَّت: "لو كان الأمر كذلك، فلن أكتبَ هذا التَّعهُّد".

سألها بدهشة: "ما دمتِ لن تذهبي، فلماذا لا تكتبين التَّعهُّد؟".

أجابتْهُ: "لستُ خائفة، ولكنكم تخلطون الأمور، لا يوجد سبب، كي أكتب تعهُّداً كهذا، أنا مظلومة، ويمكنني ألَّا أشتكي، ولكنْ، لن أكتب تعهُّدات، فكتابة تعهُّد بمثابة اعتراف بالخطأ، ولو كان هذا مُقتصراً على الوقت الحالي، فلن تكون هناك مشكلة، ولكنَّ المشكلة أن هذا يدلُّ على أنني كنتُ مخطئة طيلة العشرين عاماً الماضية".

فَطِنَ المُحافِظ أنها بالفعل امرأة صعبة عَصِيَّة على الإقناع، حيثُ لم يتخيَّل أن يكون هناك سبب مثل هذا يمنعها من كتابة التَّعهُّد، فقال: "أُختي، الأمر ليس بهذا السوء، فقط إجراء شكلي".

ردَّت: "تقول الآن إنه إجراء شكلي، ولكنْ، لو وَقَعَتْ أيُّ مشكلة، يمكنكَ أن تأتيَ وتعتقلَني بموجب هذه الورقة".

أيقن المُحافِظ أن مهمَّته صارت صعبة، وأن هذه المرأة لديها ردود على كلِّ الحِيَل التي حاول إيقاعها بها، فاستمرَّ في محاولاته قائلاً: "أُختي، هذه ليست نِيَّتنا، فقط نريد أن نطمئنَّ، الكلام وحده ليس ضماناً للتَّوصُّل إلى اتِّفاق".

أخرج رئيس المحكمة من حقيبته ورقة قائلاً: "أيَّتُها الأُخت، لقد جهَّزنا التَّعهُّد مُسبَّقاً نيابة عنكِ، والمُحافِظ شاهدٌ الآن، فَلْتُوقِّعيها، وينتهي

الأمر". ثمَّ أخرج من حقيبته قَلَماً، وناوله لها وهو يقول: "لو وقَّعتِ الآن، فلن نأتيَ لإزعاجكِ بعد اليوم".

ضَرَبَتْ لي شيوليان القَلَمَ من يده قائلة: "لو كنتُم تُصرُّون على إجباري بهذا الشكل، فسوف أُغيِّر من رأيي، وأذهب لأشتكيَ".

صَمَتَ المُحافِظ، وانحنى رئيس المحكمة، ليلتقطَ القَلَمَ، ثمَّ أشار إلى التَّعهُّد وهو يقول بغيظ: "انظري، أخيراً أفصحتِ عن نِيَّتكِ الحقيقية".

3

تعرَّض المُحافِظ للتوبيخ الشديد من العُمدَة ما ونبين[*]، بسبب تضخيم فجوة التناقض بين لي شيوليان والحكومة. فعندما كان تشنغ تشونغ نائباً للمُحافِظ، وحلَّ مشكلة اعتصام القرويِّيْن أمام مبنى الحكومة، قام، أيضاً، بتضخيم التناقض بين القرويِّيْن والحكومة، ذلك التَّصرُّف كان صحيحاً، لكنه صار خاطئاً هذه المرَّة. رِيفيَّة، ظلَّت تشتكي لعشرين عاماً، ولكنها قالت بشكل مُفاجِئ إنها لن تذهب للشكوى هذا العام، لا يهمُّ هل كلامها حقيقي أم زائف، المهمُّ أنها قالت إنها لن تذهب للشكوى، وهو أمر لم يحدثْ على مدار عشرين عاماً، وهو أمر إيجابيٌّ. وحتَّى لو كانت تكذب، فكذبها ينمُّ عن رغبتها في العدول عن الاستمرار في الشكوى. لقد صارت لديها رغبة مُختلفة الآن، وعلينا تنحية الأمر إلى منحى إيجابي، لكن المُحافِظ ورئيس المحكمة سَكَبَا الزيت فوق النار، وأصرَّا على أنها تكذب، ومن أجل التَّأكُّد من صِدْقها، أصرَّا على أن تكتب تعهُّداً، وأن يجعلاها تتحمَّل المسؤولية القانونية. فماذا كانت النتيجة؟ دَفَعَا الأمر الإيجابي أو الرغبة في التغيير نحو طريق مسدود. ما هي نقطة الانطلاق؟ نقطة الانطلاق هي عدم ثقتهم بها، وما دمتَ لا تثق بالآخرين، فكيف تطلب منهم أن يثقوا بكَ؟ فكانت النتيجة عكسية، تلك الرِّيفيَّة التي قالت لن أذهب للشكوى هذا العام، غيَّرت رأيها في النهاية، وقالت إنها ستذهب للشكوى. حينها فقط أمكَنَ للجميع أن يستريحوا من الجدال، ولكن القادم سيكون أصعب. فعندما كانت لديها رغبة في التغيير، كان مسار العمل

*) معنى اسمه في الصِّينيَّة: المثقَّف الخلوق.

واحداً، ولكنْ، عندما زالت تلك الرغبة، اختلف مسار العمل، وصار على كلا الطَّرَفَيْن أن يسيرا في طريقَيْن مُختلفَيْن. هذا الاختلاف وحده بمثابة مشكلة كُبْرَى، تتطلَّب الكثير من العمل لحَلِّها. مَن الذي سيتحمَّل تبعات هذا العمل الإضافي الذي لم يكن موجوداً من قبل؟ ليست تلك الرِّيفيَّة، بل المسؤولون هم مَنْ سيتعيَّن عليهم القيام به. هناك خطأ في طريقة العمل، وعندما يكون هناك خطأ في طريقة العمل، فهذا يخصُّ المشكلة من الناحية السَّطحيَّة، أمَّا الناحية الجوهرية، فتكمن في طريقة تعامل المسؤولين مع الشعب. المسؤول لا يثق في الشعب، فكيف للشعب أن يثق بالمسؤول؟ هذه الطريقة تنمُّ عن أن المسؤولين لا ينظرون لأنفسهم على أنهم يخدمون الشعب، بل يُنصِّبون أنفسهم أسياداً عليهم. والخطأ الأكبر من هذا هو أن المُحافِظ ورئيس المحكمة لم يقوما بمراعاة الوَضْع العامِّ في أثناء حَلِّهما لتلك المشكلة، فبعد أسبوعَيْن ستنعقد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وعندما يحدث ترابط بين مشكلة تلك الرِّيفيَّة وهذا الحَدَثُ الوطني الكبير، لن تكون تلك المرأة مجرَّد رِيفيَّة عادية، أمَّا طريقة عملهما، فما زالت هي طريقة التعامل مع امرأة رِيفيَّة عادية.

قبل عشرين عاماً، اقتحمت قاعة الشعب الكُبْرَى في بكين، وبسببها أُقيلَ عدد من المسؤولين. قبل عشرين عاماً، تعامل معها المسؤولون السابقون بنفس الطريقة التي تعامل بها المسؤولون الحاليون، أليس عليهم استيعاب الدرس ممَّا حَدَثَ قبل عشرين عاماً؟ الأهمُّ من ذلك هو الوَضْع السِّياسيُّ الحالي، فاجتماع المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب هذا العام مُختلِف عن نظيره في الأعوام السابقة، ففي هذه العام سيجري تغيير الحكومة، وستحلُّ محلَّها حكومة جديدة، والدولة والعالم يتابعان ما يحدث. عندما اقتحمت تلك المرأة الرِّيفيَّة قاعة الشعب الكُبْرَى قبل عشرين عاماً كانت الاجتماعات مُصغَّرة، أمَّا هذا العام، فهي اجتماعات كُبْرَى، ولو حَدَثَ واقتحمت قاعةَ الشعب الكُبْرَى هذه المرَّة كما فَعَلَتْ

قبل عشرين عاماً، فسوف يكون هناك تأثير سياسي كبير، وهناك اختلاف آخر عمَّا كان عليه الحال قبل عشرين عاماً، فالإعلام الآن أكثر تطوُّراً، وهناك المُدوَّنات ومواقع التواصل الاجتماعي، وربمَّا يعرف العالم كلُّه بأمر هذه الواقعة بين ليلة وضُحاها. إقالة العديد من المسؤولين قبل عشرين عاماً بسبب هذا الأمر كانت حادثة صغيرة داخل الدولة، ولكنْ، لو حَدَثَ أن فَقَدَتِ الدولةُ ماءَ وجهها أمام العالم الآن بسبب تلك الواقعة، فسيكون ذلك حَدَثاً جَلَلاً.

على الرَّغْم من حِدَّة عباراته، فإن الابتسامة لم تُفارِق وجه العُمدَة ما ونبين وهو يُوبِّخ المُحافِظ. وهذه سِمَة مميَّزة للعُمدَة عندما يتكلَّم. هو قصير القامة، طوله حوالي مائة وستُّون سنتيمتر، وعندما كان يعتلي المنصَّة لإلقاء كلمة، أحياناً يصعب عليه أن يمدَّ رأسه، ليصل إلى الميكروفون حين يأتي عليه الدَّوْر لإلقاء كلمة بعد مسؤول آخر، فيُهرول العامل مُسرِعاً، ويقوم بضبط ارتفاع الميكروفون، ليُناسبَ طوله. هو قصير القامة، نحيل البَدَن، يضع نظَّارة طبِّيَّة بإطار ذَهَبِيٍّ، تبدو هيئته كمثقَّف نحيل هزيل. صوته مُنخفض في العادة، يبتسم قبل أن يتكلَّم، وبعد كلِّ عبارة يقولها. لا يعتمد على الصوت العالي لإظهار حُجَّته، فعندما يجادله أحدهم بالمنطق والدليل، دائماً يكون له منطق أعلى ودليل أقوى في الرَّدِّ. لن تحدث مشكلة لو كان الجدال حول عمل ناجح، لكنْ، لو كان الجدال حول عمل مُخفق، فسوف يُوبِّخ بأقذع الألفاظ. هو عادةً يتحدَّث بصوت مُنخفض، ولكنْ، عندما يتعلَّق الأمر بترقية أو عقاب الكوادر، يعلو صوته بشكل مُفاجِئ. إنه واضح في قراراته دائماً، سواء في الترقية أو العقاب، ولا يجرؤ أحد على مُعارضته، وحتَّى لو كان لديكَ سبب تعترض به، فسيكون لديه عشرات الأسباب التي تُعزِّز موقفه، لا أحد يستطيع مجاراته في الحديث، ودائماً ما يكون كلامه قاطعاً حاسماً. لذلك يخشاه كلُّ المسؤولين من المدينة إلى المُحَافَظَة. وعندما جَلَسَ يُؤنِّب المُحافِظ كان محتفِظاً بعاداته في توبيخ

الآخرين، يتحدَّث قليلاً، ثمَّ يبتسم. وبعدما انتهى، كان المُحافِظ واقفاً يتصبَّب عَرَقاً. لم يتصبَّب عَرَقاً خوفاً من توبيخ العُمدَة، بل لشعوره أن كلام العُمدَة صائب، موقفه ووجهة نظره أقوى منه بكثير. ما هي الفوارق؟ هذه هي الفوارق، لماذا هو عُمدَة للمدينة وأنتَ مُحافِظ أقلّ منه رتبة؟ لا توجد أسباب أُخرى، هو فقط ذو كفاءة أعلى. بعدما انتهى العُمدَة من توبيخه، تحدَّث المُحافِظ بخنوع قائلاً: "أنتَ مُحقٌّ في كلِّ ما تقول، لقد اعتقدتُ أن الأمر بسيط، وتهاونتُ في حَلِّه، أنا مُخطئٌ، لأني أفتقر إلى فَهْم الوَضْع السِّياسيِّ العامِّ، ولم أتفهَّم حقيقة الوقت الذي نمرُّ به، سأكتب تقريراً، يتضمَّن اعترافي بالخطأ بعد عودتي".

ردَّ العُمدَة: "لا داعي لكتابة الاعتراف، المُهمُّ أنكَ عَرَفْتَ خَطأَكَ. أحياناً أفكِّر أن هناك بعض الأقوال المأثورة التي ينبغي علينا التفكير فيها مَلِيَّاً حتَّى نفطن إلى مغزاها العميق، مثل مقولة: (عشُّ النمل الصغير قد يهدمُ السَّدَّ المنيع)، وأيضاً مقولة: (الوقاية خير من العلاج)، وكذا مقولة: (الخسارة الكبيرة قد تأتي من الإهمال البسيط). الخلاصة هي عدم التقليل من المخاطر، فالكثيرون يخسرون بسبب الإهمال وعدم الاهتمام بالأمور الصغيرة".

هزَّ المُحافِظ رأسه مُوافِقاً وهو يقول: "هذا خطئي، لقد أخطأتُ التقدير، ولم أهتمّ بالأمور الصغيرة".

العُمدَة: "هناك عبارة أُخرى تقول: (رُبَّ ضارَّة نافعة)، عليكَ أن تتعلَّم الدرس مِمَّا حَدَثَ، وأن تعمل على تدارُك الموقف لاحقاً، حينها لن ترتكب الخطأ نفسه ثانية".

المُحافِظ: "سأعمل على تدارُك الموقف فور عودتي، وسأذهب للتَّحدُّث إلى تلك المرأة ثانية".

أشار له العُمدَة بإصبعه، وقال مبتسماً: "لقد ساءت الأمور بينكَ وبينها بالفعل، وحَلُّ المشكلة لن يأتيَ بسهولة". ثمَّ ضَرَبَ بيده على مسند الكرسي قائلاً: "يتبقَّى تسعة أيَّام على عقد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وليس لدينا مُتَّسع من الوقت، سأذهب إليها بنفسي للتَّحدُّث معها، بعدما تعود، كي أطلب منها أن تقبل دعوتي لتناوُل الطعام".

أحسَّ المُحافِظ ببعض القلق فور سماعه هذا الكلام، شَعَرَ أن تقصيره في العمل هو ما دَفَعَ العُمدَة لدعوة تلك المرأة لتناوُل الطعام، فقال مُتلهِّفاً: "أيُّها العُمدَة، أنا مَنْ تسبَّب في تلك المشكلة بسبب تقصيري في أداء واجبي".

أشاح العُمدَة بيده قائلاً: "لا عليكَ، فمقابلة الناس هي جزء من عملي". ثمَّ أردف ضاحكاً: "لقد شغلتُ منصب العُمدَة منذُ ثلاث سنوات، ولم أقابلْ تلك المرأة العنيدة بعد، هذه التي يُسمُّونها "بان جين ليان"، أو كما تقول أنتَ تلك المرأة التي تقول عن نفسها إنها مظلومة، ثلاثة أشخاص في شخص واحد، لها ثلاثة رؤوس وستَّة أذرع، إن لم أقابل امرأة كهذه سأكون مُخطئاً، هذا نوع من البيروقراطية".

شَعَرَ المُحافِظ أن الأجواء قد تلطَّفتْ قليلاً، فقال ضاحكاً: "في الحكايات عادةً ما تكون بان جين ليان أو ذات الرؤوس الثلاثة والأذرع السِّتَّة امرأة جميلة، ولكنْ، هنا نحن أمام امرأة عجوز، شابَ شَعْرها".

ومرَّة أُخرى وبَّخ العُمدَة كلَّاً من سكرتيره الخاصِّ والمُحافِظ بسبب تحديد مكان تناوُل الطعام مع لي شيوليان، فعادة ما يُحبُّ العُمدَة تناوُل الطعام في ثلاثة أماكن هي: الفندق الخاصُّ بحكومة المدينة حال مجيء قادة أو زملاء من حكومة المُقَاطَعَة لزيارته، وفندق فوهاو لو كان سيلتقي برجال الأعمال، وفي بيته لو كان سيلتقي بأصدقائه وزملاء دراسته القدامى.

فكَّر السكرتير أن دعوة تلك المرأة لتناوُل الطعام مع العُمدَة ينضوي تحت بند العمل، ودعاها للحضور إلى فندق حكومة المدينة، وأرسل سيَّارة خاصَّة كي تُقلَّها إلى هناك. وعندما علم العُمدَة بهذا الأمر عقد حاجبَيْه، وقال غاضباً: "أنتما تستحقَّان التوبيخ، ما المقصود بطريقة التعامل مع الناس؟ يمكن فَهْم طريقتكم في التعامل معها من خلال دعوتكم لها لتناوُل الطعام، هل هي مَنْ ترغب في لقائي أم أنا مَنْ يرغب في لقائها؟".

علم السكرتير بخطئه، وقال: "نعم، أنا مُخطئ، علينا أن نذهب إليها، وليس أن تأتيَ هي إلينا".

هَاتَفَ السكرتيرُ المُحافِظَ فور خروجه من مكتب العُمدَة، فرتَّب المُحافِظ دعوة الطعام في فندق "نبع الكرز"، فهو الأفخم في المُحَافَظَة كلِّها، وعلى الرَّغْم من أنها مُحَافَظَة حبيسة، لا تطلُّ على بحار أو أنهار، فإن قائمة الطعام في فندق "نبع الكرز" تشتمل على ما لذَّ وطاب من المأكولات البَحْريَّة. جاء العُمدَة من قبل في زيارات عمل إلى تلك المُحَافَظَة، ولو حَدَثَ أن تناول الطعام هناك كان يذهب إلى فندق نبع الكرز، لذلك قرَّر المُحافِظ أن يكون الفندق هو مكان تناوُل الطعام هذه المرَّة. أخبر المُحافِظُ السكرتيرَ بهذا الأمر، فنقل السكرتير الخبر للعُمدَة، عقد العُمدَة حاجبيه غاضباً مرَّة أُخرى، وقال: "ألم أُنبِّهكم من قبل؟ ألَّا تستطيعون أن تقيسوا على كلامي السابق؟ ما الصعوبة في ذلك؟ ندعو امرأة من العامَّة لتناوُل الطعام، فنأخذها إلى هذا الفندق الفخم الممتلئ بما لذَّ وطاب من أصناف الطعام حتَّى نُشعرَها بالرهبة بمجرَّد دخولها إليه؟ فضلاً عن شعورها بالغضب عندما تفكِّر أنكم تتناولون هذه الأطعمة الفاخرة دوماً، فما العمل، إذنْ؟ أطلب منكم دعوتها لتناوُل الطعام، فهل من الصعب عليكم إيجاد مكان هادئ وبسيط؟ كمطعم صغير لحَسَاء لحم الضأن في البلدة، نتناول بعض الخبز، ويحتسي كل منَّا طَبَقاً من الحَسَاء الساخن حتَّى نتعرَّق، فيصير الجوُّ مُفعَماً بالدفء والأُلفة".

أدرك السكرتير خطأه ثانية، فسارع يهزُّ رأسه مُوافِقاً وهو يقول: "لقد أخطأتُ، فلنذهبْ إلى مطعم بسيط لتناوُل حَسَاء لحم الضأن في القرية. أنا فقط كنتُ قلقاً ألَّا يكون المكان نظيفاً في مثل هذه المطاعم الصغيرة".

أشاح العُمدَة بيده قائلاً: "لقد نشأتُ وتربَّيتُ في القرية، وبإمكاني تناوُل ما يتناوله القرويون، يمكنكما عدم المجيء، لو لم تكن لديكما رغبة في تناوُل هذا الطعام".

سارع السكرتير يهزُّ رأسه وهو يردِّد: "نحن أيضاً سنأكل، نحن أيضاً سنأكل".

عاد السكرتير إلى مكتبه ثانية، وَهَاتَفَ المُحافِظ، وحكى له، فأدرك المُحافِظ خطأه على الفور، وغيَّر مكان تناوُل الطعام، ليكون أحد مطاعم حَسَاء لحم الضأن في البلدة. شَعَرَ المُحافِظ بإعجاب أكبر تجاه حكمة العُمدَة، فهو يفكِّر في التفاصيل الصغيرة بشكل أعمق منه بكثير، ما هو الفارق بينه وبين العُمدَة؟ هذا هو الفارق.

في مساء اليوم التالي، دعا العُمدَة لي شيوليان لتناوُل الطعام في مطعم "لاو باي لحَسَاء الضأن". يقع المطعم في الجهة الغربية للبلدة، هو دائماً متَّسخ من الداخل والخارج، فإنه يومها فجأة بَدَا نظيفاً. كان متَّسخاً في الصباح، وأمسى نظيفاً، حيثُ كُنِسَت الأرض، ورُشَّت الطاولات بماء مَغليٍّ، وغُطِّيت بعض شقوق السقف بورق جرائد. كان هناك بائع لحم متجوِّل يقف على يمين المطعم، طَرَدَهُ مأمور البلدة لاي شياوماو، كما طَرَدَ بائع الخردوات المُتجوِّل الذي يقف على يسار المطعم أيضاً. كُنِسَت الأرض أمام باب المطعم وعن يمينه ويساره، وصار المطعم مُختلفاً عن ذي قبل. رَافَقَ العُمدَةَ إلى المطعم كلٌّ من سكرتيره الخاصِّ، والمُحافِظ، ورئيس المحكمة. جَلَسُوا جميعاً على طاولة، تتَّسع لخمسة أشخاص. بينما ذَهَبَ بقية مُرافقي العُمدَة والمُحافِظ برُفْقَة مأمور البلدة لتناوُل الطعام في

المطعم الخاصِّ بحكومة البلدة. فقد كانوا قَلِقين أن تتسبَّب كثرة عددهم في فَزَعٍ لي شيوليان. كانت مشكلة المُحافِظ هي مَنْ سيذهب لدعوة لي شيوليان لتناوُل الطعام مع العُمدَة. فهو ورئيس المحكمة كانا في صدام معها بالأمس، ولا يجرؤان على إزعاجها ثانية، فقرَّر المُحافِظ إلقاء هذه المهمَّة على عاتق مأمور البلدة لاي شياوماو. المأمور في الأربعينيَّات من عُمُره، قصير وسمين، ولا يخلو حديثه من البذاءة، بل حتَّى إنه عندما يثمل يعتدي على الآخرين بالضَّرْب. لديه سيَّارة موديل فولكس سانتانا، وعندما يكون ثمِلاً يجلس في المقعد الخلفي، ليُوجِّه التعليمات للسائق، وحين يقود السائق بسرعة، يصفعه على قفاه قائلاً: "اللعنة على أُمِّكَ، هل مات والدكَ وتريد اللحاق بجنازته؟"، وحين يقود ببطء يصفعه على قفاه قائلاً: "اللعنة على أُمِّكَ، هل والدكَ هو مَنْ يجرُّ السَّيَّارة؟ هذه سيَّارة، وليست عربة يجرُّها حمار".

وقد تَرَكَ خمسة سائقين العمل لديه بسبب تعرُّضهم للضَّرْب. وفي حكومة البلدة أكثر من أربعين كادراً، لم يفلتْ أحدُهم من سبابه، وأكثر من عشرين عُمدَة لأكثر من عشرين قرية تابعة للبلدة، لم ينجُ أحد من ضَرْبه. وعلى الرَّغْم من كلِّ هذا، كان دائماً يتحاشى التَّعرُّض إلى لي شيوليان التي سَكَنَتْ إحدى قرى البلدة طيلة خمس سنوات، قضاها في منصبه، على الرَّغْم من أنها كانت تذهب للشكوى كلّ عام. وبسبب شكواها المتكرِّرة، كان قادة المُحَافَظَة يُوبِّخونه في اجتماعهم السَّنويِّ، بسبب عدم قدرته على حفظ الاستقرار، ويرفضون تقييم بلدته كبلدة نموذجية. أمَّا بالنسبة إليه، فعندما كان يعود من الاجتماع السَّنويِّ للمُحَافَظَة كلّ مرَّة، يُنبِّه كوادر البلدة أنه يُفضِّل عدم تقييم البلدة كبلدة نموذجية على التَّعرُّض إلى لي شيوليان. ولأنها كانت تشتكي للجهات العليا، فَتَرْكُهَا تشتكي لا يؤثِّر عليه، أمَّا قيامه بمنعها، فهذا يعني بأنه يضرب بنفسه عشَّ الدبابير.

المأمور في العادة شخصٌ فظٌّ غليظٌ، ولم يكن أحد يتخيَّل أن يأتيَ

عليه وقت يصير لطيفاً ليِّناً، وعلى الرَّغْمِ من أنه كان حانقاً ومُغتاظاً عندما أرسله المُحافِظ لدعوة لي شيوليان لتناوُل الطعام برُفْقَة العُمدَة، فإنه لم يكن يجرؤ على مخالفة أوامر المُحافِظ. كان معتاداً على توبيخ الآخرين وضَرْبهم، ولكنْ، عندما قابل لي شيوليان، تصنَّع رَسْم الابتسامة على وجهه، وأخذ يناديها باسم "العمَّة الكبيرة"، حتَّى إنها شَعَرَتْ بالحرج منه، فكيف لشكواها أن تتسبَّب في وجود هذا العدد الكبير من الأقارب؟ فردَّت عليه قائلة: "أيُّها المأمور، رئيس المحكمة وانغ قونغ داو يناديني باسم "الأُخت الكُبْرَى"، وها أنتَ تناديني باسم "العمَّة الكُبْرَى"، هذا لطف كبير منكما، يجعلني أشعر بالخجل".

ردَّ قائلاً: "وانغ قونغ داو يناديكِ باسم الأُخت الكُبْرَى دون سند أو دليل، أمَّا أنا، فأناديكِ باسم العمَّة الكُبْرَى بناء على أدلَّة واقعية، سأشرح لكِ، أُمِّي من قرية يان جيا، خالي الأخ الأكبر لوالدتي مُتزوِّج من ابنة أُخت السَّيِّد تشاي من قرية تشاي جيا ... ثمَّ أخذ يُعدِّد لها درجات القرابة".

قاطعتْهُ قائلة: "دعكَ من التلاعب بالكلام، لماذا جئتَ إلى هنا؟ لو كان بسبب ذهابي للشكوى، فليس هناك ما يستدعي الاستمرار في الحديث".

أجابها: "لن أتحدَّث عن أمر الشكوى، هل فكَّرتِ؟ أنا في منصبي هذا منذُ خمس سنوات، هل حَدَثَ وحدَّثتُكَ في أمر الشكوى من قبل؟".

هزَّت رأسها نافية، فَصَفَّقَ بيَدَيْه صائحاً: "انظري، أنا أدعمكِ في شكواك، لو كانت لديكِ مَظْلَمَة، يمكنكِ أن تشتكيَ، فهذا أمر مُتعارَف عليه منذُ قديم الأزل، أنا لم أزركِ لأمنعكِ من الشكوى، بل جئتُ أدعوك لتناوُل الطعام. لستُ أنا صاحب الدعوى تحديداً، بل العُمدَة ما ون بين هو الذي أرسلني كي أدعوَكَ لتناوُل الطعام معه، أيَّتُها العمَّة الكُبْرَى، أنتِ حقَّاً ذات مكانه كُبْرَى الآن".

احتلَّ الغضب وجهها وهي تقول: "لا يهمُّ هل هو العُمدَة أم المُحافِظ، ما دام يدعوني للطعام، فبالتأكيد لديه نوايا خبيثة. لماذا يدعوني الآن تحديداً، ولم يدعني من قبل؟ أليس بسبب قرب اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب؟".

نَهَضَتْ مغادرة مكانها، فَقَفَزَ المأمور واقفاً أمامها قائلاً: "أيَّتُها العمَّة الكُبْرَى، أنا مُتَّفق مع ما تقولين، مسؤول كبير كهذا لن يدعوَكِ لتناوُل الطعام دون سبب، وخصوصاً في هذه الفترة، ولكنْ، هذا أمر اضطراري، وعليكِ أن تقبلي دعوته".

قالت بترقُّب: "ماذا تقصد؟ هل ستُقيِّدني وتأخذُني إلى هناك؟".

أجاب: "لا أجرؤ بالطبع، فقط أتوسَّلُ إليكِ أن تذهبي من أجلي. لا علاقة لي بهذا الأمر من قريب أو من بعيد، ولكني مُجبَرٌ عليه، فهم مَنْ أوكلوني بدعوتكِ لتناوُل الطعام معهم، أعرف أن العُمدَة سيطلب منكِ العدول عن الشكوى، وأعرف أنكِ ترفضين ذلك، وأنا أُؤيِّدكِ، لكن رَفْضَكِ العدول عن الشكوى هو أمر يخصُّكِ، ورَفْضكِ الذهاب لتناوُل الطعام معه هو أمر يخصُّني. ومتى قبلتِ الدعوة، ستكون مهمَّتي انتهتْ، حتَّى لو كانت النتيجة هي رَفْضكِ العدول عن الشكوى".

واستطرد قائلاً: "أيَّتُها العمَّة الكُبْرَى، إنه أمر مُهمٌّ للغاية، وأنا لستُ سوى مسؤول صغير، أنتِ لم تتعاملي مع مسؤولين كبار من قبلُ، أرجوكِ، لا تُورِّطيني معهم بسبب رَفْضكِ قبول هذه الدعوة، أنا لستُ سوى مأمور حقير، ولكن المستقبل لا يزال أمامي، ولو لم تعطفي عليَّ وتقبلي الدعوة، سيضيع مستقبلي. أنا رجل لديَّ أطفال أعيلهم، ووالدي رجل مريض، والدي هو ابن عمِّكِ، مُصاب بجلطة في المخِّ، فمه مُعوجٌّ، ولا يقوى على فَتْح عَيْنَيْه، ويرقد طيلة الوقت في فراشه، لا أحد يعرف كم من الوقت سيعيش، أيَّتُها العمَّة الكُبْرَى، هَلَّا رأفتِ بحالي وبحال والدي المريض؟!".

كان واقفاً أمامها يتوسَّل إليها، ويختلق القصص كي يُقنعَها، فَقَهْقَهَتْ لي شيوليان وَضَرَبَتْهُ بيدها على رأسه قائلة: "أيّ مأمور أنتَ! يا لكَ من صعلوك! كلُّ هذا بسبب دعوة طعام؟ حسناً، سأذهب".

في تلك البلدة، كان المأمور لاي شياوماو هو مَنْ يضرب الآخرين، ولكنْ، مَنْ هذا الذي يجرؤ على ضَرْبه إلَّا لو كان قد فَقَدَ صوابه؟! ولكنْ، هذه المرَّة عندما ضَرَبَتْهُ لي شيوليان، ابتسم ضاحكاً وقال: "أيَّتُها العمَّة الكبيرة، هذا هو القرار الصائب، وكما يقولون: مَنْ يتخلَّى عن العنف، فهو ملاك في صورة إنسان". ثمَّ أقلَّها بسيَّارته الفولكس سانتانا مُتوجِّهاً نحو المطعم، حيثُ ينتظرها العُمدَة ورفقته.

في حضرة العُمدَة شَعَرَتْ لي شيوليان بالهيبة، ليس لأنه عُمدَة المدينة، بل لأنه كان يرتدي نظَّارة بإطار ذَهَبِيٍّ، ويتحدَّث بلباقة، يبتسم قبل أن يتكلَّم، ويبتسم بعدما يُنهي كلامه، وفي ظلِّ هذه الأجواء لم يكن هناك سبيل للتشاحن أو التناحر. الأهمُّ من لباقته في الحديث هو أن كلامه كان منطقيّاً ومُقنِعاً، فعادةً عندما يتحدَّث أحد ما حول أيِّ أمر، لا يكون بوسعه سوى تضمين بعض المنطق في كلامه، وربمَّا يخالط هذا المنطق بعض الخطأ، أمَّا العُمدَة، فكلامه مليء بالمنطق، ولا يخالطه أيُّ خطأ. في بداية الحديث، لم يتطرَّق لموضوع الشكوى، بل تحدَّث عن الأمور الاعتيادية، وعندما تحدَّث عن الأمور الاعتيادية، لم يكن يتحدَّث بلهجة المسؤولين المتعالية، حيثُ سألها عن أحوال أسرتها، وعملها، وهذا يُوقع الشخص المتحفِّز في حَيْرة، فلا يعرف هل يرفض الإجابة أم لا. ثمَّ أشار العُمدَة إلى جدران المطعم وهو يقول إنه وُلد ونشأ في القرية فقيراً مُعدماً، وكان أكثر ما يرغب في تناوُله هو حَسَاء لحم الضأن، ولكن أسرته لم تملك المال لذلك، فكان يقف أمام مطعم حَسَاء لحم الضأن في طريق عودته من المدرسة، يراقب الزبائن وهم يتناولون الطعام، وذات مرَّة شاهد رجلاً ضخماً يتناول ثلاثة أطباق من الحَسَاء، وقبل أن ينتهيَ من الطبق الثالث،

لوَّح له الرجل بيده، فَذَهَبَ العُمدَة مُسرعاً، فقال له الرجل الضخم: "لو قلَّدْتَ صوت الكلب، سأمنحكَ ما تبقَّى في هذا الطَّبَق". قلَّد له صوت الكلب بكلِّ إتقان، فأعطاه الرجل الضخم الطَّبَقَ، فأنهاه على الفور. انفجر الجميع ضاحكين من كلامه، بمَنْ فيهم لي شيوليان. بعدها شَرَعَ الجميع يتناولون الخبز، ويشربون الحَسَاء، حتَّى تعرَّقت جباههم، وساد المكانَ جوٌّ من الأُلفة. استمرَّ العُمدَة يقول: "في طفولتي كنتُ ساذجاً للغاية، ولا أكذب قطُّ، وكان لي أخ صغير أذكى منِّي، وكان أخي الأصغر هذا يستخفُّ بي، لأنه يعرف أني ساذج، فكان يسرق الطعام من البيت، ويُلقي بالتهمة عليَّ، ولأني لا أعرف كيف أدافع عن نفسي، كنتُ دوماً أتعرَّض للضَّرْب من والدي. أكثر ما كان يُؤلمني هو أني أقول الحقيقة، ولكن الآخرين يعتقدون أن كلامي زائف، أمَّا أخي الكاذب، فيعتقدون أنه يقول الحقيقة". تدخَّلت لي شيو ليان دون أن تُدرك، وقالت: "هذا هو السبب في شكواي، طلاقي زائف في الأساس، ولكنهم يُصرُّون أنه حقيقي، لماذا لا يُصدِّقونني؟".

ما إن سمعها تتحدَّث عن الشكوى حتَّى اغتنم الفرصة، وحدَّثها عن الأمر. لم يتحدَّث عن الشكوى بشكل مباشر، بل بدأ بتوبيخ المُحافِظ ورئيس المحكمة. وهذا هو سبب حضورهما برفقته. وبَّخهما على عدم التعامل مع الموقف بشكل صحيح، ووقوفهما ضدَّ مصلحة الشعب، ونسيانهما أنهما في خدمة الشعب، وليسا أسياداً عليه. وزاد من توبيخه لهما وهو يقول إنهما لا يُصدِّقان الشعب، فكيف لشخص ظلَّ يشتكي لعشرين عاماً أضاع خلالها شبابه، وشَابَ شَعْره أن يُصرَّ على شكواه كلَّ هذا الوقت، لو لم يكن لديه مَظْلَمَة بالفعل؟ ماذا ستفعلان لو كنتُما أنتُما أصحاب المَظْلَمَة؟ أثَّر كلامه هذا بشدَّة في لي شيوليان، فلأوَّل مرَّة تقابل شخصاً، يتفهَّم مُعاناتها. ظلَّ يوبِّخهما حتَّى احمرَّ وجهاهما، فهزَّا رأسَيْهما، وقالا بصوت واحد: "نحن مخطئان، سوف نكتب تقريراً، نعترف فيه بأخطائنا، نحن مُخطئان، سوف نكتب تقريراً، نعترف فيه بأخطائنا".

أشفقت لي شيوليان عليهما، فَخَاطَبَتِ العُمدَة قائلة: "الخطأ ليس خطأهما وحدهما، هما أيضاً معذوران، فسلطاتهما محدودة".

خَبَطَ العُمدَة بيده على الطاولة مُنفعلاً وهو يقول: "هَلَّا رأيتُما رِيفيَّة بسيطة لديها حسٌّ ووعيٌ أكثر منكما؟!".

هزَّا رأسَيْهما، وقالا بصوت واحد: "نعم، لديها حسٌّ ووعيٌ أكثر منَّا، نعم، لديها حسٌّ ووعيٌ أكثر منَّا".

انتهز العُمدَة الفرصة، وسألها مُبتسماً: "سأسألكِ سؤالاً آخر، يمكنكِ أن تُجيبي أو تمتنعي عن الإجابة حسب رغبتكِ، في المرَّة السابقة، قلتِ إنكِ لن تذهبي للشكوى هذا العام، ولكنهما لم يُصدِّقاكِ، هل يمكنكِ إعادة هذا الكلام على مسامعي الآن، بالطبع، لو لم ترغبي في قول هذا الكلام الآن، فلن أُجبرَكِ على ذلك؟".

حرَّك كلام العُمدَة مشاعر لي شيوليان ثانية، فقالت: "أيُّها العُمدَة، ما دمتَ قد طَلَبْتَ ذلك، فسأكرِّر كلامي السابق ثانية". وأشارت بيدها نحوهما قائلة: "قلتُ لهما مرَّتَيْن من قبل، لن أذهب للشكوى هذا العام، ولكنهما لم يُصدِّقاني".

أشار العُمدَة بيده إليهما قائلاً: "تماماً كما كان يحدث في طفولتي، أقول الحقيقة، ولكنَّ مَنْ هم أكبر منِّي لا يُصدِّقوني". ضحك الجميع، فاستمرَّ العُمدَة قائلاً: "نحن فقط نتجاذب أطراف الحديث، أريد أن أسألكِ سؤالاً آخر، ويمكنكِ أن تجيبي أو تمتنعي عن الإجابة أيضاً حسب رغبتكِ، لقد كنتِ تشتكين كلّ عام، لماذا لن تشتكيَ هذا العام بهذا الشكل المُفاجِئ؟".

سؤاله هو السؤال نفسه الذي طَرَحَهُ عليها المُحافِظ ورئيس المحكمة من قبل، فأجابتْهُ الإجابة نفسها قائلة: "في السابق، كنتُ عنيدة، أمَّا الآن، فقد تخلَّيتُ عن عنادي".

تابع العُمدَة يسأل: "هَلَّا أخبرتِني لماذا تخلَّيتِ عن عنادكِ الآن؟ أو ما الذي حَدَثَ تحديداً ليجعلَكِ تتخلّين عن عنادكِ؟ بالطبع يمكنكِ أن تجيبي أو تمتنعي عن الإجابة أيضاً حسب رغبتكِ".

لماذا تخلَّتْ عن عنادها؟ هذا سؤال نسي كلٌّ من المُحافِظ ورئيس المحكمة أن يسألاه في المرَّتَيْنِ السَّابقَتَيْنِ، هما فقط سألاها عن السبب في عدم الشكوى، ولم يسألاها عن سبب التَّخلّي عن عنادها، لم يعرفا السبب، ولذلك لم يُصدِّقاها، هذا السبب الذي نسيا السؤال عنه لم ينسَهُ العُمدَة، فالسؤال عن العِلَّة يُسهِّل معرفة العلاج، والعُمدَة يراعي التفاصيل دائماً، ودقيق في عمله أكثر منهما، وهذا هو سرُّ تفوُّقه.

أجابتْه لي شيوليان: "لا يوجد سبب مُعيَّن، فقط استمعتُ إلى نصيحة البَقَرَة".

هذه الإجابة كانت خارج توقُّعاتهم جميعاً، أو بعبارة أُخرى، هذه المُراوغة جَعَلَتْهُم في حَيْرة من أمرهم، ولم يعرفوا كيف يُجارونها، فسألها العُمدَة متردِّداً: "بَقَرَة؟ أيُّ بَقَرَة؟".

بينما حاول المُحافِظ تدارُك الموقف قائلاً: "انطقي بكلام مفهوم، ما دَخْل البَقَرَة بحديثنا؟".

أجابتْهُ: "طيلة العشرين عاماً الماضية، لم يكن هناك مَنْ أتحدَّث إليه، ولا أحد يُصدِّقني، فكنتُ أتحدَّث إلى بَقَرَتي، هي فقط مَنْ صدَّقتْني، أسأل بَقَرَتي: هل عليَّ أن أستمرَّ في الشكوى؟ فتوافق، وأستمع لنصيحتها، وعندما سألتُها هذا العام، لم تُوافِق، فاستمعتُ لنصيحتها أيضاً".

خيَّم الصمت التَّامُّ على الجميع، ثمَّ تحدَّث السكرتير بغضب قائلاً: "هل حقَّاً توجد بَقَرَة كهذه؟ لا تُمازحينا!".

أجابت: "لا أُمازحُكُم، فهي بَقَرَتي التي ربَّيتُها في بيتي".

تدارك العُمدَة الموقف، وسألها: "هل يمكنني رؤية هذه البَقَرَة؟ أو أن أستمع اليها وهي تنصحُك؟".

ردَّت: "لا، لا يمكنكَ".

سأل مُندهِشاً: "لماذا؟".

أجابت: "لأنها ماتت منذُ عدَّة أيَّام".

خيَّم الصمت والحَيْرة على الوجوه ثانية، وزعق المُحافِظ غاضباً: "جاء العُمدَة خصِّيصاً لمقابلتكِ، يريد مُساعدتكِ في حَلِّ مشكلتكِ، عارٌ عليكِ أن تستخفي بنا هكذا".

سمعت نبرته الحادَّة، فردَّت بنبرة أعلى قائلة: "انظروا، التَّصرُّف نفسه الذي واجهتُم به قضيَّتي، لا يُصدِّقني أحد، على الرَّغْمِ من أنني أقول الحقيقة".

طَلَبَ العُمدَة من المُحافِظ ألَّا يتحدَّث ثانية، ثمَّ خاطبها بابتسامته المعهودة قائلاً: "أُصدِّقكِ أن هذه البَقَرَة موجودة بالفعل، وسأُقنع الجميع أن يُصدِّقوكِ، وسنطلب منكِ ألَّا تذهبي للشكوى ثانية".

قالت: "هذان أمران مُختلفان".

العُمدَة: "أي اختلاف تقصدين؟".

قالت: "أستمع فقط لنصيحة البَقَرَة، ولا أحد غيرها".

العُمدَة: "لماذا؟".

لي شيوليان: "البَقَرَة تنصحني بعدم الشكوى، لأنها قالت إنه لا فائدة من الشكوى، أمَّا أنتم، فتطلبون ذلك لأنكم لا تريدون رَفْع الظُّلم عنِّي، وهذان أمران مُختلفان".

العُمدَة: "ألَّا ترين أننا جئْنا إليكِ خصِّيصاً لحَلِّ مُشكلتِك ورَفْع الظُّلم عنكِ؟".

بَكَتْ قائلة: "لا تخدعوني بكلامكم، لو عرفتُم أني مظلومة لَمَا أتيتُم إليَّ، بل كنتُم حَكَمْتُم بالعدل في قضيَّتي منذُ زمن".

وأشارت بيدها نحو المُحافِظ، ورئيس المحكمة قائلة: "أنتُم جميعاً من الصنف نفسه، جئتُم لتخدعوني، تخافون أن أذهبَ لأشتكيَ في بكين، فتُعزَلُون من مناصبكم. لو كنتُم ترغبون في مساعدتي بالفعل، لماذا لم تأتوا من قبل؟ تأتون فقط مع قرب حلول اجتماعات مجلس نُوَّاب الشعب في بكين، تريدون أن تخدعوني حتَّى تنقضيَ فترة الاجتماعات، وبعدها ستُهملونني كالعادة".

عَقَدَ العُمدَة حاجبَيْه غاضباً، حيثُ أدرك كم هي عنيدة هذه المرأة، لقد جاء ليحلَّ المشكلة القائمة، لكنها ظلَّت تراوغ في كلامها حتَّى جَعَلَتِ البَقَرَة تتحدَّث، وفي النهاية جَعَلَتْهُم في حَيْرة من أمرهم، لا يعرفون كيف يتصرَّفون، لو كان يعرف هذا لَمَا سألها عن السبب، ولَمَا سألها عن البَقَرَة. ولكنْ، لو لم يسألها فكيف سيعرف السبب، وبالتالي يبحث عن الحلِّ المناسب؟ بالطبع، هذا الالتفاف، وهذه البَقَرَة التي تتكلَّم، لن يُعيقا العُمدَة عن مُجاراتها، فقد جاء ليعرف كيف تفكِّر هذه المرأة، وها هو قد علم الآن أن هذه المرأة لن تُقلعَ عمَّا يدور في رأسها. ستذهب للشكوى، على الرَّغْم من أنها تقول عكس ذلك، وقد اتَّضح أن المُحافِظ ورئيس المحكمة على صواب. عدم تنازُلها عن الشكوى هو أمر لن يُرهِبَ العُمدَة، فهذا أشبه بارتكاب مرؤوسيه للأخطاء، فبعضهم يمكن تقويمه، وبعضهم لا، مَنْ يمكن تقويمه هناك مساحة للحديث معه، ومَنْ لا يمكن تقويمه، فلا مجال للحديث معه. وعندما شاهد السكرتير رئيسَهُ على تلك الحالة، نَهَضَ واقفاً، وقال: "انتهى حديث اليوم إلى هذا الحَدِّ، سيغادر العُمدَة الآن، فلا يزال لديه اجتماع مُهمٌّ".

نَهَضَ العُمدَة، وقال مُبتسماً: "حسناً، عليَّ أن أُغادرَ، يمكنكِ أن تتصرَّفي كما ترغبين، لن نُجبرَكِ على فِعْل أيِّ شيء". ثمَّ غادر يتبعه المُحافِظ والسكرتير. أمَّا رئيس المحكمة، فتوقَّف أمامها، وأشاح بيده قائلاً: "أيَّتُها الأُخت الكُبْرَى، كيف لكِ أن تتحدَّثي بهذه الطريقة، نحن نتحدَّث عن الشكوى، ما دَخْل البَقَرَة بهذا؟ ألستِ بهذا تشتمينا؟".

مَسَحَتْ دموعها وهي تقول: "أنا لم أشتمْ أحداً".

قال رئيس المحكمة: "أليس إهانة أن تُقارنينا بالبَقَرَة؟! تُنصتين لكلام البَقَرَة، ولا تُنصتين لكلام الحكومة! أليس معنى هذا أننا نحن المسؤولين لا نساوي حيواناً كالبَقَرَة؟!".

قالت بغضب: "أنتُم لا تُصدِّقوني في أيِّ شيء، لماذا تأخذون كلامي دوماً على مَحْمَلٍ سيِّئ؟ ما دام الأمر هكذا، فسأذهب للشكوى، إذنْ".

خَبَطَ رئيس المحكمة بيده قائلاً: "انظري، ها أنتِ تنطقين بالحقيقة أخيراً".

4

كان بيت لي شيوليان يتكوَّن من ثلاثة أجزاء، الجزءِ الشَّماليِّ ثلاث غرف من الطُّوب، والجزءِ الشَّرقيِّ مطبخ، أمَّا الجزءُ الغربيُّ، فهو حظيرةٌ للأبقار. بُنِيَت الغرف الثلاث بالطُّوب قبل اثنَيْن وعشرين عاماً، وكان قد مرَّ على زواجها من تشين يوخه ستّ سنوات، وكان ابنهما في الخامسة. ومن أجل بناء هذه الغرف، ربَّت لي شيو ليان الأبقارَ، لتبيع العجول الصغيرة، حتَّى نَجَحَتْ في جَمْع نصف المال اللَّازم لشراء الطُّوب والمؤن، أمَّا النصف الثاني، فقد تكفَّل به تشين يوخه الذي يقود شاحنة في مصنع السماد بالبلدة، حيثُ يعمل يوميًّاً أوقاتاً إضافية لكَسْب مال أكثر، فكان يقود الشاحنة ليل نهار حتَّى احمرَّت عيناه، وصار لونهما كلون المصابيح، حتَّى إنه كان ينام في أثناء القيادة ليلاً، وَحَدَثَ ذات مرَّة أن اصطدم بشجرة على جانب الطريق، واضطرَّ لتحمُّل كلفة تصليح الشاحنة التي بَلَغَتْ ألفَي يوان، هي كلُّ ما جَمَعَهُ، لذا كان عليه العمل من جديد لكَسْب المال مرَّة أُخرى. في ذلك الوقت، كان الشجار يتكرَّر بينها وبين زوجها، ولكن الشجار لم ينفِ أن هدفهما واحد، وهمومهما واحدة. لم تكن تتخيَّل أن يتغيَّر تشين يوخه بعد بناء هذه الغرف بعام واحد، فقد ندمتْ، لأنها حَمَلَتْ مرَّة ثانية، واقترحت عليه فكرة الطلاق، وأن يفترقا لستَّة أشهر، لكنْ، تحوَّل الاتِّفاق الزائف إلى واقع حقيقي. لم تتشاجر معه، بل رَفَعَتْ عليه قضية، واستمرَّت القضية لعشرين عاماً، من دون نتيجة حتَّى شَابَ شَعْرها. أكثر ما جَعَلَهَا تشعر بالنَّدَم هو أنها هي مَن اقترحت عليه فكرة الطلاق، وأكثر ما آلمها هو أنها طَرَحَتْ هذه

الفكرة من أجل ابنتها التي كانت حُبْلَى بها، لكن ابنتها بعدما كبرت الآن، لم ترضَ عمَّا فَعَلَتْهُ أُمُّها مع والدها.

أصبحت الغرف متهالِكَة بعدما مرَّ عليها اثنان وعشرون عاماً، الأمطار تتسرَّب من الجدار الخلفي للغرفة الشَّمَاليَّة في مواسم الأمطار، أمَّا الجدران الثلاثة الأُخرى، فكانت حجارتها تتآكل باستمرار من الخارج، وتساقطت معظم طبقات محارتها الدَّاخليَّة. وقبل عشر سنوات، بدأت الأمطار تتسرَّب من السقف أيضاً. لو كان صاحب الشكوى شخصاً آخر، لَمَا اهتمَّ بترميم البيت خلال العشرين عاماً هذه. الوَضْع كان مُختلفاً عند لي شيوليان، في الأعوام العشرة الأولى، لم تكن مُهتمَّة ببيتها، ليس هذا فقط، بل لم تكن تُنظِّفُهُ أو تَكْنُسُهُ، حتَّى صار أشبه بحظيرة حيوانات من الداخل والخارج، ليس هذا فقط، بل لم تكن تهتمّ بنفسها ومَظهرها، فلم تكن تُبدِّل ملابسها الرَّثَّة المتَّسخة، ولم تكن تُصفِّف شَعْرها المنكوش، حيثُ كانت تبدو كالمُتسوِّلين لمَنْ لا يعرفها، وصارت هيئتها بالفعل كشخص مظلوم، يبثُّ شكواه أينما حلَّ. ولكنْ، بعد مرور عشر سنوات، أصبحت لديها عادة شكوى جديدة؛ ليس اعتيادها الذهاب والإياب حاملة شكواها، بل اعتيادها المكوث في البيت، لأنها كانت تمرض أحياناً، ولم تكن قادرة على الخروج، وهذا أمر لم تعتدْه سابقاً. وحين لا تخرج للشكوى، كانت لا تعرف ماذا تفعل. وبسبب هذا التَّعوُّد الجديد، أخذت تعتني بنفسها وبيتها أكثر من السابق، فَقَصَّتْ شَعْرها، وتعوَّدت غَسْل ملابسها بانتظام، وعندما تأتي الفرصة لتخرجَ للشكوى، تُهنْدِمَ نفسَها جيِّداً. لم تهتمّ كثيراً بالجدران الدَّاخليَّة والخارجية، لأنها تحتاج مجهوداً كبيراً لتنظيفها، لكنْ، ليس بوسعها إهمال السقف الذي تتسرَّب منه مياه الأمطار، فاستأجرت عاملاً لتغيير قِرْمِيْدِ السقف، وحَشْوِ الشقوق بالجبس، وحلَّت مشكلة تسرُّب مياه الأمطار. بعدها نظَّفَت الجدران المتهالكة، وعلى الرَّغْمِ من أنها تبدو مليئة بالخربشة بعد تنظيفها، فإنها

أفضل من السابق، وهكذا أصبح بيتها نظيفاً من الداخل والخارج، ومع لَصْق بعض الصور على الجدران، وزراعة بعض النباتات للزينة، لم يعد بيتها يبدو مثل بيت مظلوم ومُنشغل بشكواه.

تفصل ما بين كلِّ غرفة من غرف الجزء الشَّماليِّ للمنزل حواجز خشبية، الغرفة اليُسْرَى مخزن للحبوب والمُتفرِّقات، والوُسْطَى مكان استقبال الضيوف، واليُمْنَى غرفة النوم؛ قبل واحد وعشرين عاماً، كانت غرفة نومها وزوجها تشين يوخه، أمَّا الآن، فهي الغرفة التي تنام فيها وحيدة، وتُعلِّق بجوار النافذة ورقة مُلاحظات، دوَّنتْ فيها كلَّ ما مرَّتْ به من تجارب خلال شكواها على مدار عشرين عاماً، صارت الورقة مهترئة كالخِرْقَة البالية بعد كلِّ هذه السنوات، لكنها تحوي بداخلها أسماء كلِّ الأشخاص الذين قابلتْهم وكلَّ الأماكن التي ذَهَبَتْ إليها، خِرْقَة بالية شاهدة على تحوُّل شَعْرها الأسود الفاحم نحو الشَّيْب، وعلى ترهُّل جَسَدِهَا الممشوق. كانت تأمل أن تساعدَها ورقة المُلاحظات هذه في أن يتحوَّل الطلاق الزائف إلى زائف بحقٍّ، أي تحويل الحقيقة إلى حقيقة، فبعد مرور عشرين عاماً، لا يزال الزَّيْف حقيقة، ولا تزال الحقيقة زَيْفاً. وفي الوقت ذاته، لم تسقط عنها تهمة كونها الخائنة بان جين ليان التي لازمتْها طيلة عشرين عاماً، في البداية، كاد يجنُّ جنونها بسبب هذه التُّهمة، ولكنْ، بمرور الوقت، اعتادت الأمر تماماً كما اعتادت الشكوى، الجميع سواء في المُقَاطَعَة أم المدينة أم المُحَافَظَة يعرفون أنها تذهب للشكوى كلّ عام، لكن الجميع بمرور الوقت نسوا التجارب التي مرَّتْ بها خلال سنوات شكواها، وبمرور الوقت، نسيت هي أيضاً الكثير من التفاصيل المُتعلِّقة بشكواها، فقط ورقة المُلاحظات تلك هي التي لم تُنْسَ، هي الوحيدة التي تتذكّر التفاصيل كافَّة، تماماً مثل دفتر التاجر الذي يُدوِّن عليها مَديُونيَّة زبائنه بالتفصيل.

ووَفْقَاً لما دوَّنتْهُ في ورقتها، فخلال مرَّات عَقْد جلسات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب طيلة العشرين عاماً الماضية، سافرت إلى بكين تسع عشرة

مرَّة، من بينها إحدى عشرة مرَّة أوقَفَتْها الشرطة في مقاطعتها قبل الخروج، وثلاث مرَّات أوْقَفَتْها الشرطة على حدود مُقَاطَعَة خبي المجاورة لبكين، وخمس مرَّات نَجَحَتْ في الوصول إلى بكين، لكن الشرطة المحلِّيَّة لاحقتْها إلى سَكَنِهَا في بكين، وأعادتْها ثانية ثلاث مرَّات، أمَّا في المرَّتَيْن المُتبقِّيَتَيْن، فقد نَجَحَتْ في إحداها أن تصل إلى شارع تشانغان الذي تقع فيه قاعة الشعب الكُبْرَى، فَأَوْقَفَتْهَا شرطة بكين، وفي الأُخرى، وَصَلَتْ إلى ميدان تيان آنمن قبل أن تُوقِفَها شرطة الميدان، أي أنه على مدار عشرين عاماً، لم تنجح لي شيو ليان في دخول قاعة الشعب الكُبْرَى كما فَعَلَتْ في المرَّة الأولى. ولكنْ، لهذا السبب، كانت مُستمرَّة في الذهاب للشكوى كلّ عام. الأمر الذي لم تكن تفهمه هو لماذا يخشى المسؤولون على جميع المستويات في المُقَاطَعَة والمدينة والمُحَافَظَة من ذهابها للشكوى بهذا الشكل، على الرَّغْمِ من عدم نجاحها في إيصال شكواها طيلة تلك الأعوام العشرين. بل حتَّى إن رئيس المحكمة يناديها باسم "الأُخت الكُبْرَى"، ومأمور البلدة يناديها باسم "العمَّة الكُبْرَى". هذا أمر لم تكن تتوقَّعه، فعدم نجاحها طيلة تلك الأعوام جَعَلَ المسؤولين كلَّهم في حالة تأهُّب خوفاً من أن تنجحَ في الوصول إلى قاعة الشعب الكُبْرَى، كما حَدَثَ في المرَّة الأولى.

إنها لا تنوي الشكوى هذا العام، والسبب ليس عدم استطاعتها، أو خوفها من مسؤولي الحكومة، أو لأنها لم تجدْ مَنْ يُنصِفها طيلة تلك الأعوام العشرين، بل لأن هناك مَنْ كان يُصدِّقها، ولكنه مات. مَنْ يُصدِّقها ليس شخصاً، بل بَقَرَتها. قبل واحد وعشرين عاماً كانت بَقَرَتها هذه عِجْلَة رضيعة، تعيش مع أُمِّها في الحظيرة في الوقت والمكان اللَّذَيْن طَرَحَتْ فيهما فكرة الطلاق من تشين يوخه، وبخلاف هذه العِجْلَة وأُمِّها لم يكن أحد في العالم شاهداً على ما دار بينهما بشأن الطلاق. ولأن أحداً لم يشهد ذلك، فقد استغلَّ تشين يوخه الفرصة، وتنصَّل من وَعْده لها، وتزوَّج من امرأة أُخرى بعد طلاقه منها بستَّة شهور قائلاً إنّ طلاقهما كان

حقيقياً، وليس زائفاً. عدم وجود الشاهد هو السبب أيضاً في أنها لم تجد مَنْ يُنصفُها. قبل عشر سنوات كادت أن يُجنَّ جنونها لعدم وجود مَنْ يُصدِّقها، فلم تكن ترغب في التَّحدُّث مع أحد، وكان الجميع يظنُّون أنها فَقَدَتْ صوابها. كانت ابنتها في العاشرة، وتشعر هي الأُخرى أن والدتها فَقَدَتْ صوابها، ولا تجرؤ على النوم معها، بل كانت تذهب للنوم عند الجيران. لي شيوليان أيضاً كانت تعي أنها مُضطربة، وكلّ مساء تتحدَّث إلى البَقَرَة، وتُعلِّمها الكلام، آملة أن يأتيَ يوم، وتستطيع فيه بَقَرَتها أن تتكلَّم كالبشر، وتنطق بالحقيقة، كي تكون شاهداً على قضيَّتها. ولكنْ، كيف لبَقَرَة أن تنطق؟! حَدَثَ ذات ليلة أن ماتت البَقَرَة الأُمُّ، تاركة بَقَرَتها الصغيرة ذات السنوات العشر، بَكَتِ البَقَرَةُ الصغيرةُ أُمَّها، فسارعت لي شيوليان تركلُها بقَدَمها قائلة: "أنتِ فقط تبكين موتَ أُمِّكِ، ولا تبكين على ما تعرَّضَتْ له من ظُلم طيلة هذه السنوات". رَفَعَتِ البَقَرَةُ رأسَها، ونَظَرَتْ إليها، فخاطبتْها لي شيوليان: "إن كنتِ لا تستطيعين الحديث يمكنكِ أن تهزِّي رأسكِ بالموافقة أو النَّفْي، قبل عشر سنوات كنتِ شاهدة على أمر طلاقي، أخبريني، إذنْ، هل كان الطلاق حقيقياً أم زائفاً؟".

لم تتوقَّع أن تهزَّ البَقَرَة رأسها نافية، فاحتضنتْها من رقبتها، وقالت باكية: "أيَا بَقَرَتي الحبيبة، ها أنا أخيراً وَجَدْتُ مَنْ يُصدِّقني في هذا العالم".

عندما سمعها الجيران تبكي ظنُّوا أنها فَقَدَتْ صوابها ثانية، فَذَهَبُوا إليها يواسونها ظنّاً منهم أنها تبكي بَقَرَتَهَا الميتة، لكنها بعدما غادر الجيران، عادت وسألت بَقَرَتَها: "قولي لي رأيكِ؟ هل عليَّ أن أستمرَّ في الشكوى؟". هزَّتِ البَقَرَة رأسها مُوافقة، فاستجمعت شجاعتها، وَمَضَتْ في شكواها. فإنه بعد مرور عشر سنوات أُخرى، هَرِمَتِ البَقَرَة، وأوشكت على الموت، وفي احتضارها، كانت تنظر إلى لي شيوليان نظرة وداع، فسألتْها: "يا بَقَرَتي العزيزة، لا تموتي الآن، فلو متِّ، لن يبقى في هذا العالم مَنْ يُصدِّقني". بَكَتِ البَقَرَة، فاستمرَّتْ تسألها: "أخبريني، إذنْ، قبل أن تموتي، هل عليَّ

أن أستمرَّ في الشكوى؟"؛ فهزَّت البَقَرَة رأسَها نافية، ثمَّ أغمضتْ عَيْنَيْها، ولَفَظَتْ آخر أنفاسها، وأجهشتْ هي في البكاء وهي تنوح: "يا لكِ من بَقَرَة لعينة، حتَّى أنتِ لا تثقين في ربحي لقضيَّتي". استمرَّتْ تبكي وهي تقول: "لم يعد في هذا العالم مَنْ يُصدِّقني، لم يعد لشكواي فائدة بعد الآن".

عندما تموت بَقَرَة أحدهم كانوا عادةً ما يبيعونها إلى جزَّار البلدة، لكن لي شيوليان لم تفعل ذلك مع البَقَرَة الأُمِّ منذُ عشر سنوات، بل جَرَّتْها وَدَفَنَتْهَا عند جُرْف النهر. وكذلك فَعَلَتْ مع الابنة حين ماتت، حيثُ جَرَّتْها وَدَفَنَتْهَا بجوار أُمِّها. وبعدما هزَّت البَقَرَةُ رأسَها نافيةً وماتت، قرَّرت أن تسمع لنصيحتها، ولا تذهب للشكوى ثانية. والحقيقة أن الأمر ليس كذلك تماماً، فهي قد تعبتْ بعد كلِّ هذه السنين. لم تمتْ من التعب، ولكنْ، مات قلبها، وحين دَفَنَتْ بَقَرَتَها، دَفَنَتْ معها عنادها وشكواها. لم تَلُمِ العُمدَة ومَنْ معه حين اتَّهموها بالكذب والخداع، وأنها تسبُّهم بشكل غير مباشر حين حدَّثتْهم عن البَقَرَة، فلو قالت هذا الكلام لأيِّ شخص آخر غير العُمدَة والمُحافِظ ورئيس المحكمة، لن يُصدِّقها. الشيء الذي أغضبها هو لماذا لا يوجد أحد في هذا العالم يُصدِّق كلامها؟ أو بعبارة أُخرى لماذا لا يوجد أحد مثل تلك البَقَرَة؟

كلام البَقَرَة ليس هو السبب الوحيد في قرار لي شيوليان بعدم الشكوى هذا العام، الأهمُّ من كلام البَقَرَة هو كلام زميل دراستها السابق تشاو داتو. قبل عشرين عاماً كان يعمل طبَّاخاً في مقرِّ حكومة المُقاطَعَة ببكين، حين ذَهَبَتْ إليه لي شيوليان، وباتت عنده. وقتها نَجَحَتْ في الدخول إلى قاعة الشعب الكُبْرَى، وهو ما تسبَّب وقتها في تلك الضَّجَّة السِّياسيَّة، كان المُفترَض أن يُلاحَق تشاو داتو قانونيَّاً، لأنه كان طَرَفاً فيما حَدَثَ، لكن كبار المسؤولين أنصفوا لي شيوليان، وانشغل الجميع بإقالة المسؤولين عن أزمة شكواها، كبيرهم وصغيرهم، وتجاهلوا أمر تشاو داتو، واستمرَّ في عمله ببكين لثمانية عشر عاماً دون مشاكل، وتقاعد بعد بلوغه الخمسين،

وعاد إلى مسقط رأسه، ليعمل طبَّاخاً في أحد الفنادق، وتُوفِّيَتْ زوجته بسرطان الثَّدْي قبل عامَيْن، وتزوَّجت ابنته، وصار وحيداً. عادةً ما كان يستقلُّ دَرَّاجته، ويذهب لزيارة لي شيوليان، وتصادف أنه ذَهَبَ لزيارتها بعد موت بَقَرَتها بيومَيْن. جَلَسَا يومها في باحة بيتها، وَقَصَّتْ عليه أمر البَقَرَة، وسألتْهُ قائلة: "هل تُصدِّق أن البَقَرَة تستطيع الكلام؟". هو أيضاً لم يكن يُصدّق أن البَقَرَة تستطيع الكلام، فَنَصَحَهَا قائلاً: "أعرف أنكِ ظُلمتِ كثيراً، ولكنْ، عليكِ تَرْك هذه الهَلَاوِس". حدَّقت فيه قائلة: "أعرف أنكَ لن تُصدِّق. حسناً، سأسألكَ سؤالاً آخر: هل تُصدِّق أنني لن أذهب للشكوى هذا العام؟". دُهش وسألها السؤال نفسه الذي سأله المُحافِظ ورئيس المحكمة: "لقد استمرَّيتِ في شكواك لعشرين عاماً، لماذا ستتوقَّفين الآن فجأة؟". أجابت: "استمعتُ لنصيحة البَقَرَة، فقبل موتها نَصَحَتْنِي ألَّا أذهب للشكوى ثانية". استمرَّ في اندهاشه وقال: "لا يهمُّ إن كانت البَقَرَة قالت هذا أم لا، أريد نصيحتكِ، ولكني أخاف غضبكِ". سألتْهُ: "وما هي النصيحة؟". قال بهدوء: "نصيحة مثل نصيحة البَقَرَة، ألَّا تذهبي للشكوى ثانية، لقد شكوتِ لعشرين عاماً، ألَا ترين أنه لا فائدة من ذلك؟". قالت: "أريد أن أستمرَّ في الشكوى، لأني لم أحصل على نتيجة حتَّى الآن". استمرَّ في هدوئه قائلاً: "هذا ليس ما أقصده، أقصد أنكِ أردتِ من شكواكِ أن تُنغِّصي حياة شخص آخر، ولكن النتيجة هي أنكِ نَغَّصْتِ حياتكِ أنتِ. أريد أن أسألكِ: مَن الذي تسبَّب في وجود هذه المشكلة منذُ البداية؟". أجابت: "السبب هو ذلك اللعين تشين يوخه". تابع قائلاً: "انظري، شَكْوَتِه طيلة عشرين عاماً، ولكنكِ لم تُنغِّصي عليه حياته كما كنتِ تُخطِّطين، بل على العكس، هو الآن ينام في فراشه الدافئ مع زوجته الجديدة، أمَّا أنتِ، فما زلتِ تعيشين وحيدة حتَّى شَابَ شَعْرُكِ".

قالت: "هذا صحيح، ولهذا السبب يملؤني الغيظ، وسأستمرُّ في شكواي".

أردف قائلاً: "حسناً، سأسألكِ سؤالاً آخر، بما أن طلاقكما قبل عشرين عاماً كان زائفاً، لماذا قال تشين يوخه إنه كان صحيحاً؟".

أجابت: "لأنه أراد أن يتزوَّج بتلك العاهرة".

تابع نُصْحَهُ قائلاً: "انظري، يقضي هو أيَّامه مع تلك العاهرة، وأنتِ ما زلتِ تُقلِّبين في أوراق الماضي، وهو، بالتأكيد، لن يقرَّ بزَيْف طلاقكما، وما دام مُتمسِّكاً بعناده، فلن تجدي حلّاً لقضيَّتكِ مهما حَدَثَ".

قالت: "لقد وَقَعْتُ ضحية لهذا الداعر اللعين، كان ينبغي أن أقتلَهُ منذُ البداية".

قال: "قَتْلكِ له بالتأكيد مشكلة أكبر، في رأيي أنه كان عليكِ أن تتصرَّفي مثله منذُ البداية".

سألتْهُ: "وكيف أتصرَّف مثله؟".

أجابها وعيناه تدوران يميناً ويساراً: "ابحثي عن رجل، وتزوَّجي به. تصرَّفي مثله، أن تعامليه كما عاملَكِ أكثر فائدة بكثير من الصراع معه حول الطلاق، لو كنتِ فَعَلْتِ ذلك منذُ زمن، لَعشْتِ هذه السنوات حياة سعيدة، ولم تَضعِي نفسَكِ على هذا الطريق المسدود طيلة تلك السنوات".

دُهشت لي شيوليان من كلامه. فقد كان خلال سنوات الدراسة طفلاً ساذجاً، كما أنه عمل طبَّاخاً طيلة حياته، ولكنْ، في وقت صعب على لي شيوليان مثل هذا الوقت، حدَّثها بكلام لم يخطرْ على بال أحد من قبل. ربمَّا لم يكن يجرؤ على أن يقول لها كلاماً كهذا خلال سنوات الدراسة، ولا قبل عشرين عاماً، ولكنه قال هذا الآن. قبل عشرين عاماً فكَّرَتْ أيضاً في هذا الأمر، حين ذَهَبَتْ إلى تشين يوخه في مصنع السماد، لتسمعَ منه كلمة أخيرة بخصوص حقيقة أو زَيْف طلاقهما، كي يمكنَها التَّخلِّي عن

فكرة الشكوى، وتبدأ حياة جديدة؛ نَعَتَهَا في ذلك اليوم تحديداً بأنها خائنة لزوجها مثل بان جين ليان، وهو ما دَفَعَهَا للاستمرار في طريق الشكوى حتَّى اليوم. هي نادمة الآن، فلو لم تذهبْ إليه يومها، وَبَحَثَتْ عن رجل تتزوَّجه كما فَعَلَ هو وتزوَّج أُخرى، لربمَّا عاشت حياتها في سعادة وهناء، ولم تكن لتعيش وحيدة هكذا طيلة تلك الأعوام العشرين.

ردَّت عليه قائلة: "حَصَلَ ما حَصَلَ، ما الفائدة من قول هذا الآن؟!".

تابع تشاو داتو: "بالطبع له فائدة. يمكنكِ أن تجدي رجلاً تتزوَّجين به الآن".

بَصَقَتْ لي شيوليان على الأرض، وقالت: "أنا الآن في التاسعة والأربعين، وشَابَ شَعْري، مَنْ هذا الذي يتزوَّجني حتَّى لو رغبتُ في الزواج ثانية؟".

أجابها من فوره بلهفة: "أنا".

تسمَّرتْ مكانها، واعتقدتْ أنه يمازحها، ولكن ملامح الجدِّيَّة كانت تكسو وجهه. لم تنجحْ في التَّهرُّب من الرَّدِّ عليه، ليس لأنها لا تستطيع مجاراته في الرَّدِّ، بل لأنها ظلَّت تشكو لعشرين عاماً لتُثبتَ زَيْف طلاقها، كي تتزوَّج زوجها السابق ثانية، ثمَّ تتطلَّق منه فعلياً، وطيلة هذه السنوات لم تفكِّر في الزواج من آخر. كما أنها فُوجِئَت بهذا الكلام الذي قاله تشاو داتو، فاستدركت الموقف، وَرَكَلَتْهُ بقَدَمِها قائلة: "لا تُمازِحْني بهذه الطريقة وأنا في هذه الظروف الصعبة".

تابع باللهفة نفسها: "لا أُمازحكِ، نحن وحيدان، وزواجنا مناسب جدَّاً".

قالت: "الجميع ينعتونني بأني بان جين ليان، وأنني امرأة خائنة".

أجاب: "أنا أُحبُّ بان جين ليان، أُحبُّ النساء المنفتحات".

رَكَلَتْهُ بقَدَمِها ثانية وهي تقول: "انظرْ، ها أنتَ تُمازِحُني ثانية".

تفادى رَكْلَتَهَا وهو يضحك قائلاً: "لا تغضبي، أنا لا أُصدِّقهم، لا أُصدِّق أنكِ بان جين ليان". ثمَّ اعتدل وقال بلهجة جادَّة: "أنصحكِ بأن تفكِّري في كلامي، فهذا أفضل لكِ من المُضِيِّ في طريق الشكوى".

بعدما غادر تشاو داتو، فكَّرَتْ لي شيوليان في كلامه طيلة الليل، وفي الصباح، تيقَّنتْ أن كلامه أكثر واقعية من كلام بَقَرَتها بكثير. البَقَرَة أخبرتْها ألَّا تستمرَّ في شكواها دون سبب منطقي، هي فقط أخبرتْها ألَّا تشتكي، ولم تُخبرْها ماذا تفعل بعدما تتوقَّف عن الشكوى، أمَّا تشاو داتو، فأخبرَها بحَلٍّ آخر، وهو أنها لو تزوَّجت بآخر، فلا داعي للاستمرار في الشكوى، وأنها إذا تزوَّجت بآخر، فلا أساس للشكوى، وأيضاً لو تزوَّجت بآخر، فهذا يُثبت أنها ليست بان جين ليان تلك المرأة الخائنة. ولكن هذا الكلام يظلُّ كلاماً، فزواجها منه أمرٌ مُفاجِئ لها. هو ليس مُفاجِئاً كُلِّيَّاً، فالواقع يقول إن تشاو داتو ليس شخصاً غريباً تعرَّفت عليه مؤخَّراً، فقد كان زميل دراستها قبل ما يزيد عن ثلاثين عاماً، وكان مُعجَباً بها، وعادة ما كان يهديها قِطَع الحلوى من نوع "الأرنب الأبيض الكبير"، كما دعاها إلى ساحة تخزين الحبوب قبل تخرُّجهما، وحاول أن يحتضنَها ويُقبِّلَها، فتظاهرت بالغضب، وَدَفَعَتْهُ بعيداً عنها، فخاف وفَرَّ هارباً. كما أنها أقامت عنده، ونامت في فراشه عندما ذَهَبَتْ إلى بكين للشكوى قبل عشرين عاماً. دَخَلَ عليها الغرفة وهي مُستلقية، وحاول أن يقتربَ منها، لكنها لم تكن نائمة، فتحدَّثت إليه فجأة وقالت: "تشاو داتو، فلتفعلْ ما ترغب في فِعْله"، ثمَّ أضاءت النور، فخاف أيضاً، وغادر على الفور. قبل ثلاثين عاماً، خاف تشاو داتو منها، وقبل عشرين عاماً خاف منها أيضاً، ولكن اليوم مُختلف، فقد تجرَّأَ وَصَارَحَهَا برغبته في الزواج منها، كما لا يخشى من كونها بان جين ليان، ولم يعد ذلك الشخص الذي كان عليه في السابق.

تحرَّكت مشاعر لي شيوليان بالفعل، لكن إقلاعها عن الشكوى وزواجها بشخص آخر هو أمر بحاجة إلى تفكير، فهذا طريق مُختلف، يحتاج منها إلى التَّكيُّف. ولذلك فعندما سألها العُمدَة عن سبب عدم استمرارها في الشكوى، أخبرتهُ بأنها استمعت إلى نصيحة البَقَرَة، ولم تُخبره بأمر تفكيرها بالزواج، أو أنه يعمل طاهياً في أحد فنادق المُحَافَظَة، واسمه تشاو داتو. ولأنها أخبرتْهم بأمر البَقَرَة فقط، ولم تُخبرهم بأمر الزواج، غضب العُمدَة ومَنْ معه ظنَّاً منهم أنها تستخفُّ بهم، وتُحقِّر من شأنهم. وتُسبِّب غضب العُمدَة ومَنْ معه في غضبها منهم. لو لم يأتِ رئيس المحكمة والمُحافِظ والعُمدَة إليها هذا العام، لَكَانت استمعت إلى نصيحة بَقَرَتها، وبعدها نصيحة تشاو داتو، ولم تكن لتذهب للشكوى، لكن مجيء رئيس المحكمة والمُحافِظ والعُمدَة، وطَلَبَهُم منها ألَّا تذهب للشكوى جَعَلَهَا تُدرك أنهم يريدون خداعها حتَّى تنتهيَ فترة انعقاد المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب في بكين، وبعدها، لن يعيروها أيَّ اهتمام، هم يفكِّرون في أنفسهم ومصلحتهم فقط، ويخافون أن تذهب للشكوى في بكين، ويفقدون مناصبهم. علمت نواياهم، وقرَّرت أن تعود وتشتكي ثانية. يمكنها تأجيل أمر زواجها لِمَا بعد الشكوى، فهو أمر تأجَّل لأكثر من عشرين عاماً، ولن يضرَّ تأجيله لبعض الوقت. وحتَّى لو قرَّرت الزواج، فهي تريد أوَّلاً التنفيس عن غضبها قبل زواجها منه، حتَّى لو كانت تلك هي المرَّة الأخيرة. فالشكوى هذه المرَّة لن تكون بسبب زوجها السابق تشين يوخه، بل بسبب رئيس المحكمة والمُحافِظ والعُمدَة.

5

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعدما أخفق لقاء العُمدَة مع لي شيوليان في التَّوصُّل إلى نتيجة، استقلَّ سيَّارته، وغادر البلدة، وظلَّ صامتاً طَوَالَ الطريق دون أن يتحدَّث. كان المُحافِظ يجلس بجواره في المقعد الخلفي للسَّيَّارة، أمَّا سكرتير المُحافِظ، فكان يجلس في المقعد الأمامي بجوار السائق. وما دام العُمدَة يجلس صامتاً، فلن يجرؤ أحد على التَّحدُّث. طريق البلدة مُتعرِّج ومَليء بالمُنعطفات، ولا يُرى سوى أضواء السَّيَّارات القادمة صعوداً وهبوطاً وسط عَتْمَة الليل. ظلَّ الصمت سائداً داخل سيَّارة العُمدَة، إلى أن وَصَلَتْ إلى الطريق السريع، نَزَلَ المُحافِظ منها، ليستقلَّ سيَّارة المُحَافَظَة التي كانت تسير خلفهم عائداً إلى المُحَافَظَة، بينما استمرَّ العُمدَة عائداً إلى المدينة. وَقَفَ المُحافِظ ومُرافقوه على جانب الطريق، يُودِّعون العُمدَة بأنظارهم وهو يغادر بعيداً في سيَّارته. ولكنْ، ما إن وَصَلَتْ سيَّارة العُمدَة إلى مَنفذ تحصيل الرسوم على الطريق السريع حتَّى توقَّفت فجأة، ثمَّ استدارت وعادت ثانية، هُرع المُحافِظ ومُرافقوه نحوها، لينظروا ماذا يحدث. بعدما اقتربوا منها، ضَغَطَ العُمدَة الجالس في سيَّارته على زرِّ إنزال زجاج باب السَّيَّارة، ونَظَرَ إلى الظلام المُطبق في الأُفق حولهم دون أن يتحدَّث. لم يكن بوسع المُحافِظ ومَنْ معه سوى الانتظار بجانب سيَّارة العُمدَة. بعد قليل حوَّل العُمدَة بَصَرَهُ نحو الطريق السريع، وهو ينظر إلى أضواء السَّيَّارات القادمة، وبعد مرور بعض الوقت، تحدَّث في النهاية قائلاً: "لقد فَقَدْتُ الأمل تماماً في تلك المرأة".

شَعَرَ المُحافِظ برجفة في جَسَدِه بعدما سمع العُمدَة يتفوَّه بهذه العبارة. فلو حَدَثَ أن وجَّه العُمدَة عبارة كهذه إلى أحد الكوادر، فهذا يعني أن مستقبله المِهَنِيَّ قد انتهى. ولكنَّ لي شيوليان ليست من الكوادر، هي فقط امرأة رِيفيَّة، لكن جميع المسؤولين بداية من المدينة حتَّى المُحافَظَة لا يعرفون كيف يتصرَّفون معها. تنهَّد العُمدَة قائلاً: "يبدو أنني استخففتُ بها".

لم يعرف المُحافِظ كيف يُجيبه. فقد سمع الجميع بأنفسهم تلك المرأة الرِّيفيَّة، وهي تستخفُّ بالعُمدَة نفسه، بل وتسبُّهُ، وهذا أمر لم يكن يتخيَّله أحد. فَتَحَ المُحافِظ فمه كي يتحدَّث، ولكنه أغلقه ثانية، فَرَمَقَهُ العُمدَة بعَيْنَيْه، ثمَّ خَلَعَ نظَّارته ذات الإطار الذَّهَبِيِّ، وقال: "ما دام الأمر هكذا، فلتتصرَّف في هذا الأمر وَفْقاً لطريقتكَ".

لم يفهم المُحافِظ ما يقصده العُمدَة بتلك العبارة. ما المقصود بقوله وَفْقاً لطريقتكَ؟ أيّ طريقة تلك التي يقصدها؟ وعلى الرَّغْمِ من ذلك لم يجرؤ على الاستفسار. تذكَّر فجأة أمر فَضِّ الاعتصام عندما كان نائباً للمُحافِظ، فَفَهِمَ ما يقصده العُمدَة، وأجاب قائلاً: "سأعود وأُلقي القبض عليها، من السهل إيجاد تهمة لاعتقالها". لم يكن يعي أنه لم يفهم قَصْد العُمدَة. فَعَقَدَ العُمدَة حاجبَيْه، وقال غاضباً: "لم أطلبْ منكَ أن تعتقلها، كيف لكَ أن تعتقلَ شخصاً دون تهمة؟ لو كانت التهمة غير مُناسبة، فستكون العاقبة وخيمة. لقد أُقيلَ الكثيرون من مناصبهم قبل عشرين عاماً، بسبب اعتقالها جُزَافاً، وإلقائها في السجن. أضِفْ إلى ذلك أنه لا يمكنكَ أن تعتقلَها مدى الحياة، ثمَّ إنها ليست امرأة رِيفيَّة عادية، فاسمها صار مرتبطاً الآن بكبار المسؤولين في الدولة، وعلى الرَّغْمِ من أن بعضهم قد تُوفِّي، فإن هذا الأمر لا يزال له تأثيره، ولا يمكننا الاستخفاف به. هي الآن شخصية عامَّة، لا يوجد أحد خارج المُحافَظَة أو المدينة يعرف من هو المُحافِظ تشنغ تشونغ أو العُمدَة ما ون بين، ولكن الكثيرين في الدولة

يعرفونها، هذه المرأة الرِّيفيَّة أشهر منِّي ومنكَ. هي ليست كما تقول إنها المرأة المظلومة، أو كما قال زوجها السابق إنها بان جين ليان، أو كما نقول نحن إنها بثلاثة رؤوس وستَّة أذرع، بل هي أشبه بجنِّيَّات الأساطير أو الملك القرد الخارق في أساطيرنا. كيف لكَ أن تعتقل امرأة كهذه دون سبب حقيقي؟ اعتقالها سيزيد من خطرها".

ومع استمرار العُمدَة في الحديث، زادت وتيرة غضبه، فَشَعَرَ المُحافِظ بجَسَدِه يتصبَّب عَرَقاً، وأخذ يلوم نفسه على التَّسرُّع في الإجابة، وسوء فَهْمه لمَقْصَد العُمدَة الذي أثار غضبه بهذا الشكل. لكن العُمدَة كان مهذَّباً كعادته، فعاد لهدوئه ثانية، وقال: "هذا الأمر يختلف عن قيامكَ بفَضِّ الاعتصام في السابق، فحينها كان المُعتصمون يحاصرون مبنى المُحَافَظَة، ولكن هذه المرأة لم تُحاصِرْ أحداً، لا يمكنكَ قياس كلِّ الأمور على أمر واحد، هل فهمتَ؟".

من المعروف عن المُحافِظ سرعة البديهة، ولكنْ، في ذلك الوقت، بَدَا عقله فارغاً تماماً، ولم يعرف كيف يُجيب. خاف أن يُجيب بشكل خاطئ، كما حَدَثَ في المرَّة الأولى، سيزداد غضب العُمدَة. في تلك الأثناء، مَدَّ السكرتير رأسه من نافذة باب السَّيَّارة، وحاول تهدئة الأجواء قائلاً: "العُمدَة مُحقٌّ فيما قاله، الحلول يجب أن تختلف حسب طبيعة الأمور"، ثمَّ استطرد بلهجة ساخرة: "ما دامت لم تُحاصِر مبنى المُحَافَظَة، سنقوم نحن بمُحاصرتها".

فَهِمَ المُحافِظ ما يقصده العُمدَة، وهو أن يُحاصِرَها، حتَّى لا تستطيع الخروج من البلدة، ولا تتمكَّن من الوصول إلى بكين، وهذه ليست طريقة جديدة، فالمسؤولون عادة ما يفعلون ذلك عندما يرغبون في إعاقة أحد ما عن تصعيد الأمور. فَهِمَ المُحافِظ سبب غضب العُمدَة، فالعُمدَة لم يغضبْ منه، بل كان غاضباً من نفسه، لأنه لم يجد الحلَّ المناسب لإيقاف

تلك المرأة الرِّيفيَّة بعد كلِّ هذا. ولذلك وَجَدَ نفسَهُ مُضطرّاً لهذه الطريقة القديمة، فهو يُحبُّ الابتكار، والقيام بأفعال، لم يسبقْهُ إليها غيره.

ولكي يُخفِّف من غضب العُمدَة، سارع المُحافِظ بالقول: "المشكلة خاصَّة بمحافظتي، والمسؤولية تقع على عاتقي، اطمئنَّ، أيُّها العُمدَة، سوف أتَّخذ الإجراءات اللاَّزمة، لأجعلها تلزم بيتها، ولا تتمكَّن من الذهاب إلى بكين وقت اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب".

6

منذُ شروق شمس اليوم التالي، طوَّق أربعة من أفراد الشرطة السِّرِّيَّة منزل لي شيوليان من الاتِّجاهات الأربعة، وهذا ليس أمراً غريباً عليها، فليست المرَّة الأولى التي تتعرَّض فيها لمراقبة الشرطة، فعادة ما كانت الشرطة تأتي لمراقبتها خلال اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب خلال الأعوام العشرين الماضية. أحياناً يراقبها ثلاثة، وأحياناً أربعة. اعتادت هذا الوَضْع، وكذلك أفراد الشرطة الذين يراقبونها اعتادوا ذلك أيضاً. كانت تتبادل معهم التَّحيَّة، ويعاملونها باحترام، فهي ليست مُذنبة، ولا يوجد بينها وبينهم عداء سابق، وكانوا ينادونها دوماً باسم "الخالة". في كلِّ مرَّة يأتي عدد من أفراد الشرطة لمراقبتها، أحياناً يكون من بينهم شخص راقبها من قبل، فتُبادره قائلة: "ها قد جئتَ ثانية"؛ فيُجيبها الشّرطيّ ضاحكاً: "أيَّتُها الخالة، جئتُ كي أعمل حارساً لديكِ ثانية"؛ فتدخل بيتها لتمارسَ أعمالها المنزلية دون أن تكترث لوجودهم، وعندما تخرج من البيت يسيرون خلفها، فتخاطبهم قائلة: "يا لي من محظوظة! لديَّ كل هؤلاء الحُرَّاس يسيرون خلفي"؛ فيردُّون قائلين: "بالطبع، أنتِ مثل الرئيس الأمريكي تماماً، الحُرَّاس يحيطون به في كلِّ مكان"، وفي أوقات أُخرى، عندما يعطش أفراد الشرطة الواقفين بالخارج، يدخلون منزلها، لتصبَّ لهم الماء.

في ذلك العام، جاء أربعة أفراد، اثنان قُدَامَى، واثنان جُدُد. من بين الجُدُد ابن لاوخو جزَّار البلدة الذي يعمل شرطيّاً. قبل عشرين عاماً، عندما كانت لي شيوليان ترغب في قَتْل زوجها، ذَهَبَتْ إلى شقيقها

تطلب مساعدته، لكن شقيقها فرَّ هارباً، فَذَهَبَتْ إلى لاوخو الجزَّار تطلب مساعدته، وخَدَعَتْهُ بأنها تريده أن يضرب تشين يوخه، وَطَلَبَ لاوخو أن يُضاجِعَها قبل أن يضربَهُ، ولكنها طَلَبَتْ أن يضربَهُ أوَّلاً، ثمَّ تفعل له ما يريد، وبالتالي لم يصلا إلى اتِّفاق. بعدها ذَهَبَتْ واعتصمت أمام مبنى المُحَافَظَة، واعتقلتْها الشرطة، وألقت بها في الحَبْس، وبعدما خَرَجَتْ من الحَبْس، قرَّرتْ قتل تشين يوخه، فَذَهَبَتْ ثانية طَلَبَاً لمساعدة لاوخو، ووافقت على أن تفعل معه ذلك الأمر أوَّلاً، ولكنْ، ما إن سمعها لاوخو تتحدَّث عن قَتْل عدد من المسؤولين حتَّى فرَّ هارباً. لاوخو الآن مريض طريح الفراش، ولم يعد يعمل جزَّاراً في السوق. في اليوم التالي من مجيء أفراد الشرطة لمراقبتها، علمت لي شيوليان أن أحدهم هو ابن لاوخو الجزَّار. لاوخو في الأصل سمين وقصير، بشرته خشنة داكنة، لكن ابنه طويل رشيق وسيم. بعدما علمت أنه ابن لاوخو، ذَهَبَتْ تتحدَّث إليه. وبمجرَّد أن تحدَّثت معه ببعض العبارات، فَطِنَتْ أن هذا الشَّابَّ ليس أهلاً للثقة.

في البداية سألتْهُ: "أنتَ ابن لاوخو!، كيف حال والدكَ؟".

أجاب: "ليس على ما يرام، راقد في فراشه، ينتظر الموت".

سألتْهُ:."وكيف جاء الدَّوْر عليكَ هذا العام لمراقبتي؟".

أجاب: "يريدون معاقبتي، فقد حَدَثَتْ مشادَّة بيني وبين رئيس القسم الشهر الماضي، فَدَفَعَ بي إلى هذا العمل المزعج".

قالت مُتعجِّبة: "أليست مراقبة شخص ما عملاً مُريحاً أم أن القَبْض على الأشخاص أفضل لكم؟".

قال بنفاد صبر: "الكلام سهل، أنتِ تنامين في فراشكِ الدافئ ليلاً، ونحن نقف هنا في البرد طيلة الليل".

قالت: "ومَن الذي طَلَبَ منكم أن تراقبوني؟".

قال: "أيَّتُها الخالة، أنا لا ألومكِ، ولا ألوم نفسي، اللوم يقع على اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب في بكين"؛ فضحكت لي شيوليان من طريقة كلامه.

وعلى الرَّغْمِ من الحديث والمزاح، لكنها كانت عازمة على الذهاب للشكوى. ولهذا، عليها أن تهرب من مراقبتهم، فلو لم تهرب لن تتمكَّن من الذهاب إلى بكين. الوقت لا يزال مُبكِّراً، فلا يزال هناك أسبوع كامل على بداية الاجتماعات في بكين، والذهاب المبكِّر لن يفيد. هربت منهم من قبل، دائماً تهرب في منتصف الليل، أحياناً تنجح، وأحياناً تُخفق.

في ذلك اليوم، جاء تشاو داتو راكباً دَرَّاجته لزيارتها، شاهد الشرطة تُطوِّق منزلها من كلِّ الاتِّجاهات، كان يعرف أحد أفراد الشرطة، فألقى عليه التَّحيَّة، ثمَّ دَخَلَ إلى البيت، وقال ضاحكاً: "هناك مكانان في الصِّيْن لا تنقطع عنهما الحراسة".

سألتْهُ: "وما هما؟"

أجاب مبتسماً: "الأوَّل هو قصر الحُكْم، والثاني هو بيتكِ".

جَلَسَا في باحة منزلها، واستمرَّ تشاو داتو في حديثه معها قائلاً: "هل فكَّرتِ فيما قلتُهُ لكِ؟".

دُهشت قائلة: "فكَّرتُ في ماذا؟".

قال: "أمر زواجنا".

قالت: "لن أفكِّر في هذا الأمر الآن، سأفكِّر فيه لاحقاً".

سألها: "لماذا؟".

أجابت: "قبل أن أفكِّر في هذا الأمر، عليَّ أن أذهب للشكوى".

قال: "ألم تقولي إنكِ استمعتِ إلى نصيحة البَقَرَة؟ وحتَّى لو لم تستمعي إلى نصيحتها، عليكِ الاستماع إلى نصيحتي".

أخبرتْهُ بما حَدَثَ بينها وبين العُمدَة ومَنْ معه، وكيف وَقَعَ الصدام، وكيف افترقوا غاضبين. ثمَّ انفجرت غاضبة وهي تصيح: "لقد تجاوزوا كلَّ الحدود. لم أكن أنوي الشكوى هذا العام، أخبرتُهُم بذلك، ولكنهم لم يُصدِّقوني، بل قالوا إنني مُخادِعة، أنا فقط استمعتُ إلى نصيحة البَقَرَة، وهم يظنُّون أنني بذلك أسُبُّهم. أخبرتُكَ بشأن البَقَرَة المرَّة الفائتة، وقد صدَّقتَني، لماذا لم يُصدِّقوني عندما أخبرتُهُم بالأمر نفسه؟ لماذا دوماً يجعلون منِّي شخصاً سيِّئاً؟ لماذا يرسلون الشرطة لمراقبتي وكأنني مُذنبة؟ هم مَن يدفعونني لهذا التَّصرُّف. في الأساس لم أنوِ الاستمرار في الشكوى من أجل نفسي، ولكنْ، لو لم أشتكِ الآن، فسأصبح بلا شخصية، وسيظنُّون أنهم نَجَحُوا في إعاقتي بواسطة هؤلاء الشّرطيِّيْن. كنتُ أشتكي نكاية بتشين يوخه، ولكني الآن سأشتكي نكاية بهؤلاء المسؤولين الفاسدين، وما داموا يعدُّونني شخصاً سيِّئاً، فسوف أُثبت لهم صحَّة كلامهم. كيف لهم ألَّا يكونوا مثل بَقَرَتي التي تُصدِّقني؟".

شَعَرَ تشاو داتو أنها مُحقَّة، وأنهم قد أخطؤوا في حقِّها، وزادوا من حجم الصراع بعدما كانت تنوي عدم الشكوى. ولكن هذه المشكلة عطَّلت زواجه منها، فأخذ يحكُّ رأسه ويقول: "هَلَّا ترفَّعتِ عن الدخول في صدام معهم؟ وتخلَّيتِ عن شكواكِ، لنبدأ حياة جديدة معاً؟".

قالت: "لا، هم مَنْ أرغموني على هذا، لا أستطيع تحمُّل هذا الظُّلم، حتَّى لو تخلَّيتُ عن الشكوى، فلن أكون سعيدة بعد زواجنا".

أيقن تشاو داتو أنها لن تعدل عمَّا في رأسها، فتنهَّد وقال بغضب:

"لم أكن أتخيَّل أن يفسدَ الأمر بهذا الشكل بعدما كانت الأمور تسير على ما يرام".

قالت: "أريد ان أطلب منكَ مساعدة".

سأل مندهشاً: "ماذا؟".

أشارت نحو الخارج قائلة: "هناك أربعة أشخاص بالخارج يراقبوني، أريد أن أهرب منهم، لأذهب للشكوى، وليس بإمكاني فِعْل ذلك وحدي، هَلَّا ساعدتَني على الهرب؟".

لم يتوقَّع الأمر، فحكَّ رأسه ثانية وقال: "هل تريدين أن أتشاجر معهم؟".

قالت: "تتشاجر أو لا تتشاجر، لا يهمُّ، المهمُّ أن تساعدَني على الهَرَب".

بَدَا مهموماً، وقال: "ولكنْ، لا يمكنني ضَرْب أربعة أشخاص وحدي. كما أنهم من أفراد الشرطة، والشجار معهم عاقبته وخيمة".

بَدَتْ غاضبة، وقالت: "لقد واجهتُهم وحدي لمدَّة عشرين عاماً، وأنتَ لا تستطيع مُواجهتهم ولو لمرَّة واحدة، وتريد الزواج منِّي؟! نحن مُختلفان فكريَّاً، ولن نستطيعَ العيش معاً".

بَدَا قَلِقَاً وهو يقول: "لا داعي للعَجَلَة، أنا فقط أفكِّر، ألَّا تسمحين لي حتَّى بأن أفكِّر؟".

ضحكت قائلة: "هذا وقت اختبارك، اختبرتُ الجزَّار قبل عشرين عاماً، لكنه أخفق، أتمنَّى ألَّا تُخفق مثله".

قال: "أنا لستُ مثله، أنا فقط لم أجد حلاً مُلائماً لمساعدتكِ".

قالت: "فكِّرْ كما يحلو لكَ، لا يزال هناك أسبوع على عقد الاجتماعات في بكين، أمامكَ ثلاثة أيَّام، لتأتيَ وتساعدني".

ولكنْ، مَضَتْ الأيَّام الثلاثة، ولم يأتِ تشاو داتو. فعلمت أنه مثل لاوخو الجزَّار قبل عشرين عاماً، هما فقط يريدان أن يخطبا ودَّها، ولكنْ، دون أن يفعلا أيَّ شيء، وبمجرَّد أن يواجها أيَّ متاعب، يلوذان بالفرار. يمكنها أن تهرب دونه، وستفعل ذلك في منتصف الليل، ولكن الوقت الآن في منتصف الشهر القمري، والقمر مكتمل في السماء، ينير الأرض بوضوح. ظلَّت تراقبهم من نافذة دورة المياه خلال فترات الليل، فتجدهم واقفين منتبهين، ولا توجد أيُّ فرصة لمغافلتهم. فحتَّى لو قَفَزَتْ من فوق السور، وَرَكَضَتْ، فهي الآن في التاسعة والأربعين، وهم شباب يافعون في العشرينيَّات والثَّلاثينيَّات، كما أنها وحدها، وهم أربعة، وبالتأكيد لن تستطيع أن تسبقَهُم. ولو حَدَثَتْ محاولة مُخفقة للهرب، فسوف تزيد من وعيهم، وتُشدِّد من قبضتهم عليها، ولربمَّا أصبحوا ثمانية في اليوم التالي، ستتضاءل فُرص هَرَبِها أكثر فأكثر. لقد ذاقت مرارة إخفاق الهروب في الأعوام السابقة، حينما أمسكوا بها، وعزَّزوا الحراسة حولها، ولم تنجحْ في الهروب بعدها. وبمجرَّد حلول النهار، لن تجرؤ لي شيوليان على القيام بأيِّ تصرُّف لافت للانتباه، وهو ما يُصعِّب من هروبها أيضاً.

ظلَّت تأمل أن تسود الغيوم السماء نهاراً، ولكن الجوَّ كان صافياً للغاية، وبحلول الليل سيكون القمر ساطعاً منيراً. بَدَتْ لي شيوليان حانقة، فحتَّى الظروف لا تمدُّ لها يد المساعدة، بل تعاكسها. في تلك الأثناء، طَرَقَ أحدهم بابها، فظنَّت أنه شرطي جاء ليشرب. فَتَحَتِ البابَ، فَوَجَدَتْ تشاو داتو واقفاً، يسند دَرَّاجته، وعلى الكرسي الخلفي للدَّرَّاجة صندوق من الكرتون.

بَدَتْ مغتاظة وهي تقول: "اعتقدتُ أنكَ لن تأتيَ، لماذا جئتَ، إذنْ؟".

أشار لها بأن تتركَهُ يدخل، ثمَّ رَكَنَ دَرَّاجته، وأخرج من الصندوق ثلاث دجاجات مَشويَّة، وزوجَيْن من أقدام البَقَر المَطهُوَّة، وبضعة كيلوجرامات

من اللَّحْم المسلوق، وستّ زجاجات من خمر "لاوباي قان(*)". ذُهِلَت لي شيوليان، ولكنها فَهِمَتْ ما يقصده، فَجَذَبَتْهُ من يده، وَطَبَعَتْ على وجهه قُبلة سريعة، وقالت: "اعتقدتُ أنكَ شخص عديم الفائدة، ولكنْ، اتَّضح أنكَ بارع في التخطيط، كنتُ أعتقد أنكَ غبيّ، ولكنكَ ماهر حاذق".

سارع يقول: "هيَّا، فلنطبخْ بعض الخضروات".

قاما بتجهيز مأدبة شهية، ثمَّ خَرَجَ تشاو داتو ينادي على أفراد الشرطة الواقفين بالخارج. كان الجوُّ بارداً، وجميعهم جُلوسٌ، يمدُّون أيديهم أمام نار أشعلوها، يستمدُّون منها بعض الدِّفء. كان يعرف أحدهم، فنادى عليه قائلاً: "لاوشينغ، لا تجلسوا في البرد هكذا، تعالوا إلى الداخل، لنشرب معاً بعض الخمر".

نَهَضَ لاوشينغ، وقال ضاحكاً: "نحن في مهمَّة عمل رَسْمِيَّة، كيف لنا أن نجرؤ على شُرب الخمر؟".

ردَّ تشاو داتو: "ألستُم هنا لمراقبة لي شيوليان، هي بالداخل، يمكنُكُم مراقبتها من هنا، أليس هذا أفضل وأسهل؟".

نَظَرَ أفراد الشرطة إلى بعضهم، فاستمرَّ تشاو داتو يقول: "أضفْ إلى ذلك، أنه لا داعي لمراقبتها بعد الآن".

لاو شينغ: "ماذا تقصد؟".

تشاو داتو: "ألستُم هنا لمراقبتها خوفاً من أن تذهب للشكوى؟ هذا العام مُختلف عمَّا قبله، هي لن تذهب للشكوى هذا العام".

عاد لاوشينغ يضحك ببرود وهو يقول: "ومَنْ يُصدِّق مثل هذا الكلام؟".

---

*) أحد أنواع الخمور الصِّينيَّة الشَّعبيَّة المعروفة بقوَّتها وزيادة نسبة الكحول بها.

ردَّ تشاو داتو: "أنا وهي سنتزوَّج، وأدعوكم الآن لتناوُل خمر الزواج، وما دمنا سنتزوَّج، هل تعتقد أنها ستذهب للشكوى كي تُثبتَ أنها لم تتطلَّق؟".

نَظَرَ أفراد الشرطة إلى بعضهم ثانية، وسأل لاوشينغ: "هل هذا صحيح؟".

أجابه: "هذا أمر لا يحتمل المزاح، وحتَّى لو كنتُ أمازحكم، فهي بالتأكيد لن تقبل بمزاح كهذا، مراقبتُكُم الآن لم يعد لها أيُّ فائدة".

حكَّ لاو شينغ رأسه قائلاً: "كلامُكَ منطقيٌّ، ولكنَّا نخاف أن يعرف مأمور القسم أننا شربْنا الخمر في وقت العمل، ويُعنِّفنا".

قام الشّرطيّ ابن الجزَّار لاوخو وسار نحو الداخل وهو يقول: "سوف يتزوَّجان، ونحن في البرد طيلة الليل بلا فائدة، أليس هذا جنوناً؟".

نَظَرَ الثلاثة إلى بعضهم، وساروا بتردُّد خلفه إلى داخل البيت.

بدؤوا في تناوُل الشراب والطعام بداية من الثامنة مساء، واستمرُّوا في شُربهم حتَّى الثالثة فجراً. في البداية كان أفراد الشرطة مُتحفِّظين في شُربهم بعض الشيء، بل حتَّى إن لاوشينغ كان يرفض الشُّرب، ولكنْ، عندما رأى لي شيوليان مُبتهجة تُجهِّز الطعام، ثمَّ تجلس بجوار تشاو داتو على المائدة، وتناولُهُ الطعام بيدها في فمه، صدَّق أنهما فعلاً سيتزوَّجان. وحين تسارعت وتيرة الشراب، صار من الصعب مَنْع أنفسهم من الاستمرار. التهم الجميع الدجاجات وأرجل البَقَر واللَّحْم المسلوق والخضروات الساخنة عن آخرها، وكذلك تجرَّعوا زجاجات الخمر السِّتّ، حيثُ شرب كلٌّ منهم أكثر من نصف زجاجة. خمر لاوباي قان عالي الكحول، ولكنه لم يُؤثِّر على تشاو داتو، فهو يعمل طبَّاخاً، واعتاد على هذا النوع من الخمر. لاو شينغ وابن لاوخو انبطحا نائمَيْن على الطاولة من فَرْط السُّكْر، أمَّا الشّرطيّ الثالث، فَذَهَبَ إلى دورة المياه، وسَقَطَ هناك، والرابع كان مُتيقِّظاً بعض الشيء،

وكان يرغب في الذهاب إلى دورة المياه، ولكن قَدَمَيْه لم تقويا على حَمْلِه. سارعت لي شيوليان وتشاو داتو بتجهيز أمتعتهما، وقاما بإخفاء هواتف أفراد الشرطة في كيس بلاستيكي، ألقياه فوق سقف المنزل، ثمَّ أغلقا الباب بالقفْل، وامتطيا الدَّرَّاجة مُغادرَيْن تحت ضوء القمر. أدرك الشّرطيّ المُتيقِّظ ما حَدَثَ، فحاول اللحاق بهما، ولكنه لم يقوَ على الوقوف، فَزَحَفَ على الأرض نحو الباب، وأخذ ينادي قائلاً: "توقَّفا مكانكما!". لكن تشاو داتو ولي شيوليان كانا قد غادرا بعيداً.

7

سادت حالة من الفوضى داخل المُحَافَظَة والمدينة بعد هروب لي شيوليان. في البداية كانت المشكلة منحصرة داخل المُحَافَظَة فقط، فقد أُصيب المُحافِظ بالذهول فور علمه بنبأ هروبها، ولم يجرؤ على إخطار العُمدَة، وفكَّر في حَلِّ هذه المشكلة داخل نطاق المُحَافَظَة والعثور على لي شيوليان، وإعادتها ثانية عن طريق شرطة المُحَافَظَة. ستتوجَّه بالتأكيد إلى بكين، لذلك وزَّع المُحافِظ دوريات الشرطة لفَحْص جميع محطَّات الحافلات والقطارات، ومنافذ الطُّرُق السريعة المتَّجهة إلى بكين كافَّة. ليس هذا فقط، بل استنفر قوَّة، قوامها يزيد على أربعمائة شرطي أيضاً لفَحْص جميع منافذ الطُّرُق المتَّجهة نحو المدينة والمُقَاطَعَة. لكنْ، مضى يوم كامل دون أن ينجحَ هذا العدد الهائل من أفراد الشرطة في العثور عليها.

في ذلك الوقت، علم العُمدَة من مكتب الأمن بهروب لي شيوليان، فَهَاتَفَ المُحافِظ قائلاً: "أيُّها المُحافِظ، سمعتُ أنكَ مشغول جدَّاً اليوم".

فَهِمَ المُحافِظ أنه علم بما حَدَثَ، وأن الأمر انكشف، فأجابه قائلاً: "كنتُ أنوي إبلاغكَ حالاً".

العُمدَة: "ما الفائدة في أن تُبلغَني؟ ما أريد معرفته الآن هو هل عثرتَ عليها بعد كلِّ هذه الجَلَبَة أم لا؟".

لم يجد المُحافِظ بُدَّاً من أن يجيبَهُ بالحقيقة قائلاً: "لا، لم نعثر عليها بعد".

ثار العُمدَة بشدَّة وهو يقول: "قلتُ لكَ مرَّاتٍ عديدةً، عشُّ النمل الصغير يهدم السَّدَّ المنيع، والوقاية خير من العلاج، والخسارة الكبيرة تأتي من الإهمال البسيط، كيف ترتكب الخطأ نفسه مرَّات ومرَّات؟ لماذا لا تهتمُّ بالتفاصيل الصغيرة كما أخبرتُكَ؟ كيف لشرطة المُحَافَظَة بأكملها ألَّا تنجح في العثور على امرأة رِيفيَّة؟ المشكلة بسبب الشرطة الآن، ولكن أين جَذْر المشكلة؟ أرى أن المشكلة فيكم كمسؤولين، لا تُدركون أهمِّيَّة الأمر أم أنكم عديمو المسؤولية؟ هذا يُشعِرُني ببعض الإحباط".

بالنسبة إلى كوادر الحكومة، عندما يقول العُمدَة إنه مُحبَط من أحدهم، فهذا يعني انتهاء مستقبله المِهَنِيِّ، وعلى الرَّغْمِ من أنه قال "ببعض الإحباط"، لكن كلمة "بعض" هذه جَعَلَتْ المُحافِظ يتصبَّب عَرَقاً، كما أن العُمدَة قال أيضاً عبارة "عديمو المسؤولية"، والتي سارع المُحافِظ بالرَّدِّ عليها مُتَلَجْلِجاً: "هذا خطؤنا، لم نؤدِّ عملنا كما ينبغي، هذا خطؤنا، نحن لم نؤدِّ عملنا كما ينبغي، يمكنكَ أن تطمئنَّ، لقد تعلَّمتُ الدرس جيِّداً، وأتعهَّد بأنني سأعثر على تلك المرأة خلال يومَيْن".

اليومان اللذان تحدَّث عنهما هما الفترة المتبقِّية قبل عقد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب في بكين، لذلك حين سمع العُمدَة كلامه انخرط في الضحك، ولكن هذه الضحكات كانت مُختلِفة عن ضحكاته المعتادة، فهذه ضحكات باردة مستهزئة، ثمَّ أتبع هذه الضحكات بقوله: "تعهُّدكَ هذا لا يصحُّ أن يكون تعهُّداً، فتلك المرأة ليست قطعة من الحَجَر قابعة في كهف، تنتظر منكَ أن تعثر عليها، هي إنسان، لديه قَدَمَان، يسير بهما، أنتَ لا تعرف أين هي، وإلى أين هربتْ، كيف ستعثر عليها خلال يومَيْن؟".

لم يعرف المُحافِظ كيف يجيب عن سؤاله، هو فقط يريد أن يُعبِّر عن التزامه بالعثور عليها، ولم يتخيَّل أن يُدقِّق العُمدَة في كلامه هكذا، ولو

حَدَثَ أن دقَّق المسؤول في كلام مَنْ هو أدنى رتبة منه، فهذا يعني أن صاحب الرتبة الأدنى لن يتمكَّن من التبرير، وهذا ما حَدَثَ بالضبط مع المُحافِظ الذي لم يعرف كيف يُجيب. بَدَا العُمدَة وكأنه لا يستطيع الاستماع إلى ثرثرة المُحافِظ، فاستمرَّ يقول: "سأذهب إلى بكين بعد غد للمشاركة في الاجتماعات، لا أريد أن أقابل تلك المرأة هناك، تلطيخ أو تبييض سُمعة المدينة أو سُمعة المُحَافَظَة أمر يعتمد عليكَ، والأمر مُوكَل إليكَ الآن".

أغلق العُمدَة الهاتف بعدما انتهى من كلامه، بينما ظلَّ المُحافِظ ممسِكاً بسمَّاعة الهاتف لبعض الوقت وهو في حالة من الشرود، لا يدري كيف يتصرَّف، بل اكتشف أن ملابسه تبلَّلت من شدَّة التَّعرُّق. حديث العُمدَة له كان مليئاً بالتَّهكُّم والسخرية، ويحمل مبالغات، يصعب تقدير خطورتها. أمسك المُحافِظ بكأس الشاي، وَقَذَفَهُ على الأرض، فَحَطَّمَهُ، ثمَّ أمسك بسمَّاعة الهاتف، واتَّصل برئيس الشرطة في المُحَافَظَة يستدعيه إلى مكتبه. رئيس الشرطة كان مشغولاً طيلة اليوم، حتَّى إنه لم يتناول الغداء أو العشاء. وحين مثلَ أمام المُحافِظ، بادره قائلاً: "هل عثرتَ على تلك المرأة؟".

سؤاله لرئيس الشرطة كان كسؤال العُمدَة له. بَدَا رئيس الشرطة مُرتبِكاً، وقال: "لا، ليس بعد".

إجابتُهُ تلك كانت مثل إجابة المُحافِظ على العُمدَة، فاستشاط المُحافِظ غضباً، وحدَّق فيه بعينَيْن يتطاير منهما الشَّرَر قائلاً: "الكلاب لها فائدة أكثر منكم، كيف لا تستطيعون مراقبة شخص واحد دون أن يهربَ منكم؟ أمامكم يوم واحد، لتعثروا على تلك المرأة، كي أراها، وإن لم تفعلوا، أحْضِرُوا بدلاً منها خطابات استقالتكم".

لم يجرؤ رئيس الشرطة أن يردَّ على المُحافِظ بأيِّ كلام، بل غادرَ من فوره، ليستمرَّ في البحث عن لي شيوليان. استمرَّ يوجِّه تعليماته لقوَّات

الشرطة بالإسراع في عمليات البحث، وزَجَّ بأفراد الشرطة الأربعة، الذين كانوا يراقبونها ليلة هروبها ومعهم مأمور شرطة البلدة، في السجن. هو لم يزجّ بهم في السجن كمجرمين، فهروب شخص من الشرطة ليست جريمة يعاقب عليها بالسجن، بل زجَّ بهم في السجن لمراقبة المجرمين، وهذا بمثابة عقوبة قاسية على أفراد الشرطة. وقبل أن يزجَّ بهم في السجن أخذ يسبُّهم بنفس العبارات التي سبَّهُ بها المُحافِظ: "الكلاب لها فائدة أكثر منكم، كيف لا تستطيعون مراقبة شخص واحد دون أن يهرب منكم؟ أليست لديكم قدرة على مراقبة الأشخاص؟ حسناً، سأُعلِّمكم كيف تراقبون المجرمين، وبعد عشر سنوات، ستتعلَّمون كيف تكون مراقبة الناس".

ظلَّ مأمور شرطة البلدة يصرخ ويقول إنه لا ذنب له فيما حَدَثَ، ثمَّ صبَّ جام غضبه على أفراد الشرطة الأربعة الذين تسبَّبوا في هَرَبِ لي شيوليان، بينما أخذ هؤلاء الأربعة يُقرُّون بخطئهم، ولكنهم نَجَحُوا في إخفاء أمر شُربهم الخمر في بيت لي شيوليان، فقط قالوا إنهم لم يلحظوا هروبها، فلو حَدَثَ أن اكتشف المأمور قيامهم بشُرب الخمر، فستكون العاقبة وخيمة للغاية.

في خضمِّ هذا الاضطراب، كان رئيس المحكمة هادئاً، فعلى الرَّغْمِ من أن هناك علاقة مباشرة بين قضية لي شيوليان وبين المحكمة، فإنه لا توجد علاقة بين هروبها وبين المحكمة، فهذا أمر يخصُّ الشرطة، ولا يمتُّ للمحكمة بصلة.

8

بعدما نَجَحَا في الهرب، استقلَّ تشاو داتو ولي شيوليان الدَّرَّاجة متَّجهَيْن نحو الشرق. هروبهما من البيت كان من أجل التَّوجُّه إلى بكين للشكوى، وبكين تقع في الجهة الشَّمَاليَّة، ومن المُفترَض أن يتَّجها شَمَالاً، لكنَّ لي شيوليان تعلَّمت الدَّرْس مُسبَّقاً خلال سنوات صراعها مع الشرطة. قريتها تقع في الجزء الشَّرقيِّ للمُحَافَظَة، والاتِّجاهات الشَّماليَّة والجنوبية والغربية جميعها تبعد عن حدود المُحَافَظَة مسافات تتفاوت بين الخمسين والمائة كيلو متر، فقط الجهة الشَّرقيَّة تبعد عن حدود المُحَافَظَة ثلاثين كيلو متراً، ولو أرادت الهَرَبَ بسرعة من قبضة الشرطة في هذه المُحَافَظَة، فعليها أن تتَّجه شرقاً. ولم يتَّجها شَمَالاً كما هو مُفترَض، بل توجَّها شرقاً، وهذا أيضاً بمثابة تشتيت لانتباه الشرطة. في البداية كانت لي شيوليان مُتحمِّسة للغاية، ولكنْ، بعدما قَطَعَا خمسة كيلومترات، بدأ القلق يساورها. خافت أن يستفيق الشّرطيّان السكرانان، وخاصَّة ذلك الشّرطيّ الذي لم يسكرْ كُلِّيَّاً، ويُبلِّغ مركز الشرطة، وستنتشر الشرطة، وتُطوِّقهما من كلِّ مكان. ظلَّ تشاو داتو يقود دَرَّاجته بكلِّ ما أُوتي من قوَّة وهي خلفه، وبعدما قَطَعَ عشرة كيلومترات بلَّل العَرَقُ ملابسه بالكامل. أرادت هي أن تقود بدلاً منه، لكنه رَفَضَ بشدَّة، فَنَزَلَتْ، وأصرَّت أن تقودَ بدلاً منه. لم يجد بُدَّاً من أن يُوافِقَها، فقادت لي شيوليان الدَّرَّاجة لمسافة سبعة كيلومترات، حينها استعاد بعض طاقته، فعاد ليقود الدَّرَّاجة بدلاً منها. قبل حلول النهار، نَجَحَا في الهرب لمسافة ثلاثة كيلومترات خارج حدود المُحَافَظَة؛ فترجَّلا من على الدَّرَّاجة، وَجَلَسَا فوق أحد الجسور لالتقاط أنفاسهما.

وتنفَّست لي شيوليان ملء رئَتَيْهَا، وقالت: "الشُّكْر لبوذا، لقد نَجَحْنا في عبور الحاجز الأوَّل".

قال: "لقد كانت فكرتكِ رائعة، التَّوجُّه شرقاً كان الحَلَّ الأفضل، ولن يُعطِّلَنا كثيراً عن الذهاب إلى بكين".

قالت: "أشكركَ على مساعدتكَ، لولاكَ لَمَا نَجَحْتُ في الهرب. ها نحن الآن خارج المُحَافَظَة، يمكنكَ أن تعود إلى بيتكَ، وسأُكمل الطريق وحدي".

قال مندهشاً: "لا، لن أعود".

فسألتْهُ بحَيْرة: "لماذا؟"

ردَّ بهدوء: "لا سبيل لعودتي الآن، فَكِّري قليلاً، ساعدتُكِ في الهَرَب من الشرطة، وأنا الآن هدف للحكومة، ولو عدتُ سيعتقلونني".

كان هذا أمر لم يخطرْ على بال لي شيوليان فعلاً.

استمرَّ في هدوئه قائلاً: "توقَّعتُ كلَّ هذا، لا مشكلة لديَّ. كما أني عملتُ في بكين لثلاثين عاماً، وأعرف الأحوال هناك أكثر منكَ".

لكنها لم تتوقَّع منه هذا، فشَعَرَتْ بالامتنان الشديد نحوه فجأة، وسارعت تحتضنه قائلة: "تشاو داتو، بعدما ننتهي من أمر الشكوى، سأتزوَّجكَ".

وهي تحتضنه قال: "تورَّطتُ معكِ على أيَّة حال، وما دمنا سنتزوَّج، يمكنني الذهاب معكِ للشكوى كلّ عام لو أردتِ".

استراحا قليلاً، ثمَّ وَاصَلَا طريقهما، وبحلول الظَّهيرة، وَصَلَا مركز المُحَافَظَة المجاورة لمحافظتهما. انتابهما التعب ثانية بعد كلِّ هذه

المسافة، وكانا خائفَيْن أن تُوسِّع الشرطة نطاق بحثها إلى المحافظات المجاورة، كما أنهما يعرفان أن العثور عليهما في النهار أسهل بكثير، فَبَحَثَا عن مطعم، تناولا فيه بعض الطعام، ثمَّ ذَهَبَا لفندق صغير في زقاق ناء، ليستريحا حتَّى قدوم الليل، ثمَّ يواصلان رحلتهما. في الفندق حَجَزَا غرفة واحدة، لسَبَبَيْن: الأوَّل هو توفير المال، والثاني هو أنهما لم يعودا غريبَيْن عن بعضهما، وسَكَنهما معاً لا يعني أنهما يرغبان في فِعْل أمر ما. ولكنْ، ما إن دَخَلَا إلى الغرفة، حتَّى احتضنَها تشاو داتو، ثمَّ حَمَلَهَا نحو السرير، وَنَزَعَ ملابسها. حاولت هي التَّخلُّص منه وهي تصيح: "لا تضايقْني، لو تماديتَ أكثر، سأغضب منكَ".

قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وهما زميلا دراسة، كان مُعجَباً بها، ودعاها إلى ساحة تخزين الحبوب، وحاول أن يحتضنَها، ويُقبِّلها، وتظاهرت هي بالغضب، ودفعتْهُ بعيداً عنها، فخاف وفرَّ هارباً. وقبل عشرين عاماً، أقامت عنده، ونامت في فراشه عندما ذَهَبَتْ إلى بكين للشكوى، وَدَخَلَ عليها وهي مستلقية، وحاول أن يقترب منها، لكنها لم تكن نائمة، فتحدَّثت إليه فجأة قائلة: "تشاو داتو، فلتفعلْ ما ترغب في فِعْله"، ثمَّ أضاءت النور، فخاف أيضاً، وغادر على الفور. قبل ثلاثين عاماً خاف منها، وقبل عشرين عاماً خاف أيضاً، ولكنْ، اليوم ليس كذلك، فحتَّى عندما قالت إنها غاضبة وحاولت التَّخلُّص منه، لم يَخَفْ ويهرب، بل ظلَّ يحتضنها بعنف، ونَزَعَ عنها ملابسها وهو يقول: "حبيبتي، لقد انتظرتُكِ لعشرات السنين".

كانت لي شيوليان مُرهَقة بسبب قيادة الدَّرَّاجة طيلة اليوم، ولم تقوَ على مقاومته. ما لَفَتَ انتباهَها هو من أين جاء بكلِّ تلك القوَّة رَغْمَ قيادته للدَّرَّاجة منذُ البارحة؟ على أيَّة حال، فهما في طريقهما إلى بكين للشكوى، كما أنهما قد اتَّفقا على الزواج، فاستسلمتْ له في النهاية. وعرَّاها من كلِّ ملابسها، ثمَّ خَلَعَ ملابسه، وبدون أيِّ مقدِّمات، انقضَّ عليها، وَضَاجَعَهَا. لم تمارسْ لي شيوليان الجنس منذُ واحد وعشرين عاماً، لذلك اضطربتْ

قليلاً في البداية، ولم تتخيَّل أنه بعدما تمكَّن منها تشاو داتو، سيعبث بجَسَدِهَا ببراعة، تكشف مدى تمكُّنه من السيطرة على جسد المرأة. شَعَرَتْ بالاضطراب قبل أن يتمكَّن من معاشرتها، ولكنْ، بعدما تمكَّن منها زال اضطرابها. في البداية لم يُحرِّك جَسَدَهُ السُّفليَّ، بل شرع يَلْعَقُ شحمة أُذُنها، ويُقبِّل جبينها وشَفَتَيْها، ثمَّ تحوَّل، وانتقل يَلْعَقَ ثَدْيَيْهَا؛ فاسترخَتْ تماماً، فبدأ يُحرِّك جَسَدَهُ السُّفليَّ. حركات جَسَدِهِ السُّفليِّ كان لها نَسَق معيَّن، تارةً خفيفة وتارةً عنيفة، تارةً يميل يميناً وتارةً يساراً، وهو ما سارع من وتيرة شُعُورها بالإثارة. إثارة لم تشعر بها منذُ واحد وعشرين عاماً. بعدما وَصَلَتْ إلى قمَّة استثارتها، عدَّل من حركات جَسَدِهِ السُّفليِّ بوتيرة أسرع، ارتفاعاً وانخفاضا تارةً، يَمْنَةً ويَسْرَةً تارةً، وللأمام والخلف تارةً. وفجأة، وَصَلَتْ هي إلى ذروة نشوتها، فصرخت من فَرْط اللَّذَّة، وصولها إلى الشعور بالذِّرْوة الجنسية لم يمنعْهُ من التَّوقُّف، بل صار يدفع للأمام والخلف بعنف أكبر، وهو ما جَعَلَهَا تشعر بذروة النشوة مرَّة ثانية، فَصَرَخَتْ ثانية من فَرْط اللَّذَّة. في الماضي عندما كانت بُرْقَة تشين يوخه لم تشعرْ بهذا النوع من الشعور المتتالي بالنشوة. هذا المَدعوُّ تشاو داتو يبدو من هيئته أنه وديع وساذج، ولكنْ مَنْ ذا الذي يتخيَّل أن يكون بارعاً هكذا في أمر مثل هذا، وعلى الرَّغْم من تخطِّيه الخمسين وقيادته طَوَالَ الليل للدَّرَّاجة، فإنه ما زال لديه كلُّ هذه القدرة الجنسية والجسدية؟! في النهاية، توقَّفت تأوُّهاتهما وصرخاتهما، ثمَّ استلقيا عاريَيْن على الفراش.

بَكَتْ قائلة: "تشاو داتو، لا تنس أن ما فعلتَهُ يُسمَّى اغتصاباً".

مَسَحَ دموعها، ورَبَّتَ بيده على فخذها وهو يقول: "أَجَّلْنا هذا الأمر لأكثر من ثلاثين عاماً". ثمَّ هَمَسَ في أُذُنها قائلاً: "هل شعرتِ بالمتعة أم لا؟".

لم ترغبْ في النهوض من جواره، فقالت بحَرَج: "ألَّا تخجلُ من نفسكَ

أن تفعل هذا الأمر في وَضَح النهار هكذا؟". ثمَّ دَفَنَتْ رأسها في أحضانه قائلة: "لم أشعر بشعور مثل هذا طيلة حياتي".

ولأنه قام بالأمر على أفضل وجه، فقد أدَّى ذلك إلى تغيير مسارهما ووجهتهما. جَذَبَ الغطاء من فوق جسدَيْهما، بحيثُ لم يظهر منه سوى رأسَيْهما، وأمسك بيدها قائلاً: "عزيزتي، أريد أن أسألكِ، هل يُحبُّ الشخص أن يكون برُفْقَة مَنْ يُحبُّ أم برُفْقَة شخص لا علاقة له به؟".

=: "ما هذه الحماقة؟! هل هذا سؤال يحتاج إلى إجابة؟!".

-: "وهل يُحبُّ الشخص أن يكون برُفْقَة شخص يحبُّه أم برُفْقَة شخص يكرهه؟!".

=: "هذا سؤال أكثر حماقة من سابقه".

-: "حسناً، ما دمتِ تعدِّينه سؤالاً أحمق، فهذا يدلُّ على أنكِ حمقاء".

دُهشت لي شيوليان، وسألتْهُ: "ماذا تقصد؟".

-: "ما دمتِ تعرفين أنه يوجد حبيب ومكروه، أنصحكِ بألَّا تستمرِّي في شكواكِ، فالشكوى معناها بُعدكِ عن الحبيب وقُربكِ من الذي تكرهينه، لو كانت لشكواكِ فائدة فالأمر يستحقُّ، ولكنكِ تفعلين هذا لأكثر من عشرين عاماً دون نتيجة، ومن غير المؤكَّد أن تؤتي هذه المرَّة نتيجة، فليس هناك اختلاف هذا العام بالنسبة إليكِ أو إلى مَنْ تشكينه".

=: "أنا أيضاً أدركتُ هذه الحقيقة مؤخَّراً، لم أكن أريد الشكوى، ولكن الأمر اختلف الآن، ليس لأنني لا أريد الاستماع لنصيحة البَقَرَة، بل لأن هؤلاء المسؤولين الفاسدين هم مَنْ دَفَعُوني إلى ذلك، وَجَعَلُوني أعدل عن قراري، فهم يفهمون كلامي دوماً على مَحْمَلٍ خاطئ، وعادة ما يروني شخصاً سيِّئاً. هذه المرَّة لن أشتكيَ تشين يوخه، بل سأشتكي هؤلاء المسؤولين الفاسدين".

-: "أنا أيضاً أعرف أن هؤلاء المسؤولين الفاسدين أكثر قُبحاً من تشين يوخه، ولأنهم بالفعل كذلك، فالصراع معهم سيتطلَّب بَذْل مجهود أكبر، وبخلاف هذا المجهود الكبير، فلن تكون هناك نتيجة للصراع معهم".

اعتدلتْ جالسة، وتنهَّدت قائلة: "ولكني لا أستطيع كَتْم غيظي منهم".

خَبَطَ على يده قائلاً: "هذا ما أتحدَّث عنه، بسبب غيظكِ منهم، دَخَلَتِ في صراع معهم لمدَّة عشرين عاماً، ولو حَدَثَ واستمرَّيتِ في هذا الصرع لعشرين عاماً أُخرى سنصبح في السبعين، ألستِ بذلك تُعطِّلين حياتكِ، وتُعطِّلين زواجنا؟".

ثمَّ مدَّ يده يتحسَّس فخذها، فنامت بجواره ثانية، واستمرَّ يقول: "لقد صَدَقَ الْمَثَلُ حين قال، التسامح يمنح صاحبه الرضا. أنتِ وحيدة تصارعين كلَّ هؤلاء المسؤولين الكبار ذوي السلطة، وأنتِ لا تملكين أيَّ شيء في مواجهتهم. يمكنهم استخدام سلطتهم وقوَّتهم متى شاؤوا، ألسنا الآن نهرب منهم لهذا السبب؟ من أين لنا بالقوَّة لمواجهتهم؟ نحن لا نخشى أن يكون صراعنا معهم بلا نتيجة، ولكننا نُضيِّع سنوات عُمُرنا هَبَاء، إلى متى تريدين الاستمرار عالقة في بركة الوحل هذه؟ إن لم نُخرِج أنفسنا من هذه البركة، فلن يُنقِذَنا أحد، ولن نعيشَ أيَّامنا القادمة في سعادة وهناء". ثمَّ سألها: "ألسنا الآن نعيش في سعادة، وتغمرنا المتعة؟".

لم يكن هذا الحديث ليدورَ بينهما بهذه الطريقة، لولا العلاقة الجنسية الممتعة التي سَبَقَتْهُ، فلو حَدَثَ أن دار بينهما حوار كهذا في الماضي، لم تكن لتُنصتَ إليه. ولكنْ، مع المتعة الجنسية التي حَصَلَتْ عليها اليوم، شَعَرَتْ أن كلامه صحيح. قبل عشرين عاماً، كانت في التاسعة والعشرين، ولديها طاقة كي تتصارعَ من أجل قضيَّتها، أمَّا الآن، فهي في التاسعة والأربعين، ولو استمرَّتْ هكذا لسنوات أُخرى، فسينقضي عُمُرها في هذا الصراع. تشاو داتو مُحقٌّ فيما قاله، لن يُنقذَها أحد ممَّا هي فيه، لو لم

تُنقذْ نفسَها بنفسها، أو بعبارة أُخرى، حديثه معها ساعدها أن تُعيدَ تفكيرها وتُنقِذَ نفسها. لم تُجبْهُ، فقط انخرطت في البكاء. شَعَرَتْ بالغلِّ والكره تجاه الأعوام العشرين الماضية؛ فمدَّ يده يمسح دموعها وهو يقول: "علينا أن نُعيد التفكير، ونرجع إلى بيتنا، ونتزوَّج. فما دمنا سنتزوَّج، لن يكون هناك داع، كي نخوض صراعاً مع هؤلاء. وما دمنا قد تخلَّينا عن صراعنا معهم، فلن يعاقبونا بسبب هروبنا من الشرطة بالأمس".

نَهَضَتْ وهي تقول: "حتَّى لو كان الأمر كما تقول، يمكننا أن نتخلَّى عن أمر الشكوى، ولكنْ، لا يمكننا العودة الآن".

سألها: "لماذا؟".

أجابت "علينا أن نستمرَّ في مضايقتهم للمرَّة الأخيرة، لو عدْنا إلى بيتنا، فسيعرفون أننا لن نشتكيَ، ولكنْ، لو لم نعدْ، سيعتقدون أننا ذاهبَيْن إلى بكين للشكوى، وهذا ما يخشونه، وسيتعقَّبوننا إلى هناك. لو قرَّرْنا ألَّا نشتكيَ هذا العام، فلن نعودَ إلى قريتنا، وسنتركهم يذهبون إلى بكين بحثاً عنَّا".

وَافَقَهَا قائلاً: "صحيح، صحيح، علينا أن نضايقَهم للمرَّة الأخيرة، لو لم نذهبْ إلى بكين، فكيف سيعثرون علينا هناك؟ ولو لم يعثروا علينا هناك، سيفقدون صوابهم. ولكنْ، في نفس الوقت، لا يمكننا البقاء هنا، فنحن لا نزال قريبَيْن من المُحَافَظَة، ويسهل عليهم العثور علينا هنا".

سألتْهُ مندهشة: "أين سنذهب، إذنْ؟".

أجاب: "سأصحبكِ في نزهة إلى جبل تايشان، هل ذَهَبْتِ إلى هناك من قبل؟".

بَدَتْ متحمِّسة وهي تقول: "على مدى عشرين عاماً، كنتُ مشغولة بأمر الشكوى، فقط ذَهَبْتُ إلى بكين، ولم أذهبْ إلى مكان آخر".

قال: "المناظر هناك بديعة، عندما ترين الشمس تشرق فوق الجبل، ستشعرين على الفور أنكِ تخلَّصتِ من همومكِ".

وضح التوافق التَّامُّ بينهما. جَذَبَهَا نحوه، ثمَّ احتضنها بقوَّة، فدفعتْهُ قائلة: "ألم تكتفِ بعد؟ لقد كبرْنا على هذا". لكنه مال بجَسَدِه فوقها ثانية، وأخذ يضاجعها وهو يقول: "لم أكن أتخيَّل أن أستعيدَ شبابي معكِ بهذا الشكل".

في صباح اليوم التالي، أودعا دَرَّاجتهما في مخزن الفندق، واستقلَّا الحافلة متوجِّهَيْن نحو جبل تايشان. كانت هناك بعض الإصلاحات في الطريق، ممَّا جَعَلَهُ مُكتظَّاً بالسَّيَّارات، فاستغرقت المسافة منهما وقتاً أطول من المعتاد بكثير، وَصَلَا إلى مدينة تايآن، حيثُ يقع جبل تايشان بحلول الخامسة والنصف عصراً. لم يُسعِفْهُما الوقت للذهاب وتسلُّق الجبل؛ فَبَحَثَا عن فندق في زقاق بعيد ناءٍ، ليبيتا فيه. في تلك الليلة، لم يتوقَّف تشاو داتو أيضاً، واستمرَّ يضاجعها كالليلة السابقة. وفي صباح اليوم التالي، تناولا الفطور، وانطلقا نحو جبل تايشان. ومن أجل توفير المال، لم يركبا التليفريك، بل تسلَّقا دَرَجَ الجبل المرتفع المُتعرِّج على أقدامهما. كان هناك الكثير من المُتسلِّقين أمثالهما، جاؤوا من كلِّ مكان، ووكانوا يتحدَّثون بلُكْنَات مُختلفة. كانت تلك أيضاً هي المرَّة الأولى التي تخرج فيها خصِّيصاً للتَّنزُّه، لذا كانت تتسلَّق الجبل بحماسة شديدة، وتُلقي التَّحيَّة على النسوة اللَّاتي يقابلْنَها. أمَّا هو، فقد استنفد قواه خلال اللَّيلَتَيْنِ الماضيَتَيْن، فكان يلهث بشدَّة وهو يتسلَّق الجبل، ولم يكن مُهتمَّاً بالحديث إلى الآخرين كما تفعل هي، بل حتَّى لم يكن قادراً على الحديث معها. وعندما رأتْهُ على تلك الحالة ضحكت قائلة: "من الذي طَلَبَ منك أن تفعل ما فَعَلَتْه في اللَّيلَتَيْنِ الماضيَتَيْنِ؟ فلننتظرْ ونرَ ماذا ستفعل في الليالي القادمة".

حاول أن يبدوَ مُتماسِكاً وهو يقول: "الموضوع ليس له علاقة بما تقولين، أنا فقط أعاني من التهاب المفاصل".

في المعتاد يتمكَّن المُتسلِّقون من الوصول إلى قمَّة الجبل بحلول الظَّهيرة، لكن تشاو داتو كان يتسلَّق ببطء، وتسبَّب في إبطاء سرعتها أيضاً، فمع حلول الظَّهيرة كانا قد وَصَلَا فقط إلى مُنتصف الجبل، حيثُ يوجد معبد صغير، فَجَلَسَ على الأرض، وَمَسَحَ عَرَقَهُ وهو يقول: "لي شيوليان، يمكنكِ أن تُكملي التَّسلُّق وحدكِ، وسأنتظركِ هنا".

ردَّت بنبرة تحمل بعض خيبة الأمل قائلة: "لقد جئْنا معاً، وليس لتسلُّق الجبل بمفردي معنى".

هو بالفعل لم يكن قادراً على الاستمرار، فلم تُجبرْهُ على ذلك، وقالت: "حسناً، فلنسترح قليلاً، ثمَّ ننزل".

قال بأسف: "كنتُ أتمنَّى أن نصعد قمَّة الجبل اليوم حتَّى نشاهد شروق الشمس صباح الغد".

وَاسَتْهُ قائلة: "عندما كنتُ صغيرة كنتُ أعمل يومياً في الحقل مع حلول الفجر، وأشاهد شروق الشمس هناك كلّ يوم".

قال: "شروق الشمس هنا مُختلِف عن غيره".

سألت: "أين الاختلاف؟! أليست كلُّها شمساً واحدة؟!".

جَلَسَا هناك، وتناولا الخبز والبيض المسلوق الذي أحضروه معهما. استراحا قليلاً، ثمَّ نَزَلَا من الجبل. وكان قد التقط أنفاسه، فعاد يقول: "سنأتي إلى هنا ثانية العام القادم، لا يمكننا أن نتخلَّى عن هذا الأمر".

قالت: "هذا لا يهمُّ، المُهمُّ أننا جئْنا إلى هنا، لا داعي لإنفاق المال لرؤية المكان نفسه، لو كان لا بدَّ، فلنذهبْ إلى مكان آخر".

نَزَلَا من الجبل، وَذَهَبَا إلى أحد المطاعم، وتناولا الفطائر والمعكرونة بلحم الضأن، ثمَّ عادا إلى الفندق للراحة. في تلك الليلة، لم يُعِدِ تشاو داتو الكَرَّةَ كما حَدَثَ في اللَّيلَتَيْنِ السَّابقَتَيْنِ، بل رَقَدَ بجوارها، وَشَرَعَا يتجاذبان أطراف الحديث. بدأ الحديث بالمرحلة الثَّانويَّة حين كانا زميلَي دراسة قبل ثلاثين عاماً. وسألتْهُ منذُ متى وهو مُعجَب بها، أجابها قائلاً: "بالطبع، أُعجبتُ بكِ منذُ أوَّل مرَّة رأيتُكِ فيها".

دَفَعَتْهُ وقالت مستهجنة: "أوَّل مرَّة رأيتَني فيها كنَّا في الصَّفِّ الأوَّل الإعدادي، وكنتُ حينها في الثالثة عشرة. أنتَ لم تنتبه لي إطلاقاً خلال المرحلة الإعدادية".

وَجَدَ نفسه مضطرَّاً للاعتراف أنه كان مُعجباً بها منذُ المرحلة الثَّانويَّة، فقال: "لقد كنتِ فتاة صغيرة في المرحلة الإعدادية، ولم تنضجي كأُنثى سوى في المرحلة الثَّانويَّة".

سألتْهُ عن مصدر النقود التي كان يشتري لها بها حلوى "الأرنب الأبيض الكبير"؛ فأجابها: "كنتُ أسرق النقود من والدي، وقد ضُربتُ كثيراً بسبب ذلك".

ضحكت وهي تطبع قُبلة على جبينه، ثمَّ تابعت تسأله عن سبب هروبه منها بعدما دَفَعَتْهُ بيدها في اليوم الذي استدرجَها فيه إلى ساحة تخزين الحبوب، فتنهَّد قائلاً بحسرة: "كنتُ جباناً، لو لم أكن جباناً وقتها، لَتَغَيَّرت حياتنا تماماً من يومها. لم أصبح جريئاً إلَّا بعد ثلاثين عاماً".

مازحتْهُ قائلة: "وهل أنتَ جريء الآن؟ أنتَ الآن لستَ سوى شخص وقح، لا يخجل من نفسه".

ضحكا طويلاً، ثمَّ انتقلا للحديث عن زملاء دراستهم ومُعلِّميهم، فقد مَضَتْ ثلاثون عاماً، ومعظم هؤلاء قد مات، كما أنهم نسوا أسماء معظم

الزملاء. من الزملاء مَنْ مات أيضاً، والبقية تفرَّقوا في كلِّ مكان، ومنهم مَنْ صار له أبناء وأحفاد. وبالحديث عن الأبناء والأحفاد، تذكَّرت لي شيوليان ابنتها. قالت إنها ربَّت ابنتها منذُ صغرها، ولكن ابنتها تخلَّت عنها بعدما كبرت، وهذا ما جَعَلَهَا حزينة مهمومة. هي تتفهَّم موقف هؤلاء الناس الذين يهاجمونها، لأنهم لا يعرفون تفاصيل الحكاية، ولكن ابنتها عاشت معها، وتعرف كلَّ التفاصيل، وعلى الرَّغْمِ من هذا، فإنها لم تكن تتفهَّم موقف والدتها، وكانت تشعر بالحرج أمام الناس بسبب تصرُّفاتها، وهذا ما أغضب لي شيوليان بشدَّة. بل إن ابنتها تزوَّجت في سنِّ التاسعة عشرة، لأنها تريد أن تعيش بعيداً عن أُمِّها، ولم تكن تأتي لزيارتها إلَّا نادراً. ابنها الذي أَسْمَتْهُ تشن يوتساي، يعاملها بشكل أفضل، على الرَّغْمِ من أنه عاش برُفْقَة والده تشين يوخه. ابنها بَلَغَ الثلاثين، قابلتْهُ مصادفة في الخريف الماضي في أحد الشوارع، ولأنها لم تقابلْهُ منذُ وقت طويل، فلم تستطع التَّعرُّف عليه، لكنه تعرَّف عليها، فنادى عليها، ثمَّ ذَهَبَ وَوَقَفَ أمامها. حدَّق كلٌّ منهما في الآخر طويلاً، ثمَّ قال ابنها: "يا أُمِّي، تقدَّمْتِ في السِّنِّ كثيراً. أعرف أنكِ عانيتِ كثيراً، ولكنَّ هذا لا يعني ألَّا تهتمِّي بنفسكِ هكذا".

وقبل أن يغادر دَسَّ في يدها مائَتَي يوان. وحين وَصَلَتْ بالحديث إلى هنا، تساقطت دموعها، فمدَّ تشاو داتو يَدَهُ يمسح دموعها، ويقول: "أعتقد أن ابنكِ مُحقٌّ فيما قاله، عليكِ أن تهتمِّي بنفسكِ".

تنهَّد هو الآخر قائلاً إن ابنه كان مُخفقاً في دراسته، وإنه حاول تلقينه مهنة الطبخ، لكنه لم يطقِ الوقوف أمام الموقد. ابنه الآن تخطَّى الثلاثين، وليس له عمل ثابت، هو الآن عامل مؤقَّت في المكتب البيطري بالمُحَافَظَة، ويكسب القليل من المال الذي لا يكاد يكفيه هو وزوجته وابنه، وغالباً ما يأتي ليطلبَ منه بعض المال. تشاو داتو يعمل الآن طبَّاخاً في أحد فنادق المُحَافَظَة، ولا يكسب الكثير، ولحسن الحظِّ لديه معاش من عمله السابق، ويمكنه أن يُوفِّر بعض المال. تنهَّد وقال: "تربية الأبناء الآن أمر مُرهِق للغاية".

انتهيا من حديثهما، ثمَّ خَلَدَا إلى النوم. واستيقظا في صباح اليوم التالي، وتجوَّلا في شوارع المدينة، ولكنْ، دون أن يشتريا أيَّ شيء، فالأشياء التي جَذَبَتْ أنظارهما كانت غالية، والأشياء الرخيصة غير مفيدة، فعادا ثانية إلى الفندق. اقترح عليها أن يذهبا إلى مدينة تشيفو مسقط رأس كونفوشيوس التي تبعد عنهم خمسين كيلو متراً. فهناك لن يكونا في حاجة إلى تسلُّق الجبل، كما أنه قد دَرَسَ حياة كونفوشيوس في المرحلة الإعدادية، ويحفظ العديد من أقواله، ولديه رغبة منذُ زمن في زيارة مسقط رأسه، وهما الآن يتنزَّهان، وليس لديهما هدف محدَّد.

أجابتْهُ قائلة: "حسناً، حتَّى لو لم يكن الأمر يتعلَّق بزيارة بلدة كونفوشيوس، فقد سمعتُ أن حلوى السِّمْسِم هناك لذيذة للغاية، فلنذهبْ، ونتذوَّقْها". هزَّ رأسه مُوافِقاً وهو يقول: "صحيح، صحيح، فلنذهب ونقارن حلوى السِّمْسِم التي كان يتناولها كونفوشيوس بحلوى "الأرنب الأبيض الكبير" التي كنتُ أهديها لكِ".

وهكذا، فمن أجل تناوُل حلوى السِّمْسِم، قرَّرا الذهاب إلى مدينة تشيفو مسقط رأس كونفوشيوس. ذَهَبَ تشاو داتو إلى محطَّة الحافلات لشراء التذاكر، بينما عادت لي شيوليان إلى الفندق لتجهيز أغراضها. بعدما انتهت من تجهيز الأغراض، قرَّرت أن تذهب لشراء سترة صُوفيَّة، تهديها إليه. فعلى الرَّغْم من أن الربيع قد حلَّ، فإن الجوَّ كان بارداً ليلاً. هي أحضرت معها سترتها الصُّوفيَّة وقت الهروب، أمَّا هو، فكان مشغولاً بشُرب الخمر مع أفراد الشرطة، لذا هَرَبَ مرتدياً سترة خفيفة فقط. يومها خرَجَا معاً للتَّنزُّه في الصباح الباكر، ولاحظت أنه يشعر بالبرد، وبينما كانا في أحد المتاجر، أرادت أن تشتري له سترة صُوفيَّة، لكنه قال إنه سعرها مرتفع، ولم يدعها تشتريها. هما الآن على وشك السَّفَر إلى مدينة أُخرى، وهي قلقة أن يصاب بالبرد، وستكون تكلفة شراء الدواء أغلى من ثمن السترة الصُّوفيَّة. خَرَجَتْ من الفندق بعدما جهَّزتْ أغراضها، وتوجَّهتْ إلى أحد

متاجر الملابس القريبة، لتشتريَ له سترة ثقيلة. نَجَحَتْ في شراء السترة بخمسة وثمانين يواناً، وَحَمَلَتْهَا عائدة إلى الفندق، كما اشترتْ في طريقها بعض الخبز الجافِّ والأطعمة المحفوظة، كي يأكلاها خلال رحلتهما. أرادتْ أن تدفع الباب عندما وَصَلَتْ أمام غرفتها داخل الفندق، لكنها سمعتْ تشاو داتو الذي كان قد اشترى تذاكر الحافلة، وعاد قبلها إلى الفندق يتحدَّث في الداخل. مع مَنْ يتحدَّث؟ تنصَّتَتْ من خلف الباب، فعلمت أنه يتحدَّث في الهاتف. الحديث في الهاتف أمر اعتيادي، وهمَّت أن تدفع الباب، لتدخلَ، لكنها سمعتْهُ يتحدَّث بغضب قائلاً: "لا أريد إزعاجكَ بمكالماتي المستمرَّة، ولكني أدَّيتُ مهمَّتي، فهل فَعَلْتَ أنتَ ما طَلَبْتُهُ منكَ؟". لم تعرف ما الذي قاله الطرف الآخر على الهاتف، فَبَدَا تشاو داتو غاضباً، واستمرَّ يقول: "أنتَ مشغول فقط في إخبار المُحافِظ بشأن قيامي باستدراج لي شيوليان كي لا تذهب للشكوى، وليس لديكَ وقت للحديث مع المسؤولين بخصوص عمل ابني". لم تسمع ما الذي قاله الطرف الآخر على الهاتف، لكنها سمعتْهُ يقول: "أنا لا أثق في الحكومة، أريد أن أرى النتيجة بعينَيَّ". ثمَّ سَكَتَ قليلاً، وقال: "هذان أمران مُختلفان، كيف يمكنني أن أجعلَكَ ترى النتيجة بعينَيْكَ؟ هذا أمر غير معقول، أتريد أن تتأكَّد بنفسكَ وتراني وأنا أضاجع لي شيوليان في الفراش؟". لم تسمع ما الذي قاله الطرف الآخر على الهاتف، وسمعتْهُ يقول: "لماذا لا تحلُّ مشكلة عمل ابني بما أني قد خلَّصتُكُم من مشكلتها؟ سأعود وأتزوَّجها، وبالتأكيد لن تذهب للشكوى".

9

اسم عضو اللجنة القَضَائيَّة الحالي بالمُحَافَظَة: جيا تسونغ مينغ(*).
قبل عشرين عاماً كان دونغ شيانفا يشغل هذا المنصب. ذَهَبَتْ إليه لي شيوليان كي تشتكيَ، لكنه قال إن هذه القضية لا تخصُّه، وَوَقَعَ بينهما شجار، فَشَتَمَهَا بأنها امرأة سليطة، وَطَلَبَ منها أن تغرب بعيداً عنه؛ فَذَهَبَتْ للشكوى في قاعة الشعب الكُبْرَى، وأُقيلَ هو ورئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة. بعد إقالته ذَهَبَ لبيع المواشي في السوق، وقبل عشر سنوات، أُصيب بجلطة دماغية، وتُوفيِّ بعدها بثلاث سنوات، وتحوَّل كلُّ هذا إلى ماض انقضى وانتهى.

جيا تسونغ مينغ في الثانية والأربعين الآن، وقد شَغَلَ منصب عضو اللجنة القَضَائيَّة لمدَّة ثلاث سنوات. وقبل شهور قليلة تقاعد نائب رئيس اللجنة القَضَائيَّة، وصار منصبه شاغراً، ففكَّر أن يقتنص ذلك المنصب. أن يترقَّى من منصب عضو اللجنة القَضَائيَّة إلى منصب نائب رئيس اللجنة القَضَائيَّة ليس بالقفزة الكبيرة بالنسبة إليه، ولكن عضويَّته للَجنة قَضَائيَّة منصب شكليّ، ليس له صلاحيات. شكليَّاً هو منصب أعلى من رئيس المحكمة، ولكنه لا يتمتَّع بالسلطات التي يتمتَّع بها رئيس المحكمة. كان عليه أن يتنافس على هذا المنصب الشاغر مع رؤساء المحاكم والقُضَاة، فهناك ما يزيد على عشر محاكم، لكلٍّ منها رئيس: المحكمة الجنائية الابتدائية، والعليا، والمحكمة المَدَنيَّة الابتدائية، والعليا، والمحكمة الاقتصادية

---

*) معنى اسمه بالصِّينيَّة هو: مُدَّعي الذكاء.

الابتدائية، والعليا، ومحكمة الطفل والمحكمة التَّنفيذيَّة وغيرها. وهناك أيضاً بقية القُضَاة في المحاكم الفرعية بالبلدات التابعة للمُحَافَظَة. ومجموع هؤلاء القُضَاة ورؤساء المحاكم يتخطَّى الثلاثين، ولديهم جميعهم رغبته نفسها في اقتناص هذا المنصب. ولأن منصب عضو اللجنة القَضَائيَّة هو منصب شكلي، بلا صلاحيات، فلم يكن العديد من رؤساء المحاكم يعيروا جيا تسونغ مينغ أيَّ انتباه. إن وجود ما يزيد على ثلاثين شخصاً يتصارعون على عَظْمة واحدة لَهُوَ أمر كفيل بأن يُؤجِّج الصراع على أشدِّه. وعليه ظلَّ هذا المنصب شاغراً لشهور دون أن ينجحَ أحد في اقتناصه. الجميع قَلِقُون لهذا السبب ما عدا رئيس الهيئة القَضَائيَّة وانغ قونغ داو. فهناك حبَّة من العنب في يده يتصارع عليها ما يزيد على الثلاثين قرداً، ولكنه لن يُلقيَها إلَّا لواحد منهم فقط، وما دامت حبَّة العنب في يده، فستظلُّ القِرَدَةُ تحوم حوله. ولو ألقاها في فم أحدهم، سينصرف عنه البقية. أمَّا القرد الذي سيأكلها، فسوف ينصرف لاحقاً، ويصبح ناكراً للجميل هو الآخر. لعبة السياسة الآن أشبه بالتجارة، الكلُّ يجب أن يدفع مقابل ما يأخذ، وإبقاؤه على حبَّة العنب في قبضته لن يُبقيَ القِرَدَةَ يحومون حوله فقط، بل سيخطبون ودَّه، ويُقدِّمون فروض الطاعة، ويجلبون له ما يريد.

هذه هي الطريقة التي تدرَّج بها وانغ قونغ داو في المناصب، وهو يتَّبعها الآن مع مَرؤوسيه. نُوَّاب رئيس الهيئة القَضَائيَّة سعداء أيضاً من هذه الطريقة، فهم يحصلون على منافع متفاوتة من جرَّائها. وهو، بالطبع، يتحصَّل على النصيب الأكبر، لكنهم قانعون بالقليل الذي يتحصَّلون عليه. ومرور الوقت دون تعيين نائب جديد، يزيد من هذه المنافع. رئيس المحكمة ومَنْ هم في طبقته نفسها ليسوا هم المستفيدين الوحيدين من هذه الطريقة، بل حتَّى المُحافِظ ونائبه وغيرهم من كبار المسؤولين يتحصَّلون، أيضاً، على بعض المكاسب، فبعض المتنافسين على هذا المنصب قد يذهبون لرَشْوَة كبار المسؤولين في المدينة.

رَشْوة المسؤولين تتطلَّب أن يكون لديكَ مال، وهذه نقطة ضعف جيا تسونغ مينغ بالمقارنة مع بقية المتنافسين. فبسبب أن منصبه شكلي بلا صلاحيات، لم يكن هناك مَنْ يقدِّم له رَشَاوَى، أمَّا رؤساء المحاكم، فلهم صلاحيات كبيرة، ويتحصَّلون على رِشَى، تفوق ما يتحصَّل عليه بكثير. ولأن هذا هو واقعه، كان جيا تسونغ مينغ فاقداً للهمَّة والعزيمة، راتبه لم يكن كبيراً، فقط يتقاضى ألفَي يوان شهريّاً، وزوجته تعمل ممرِّضة، وتتقاضى ألف يوان، وأبوه بائع مُتجوِّل، يبيع الزنجبيل، ولا يجني سوى ما يسدُّ رَمَقَهُ، وبخلاف النفقات الأساسية، لم يكن يتوفَّر لديه مال، كي يشتريَ هدية أو يدفع رَشْوَة إلى رؤسائه. فليس من المناسب أن يهديهم زجَاجَتَي زيت طعام أو دَجَاجَتَيْن أو سلَّة من الزنجبيل! كما أن العادة قد جَرَتْ أن يتمَّ رَشْوَة المسؤولين بالمال مباشرة. أكثر من ثلاثين شخصاً يتنافسون على تقديم رِشَى مالية، معظمهم لديه موارد، يتحصَّل منها على أموال، فحتَّى لو تقشَّف جيا تسونغ مينغ وَوَفَّر ما يستطيع توفيره لشهور، فالآخرون قد يفوقونه في شهر واحد. كما أنه قدَّم بعض الرِّشَى بالفعل في السابق، ولم يعد لديه أيُّ مدَّخرات. ولو حَدَثَ أن أخفق في شغل هذا المنصب، فسيذهب كلُّ ما أنفقه سابقاً سدى. من الناحية الشَّكليَّة، هو في منصب أعلى من رئيس المحكمة، ولكنْ، لو أخفق في اقتناص هذا المنصب، فسيصبح رئيس المحكمة هو رئيسه المقبل. فلن يفقد الترقية فقط، بل سيفقد ماء وجهه أمام رئيس المحكمة الذي سيصبح رئيسه. هذا أمر لا يستطيع تقبُّله، ولكنه من عائلة فقيرة لا تملك المال، بل إن عائلته تعتمد عليه مالياً، كما أن ذوي المال لا يعيرونه أيَّ انتباه، لأنه بلا سلطة. ظلَّ يفكِّر طويلاً في حَلٍّ لهذه المشكلة، ولكنْ، دون نتيجة. وذات ليلة عاد والده بائع الزنجبيل من السوق، فشاهده مهموماً، ولمَّا سأله عن السبب، أجابه بغضب قائلاً: "السبب هو أنتَ".

دُهش والده قائلاً: "أنا لا أعرف سبب همومكَ، فكيف أكون أنا السبب؟".

أخبره الابن عن أمر الترقية إلى منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة، وأنه لا يملك المال لرَشْوَة المسؤولين، ثمَّ أخذ يلومه قائلاً: "أنتَ تعمل في التجارة، لماذا لم تعمل في تجارة العقارات بدلاً من تجارة الزنجبيل؟ كنَّا سنصبح أثرياء، ولم نكن لنحمل هَمَّ أمور كهذه".

تنهَّد والده بأسى، وحاول نُصْحَهُ قائلاً: "ألَا توجد وسيلة أُخرى لحَلِّ هذه المشكلة بخلاف المال؟".

أجابه: "هناك طريقة أُخرى، وهي أن تذهب لتشغل منصب حاكم المُقَاطَعَة، حينها لن نكون في حاجة للمال، بل هم مَنْ سيتوسَّلون لي كي أشغل هذا المنصب".

شَعَرَ والده بقلَّة الحيلة، فحاول نُصْحَهُ ثانية قائلاً: "قبل أن أعمل في بيع الزنجبيل، كنتُ أساعد أحد الأشخاص في بيع الخمور المُزيَّفة، وكان علينا رَشْوَة المسؤولين يومياً، ووَفْقَاً لخبرتي في هذا الأمر، فلو كنتَ تحتاج المُساعدة من غيركَ، فعليكَ مُساعدته في حَلِّ مشكلة يواجهها أوَّلاً، هذا أكثر تأثيراً من الرَّشْوَة".

فَهِمَ جيا تسونغ مينغ فجأة، فقال بهدوء: "لقد فهمتُ الآن لماذا كانت كلُّ تلك القضايا التي كنتَ تطلب منِّي إلغاءها لها علاقة بالخمور المُزيَّفة".

ثمَّ تنهَّد طويلاً، وقال: "ولكن هذا الأمر مُختلف عن بيع الخمور المُزيَّفة، فنحن لسنا في مواجهة تجَّار جشعين، بل في مواجهة مسؤولين كبار، التُّجَّار الجشعون قد يحتاجون لمُساعدتنا، فهل سيحتاج كبار المسؤولين إلى مساعدة أشخاص مثلنا؟!".

ولكن الفرج جاء سريعاً، حيثُ علم جيا تسونغ مينغ بعدها بأمر عاجل قد يحتاج المسؤولون مساعدته فيه. فوالده بائع الزنجبيل كان صديقاً

لتشاو داتو الذي يعمل طبَّاخاً في أحد الفنادق بالمُحَافَظَة. صداقتهما لم تأتِ لأن أحدهما طبَّاخ، والآخر يبيع زنجبيلاً، والطَّبَّاخ دائماً يحتاج الزنجبيل، بل لأنهما يُحبَّان الثرثرة والقيل والقال. أمَّا والده، فيعشق الثرثرة منذُ صغره، أمَّا تشاو داتو، فكان صامتاً قليل الكلام قبل بلوغه الأربعين، وبعدما تجاوزها صار ثرثاراً عاشقاً لكثرة الحديث. والشخص المُحبُّ للثرثرة منذُ صِغَرِه لا تفارقه أبداً هذه الخَصْلَة، أمَّا الصامت الذي يتحوَّل فجأة إلى ثرثار، فما أسهل أن يُدمِنَ الثرثرة، بل حتَّى قد لا يتحمَّل أن يمرَّ عليه يوم دون أن يجد شخصاً يثرثر معه. ولهذا، كان تشاو داتو يحبُّ زيارة الثرثارين أمثاله، فزوجته تُوفِّيت، ولا شيء يشغله، ولأن الثرثرة صفة مشتركة بينه وبين والد جيا تسونغ مينغ، كان يذهب بعد انتهائه من العمل إلى بيته، ليُثرثرا معاً. ومن بين ما تحدَّثا عنه هو اقتراب موعد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب في بكين، وتطرَّقا بالحديث إلى قصَّة لي شيوليان المعروفة للجميع. لم يستطع تشاو أن يكتم حقيقة مشاعره تجاهها، وأنه مُعجَب بها منذُ كانا في المرحلة الثَّانويَّة، وكيف كان يهدي لها حلوى "الأرنب الأبيض الكبير"، وكيف استدرجَهَا إلى ساحة تخزين الحبوب، وحاول تقبيلها، وعن أمر ذهابها إلى بكين ومَبيتها في فراشه، وأنه كان على وشك أن يضاجعَها يومها.

وهما يثرثران بشأنها تصادف أن جيا تسونغ مين كان في المنزل. المتحدِّث لا يدرك كثيراً من تفاصيل ما يتحدَّث بشأنه كما يفعل المستمع، فبينما كان جيا تسونغ مينغ يُنصِتُ إلى حديثهما، واتتْهُ فكرة ملهمة. فرئيس الهيئة القَضَائيَّة والمُحافِظ والعُمدَة يعيشون في قَلَق وخوف بسبب لي شيوليان، ولو حَدَثَ وساعدهم في حَلِّ هذه المشكلة، أليس بذلك يكون قد فَعَلَ مثلما نَصَحَهُ والده، وساعد المسؤولين في حلِّ مشكلة تُؤرِّقهم؟ أليس بذلك سيتمكَّن من اقتناص منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة؟ وأن هذا أفضل بكثير من تقديم رَشْوَة؟ وبخلاف نُصْح لي شيوليان بالتَّخلِّي

عن الشكوى، فهناك طُرُق أُخرى، من بينها جَعْلها تتزوَّج بشخص آخر، فهي تثير كلَّ هذه المشاكل، لأنها تريد إثبات زَيْف طلاقها من زوجها السابق، ولو تزوَّجت بشخص آخر، فلن يكون لشكواها أساس. هي، أيضاً، تثير المشاكل، لأن زوجها السابق نَعَتَهَا بأنها بان جين ليان المرأة الخائنة، ولو تزوَّجت بشخص آخر ألَا ينفي ذلك عنها هذه التهمة؟ ولن تكون بان جين ليان بعدها؟ شَعَرَ بفرحة عارمة بعدما واتتْهُ هذه الفكرة، فإنه لم يكشفْ عمَّا يفكِّر به بشكل مباشر، حيثُ تحدَّث قائلاً: "أيُّها العمُّ تشاو، ما دمتَ تحبُّها هكذا، وهي وحيدة، وزوجتُكَ ماتت، أليست الفرصة سانحة لكما الآن؟".

سأله مندهشاً: "ماذا تقصد؟"

-: "عليكَ أن تُوقِعَها في شِرَاكِكَ، لقد سمعتُ أنها كانت شابَّة جميلة، ولا تزال".

=: "هي جميلة بالفعل، لو لم تكن جميلة، لَمَا حاولتُ الإيقاع بها طيلة كلِّ هذه السنوات". ثمَّ تنهَّد واستمرَّ يقول: "أنا لا ألوم إلَّا نفسي، لقد كنتُ جباناً طيلة الوقت".

جيا تسونغ مينغ: "يمكنكَ المحاولة ثانية، فالفرصة لا تزال سانحة".

هزَّ تشاو داتو رأسه نافياً وهو يقول: "لقد انقضى الأمر، حتَّى لو كنتُ أرغب في التَّقرُّب منها، فهي الآن تستعدُّ للذهاب للشكوى، ولا تفكِّر بأمور كهذه".

أجاب محاولاً إيصال فكرته أكثر: "لأنها تستعدُّ للذهاب للشكوى، فأنا أنصحكَ بالإسراع في الزواج منها".

سأله مُتحيِّراً: "ماذا تقصد؟".

أخذ جيا تسونغ مينغ يشرح له تفاصيل الحكاية، بداية من قَلَقِ رئيس

الهيئة القَضَائيَّة إلى المُحافِظ إلى العُمدَة. تشاو داتو يعرف هذه التفاصيل مُسبَّقاً، فالكلُّ في البلدة والمُحَافَظَة، بل وحتَّى المدينة، يعرف بأمر قضية لي شيوليان، لكنَّ جيا تسونغ بعدما ذَكَرَ له هذه التفاصيل تبعها بقوله: "أيُّها العمُّ تشاو، زواجكَ منها ليس أمراً يتعلَّق بكونه زواجاً فقط، بل ستُسدي لكبار المسؤولين خدمة عظيمة".

دُهش قائلاً: "هذان أمران مُختلِفان، لا علاقة لزواجي بهؤلاء المسؤولين".

ثمَّ عاد يسأل: "وما هي الفائدة التي قد تعود عليَّ، لو ساعدتُ هؤلاء المسؤولين؟".

قال: "لو ساعدتَهم، فبالطبع سوف يساعدونكَ".

سأله: "وما الذي يمكنهم مساعدتي بشأنه؟".

أجاب: "من غير المعقول ألَّا تكون لكَ حاجة".

قال: "أنا بالفعل لديَّ حاجة. فأكثر ما يضايقني الآن هو ابني المخفق، هو الآن عامل مؤقَّت في المكتب البيطري، وأريد أن يكون موظَّفاً دائماً، ولكنْ، لا حيلة لديَّ، فهو يطلب منِّي المال دائماً".

خَبَطَ جيا تسونغ مينغ بيده قائلاً: "الحلُّ في يدكَ الآن، لو نَجَحْتَ في حلِّ مشكلة لي شيوليان، ومَنْعها من الذهاب للشكوى، سيساعدكَ هؤلاء المسؤولون، بداية من المُحافِظ إلى العُمدَة، فتوظيف ابنكَ بالمكتب البيطري هو أمر بسيط بالنسبة إليهم، بل قد يُعيِّنونه رئيس قسم هناك".

ذُهِلَ من كلامه، ولم ينطق، فاستمرَّ جيا تسونغ مينغ يقول: "هل ما زلتَ تفكِّر؟ أليس هذا بمثابة ضَرْب عصفورَيْن بحجر واحد".

-: "وماذا لو ساعدتُهُم، ولكنهم لم يساعدوا ابني؟".

=: "على أسوأ الأحوال، ستكون قد تزوَّجت بمَنْ تُحبُّ".

بَدَا متضايقاً وهو يقول: "الزواج لا يشغلني كثيراً، أكثر ما يشغلني الآن هو ذلك الابن المخفق الذي يُنغِّص عليَّ حياتي".

-: "لأن الأمر يتعلَّق بابنكَ، فعليكَ أن تُجرِّب، عليكَ أن تعلم أنكَ بهذا تُقرِّب المسافة بينكَ وبين عُمدَة المدينة".

بَدَا تشاو داتو متردِّداً وهو يجيبه: "يمكنني أن أُجرِّب، أنا فقط أخشى ألَّا يفيَ هؤلاء المسؤولون بوَعْدهم".

أقسم جيا قائلاً: "لو كنتَ لا تُصدِّق كلام الحكومة، يمكنني أن أتعهَّد لكَ نيابة عن المحكمة أنكَ لو ساعدتَ المسؤولين، فسوف يحلُّون لكَ مشكلة ابنكَ".

نَظَرَ إليه متشكِّكاً وهو يقول: "لماذا أنتَ مُتحمِّس هكذا؟ ما الذي قد يعود عليكَ من هذا؟".

صَارَحَهُ جيا تسونغ مينغ برغبته في شغل منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة، وَشَرَحَ قائلاً: "أيُّها العمُّ تشاو، نحن الآن في مركب واحد، لو غرقْنا سنغرق معاً، ولو نَجَوْنا، سننجو معاً، لو صرتُ نائباً لرئيس الهيئة القَضَائيَّة، فستكون كلُّ الأمور الخاصَّة بالمحكمة طَوْع أمرنا".

أخذ تشاو داتو يحكُّ رأسه ويقول: "هذا ليس بالأمر السهل، أحتاج إلى وقت للتفكير".

أنهيا كلامهما، وعاد تشاو داتو إلى بيته. كان جيا تسونغ مينغ يعرف أنه لو لم يُنفِّذ تشاو داتو هذا الأمر، فلن يكون لديه ما يخسره، ولو نفَّذَهُ، فبالطبع هذا هو مبتغاه، كما أنه لم يكن متأكِّداً إن كان سينجح في هذه المهمَّة حتَّى لو كانت هذه رغبته، لذلك لم يعقد أملاً كبيراً على تشاو داتو. لكنْ، في مساء اليوم التالي، جاءه تشاو داتو من تلقاء نفسه قائلاً

إنه قد عَزَمَ على القيام بالأمر، وإنه سيفعله، لأن ابنه هو مَنْ أرغمه على ذلك، فبعدما عاد إلى بيته تشاور مع ابنه في الأمر، ولم يكن يتخيَّل أن يتحمَّس ابنه للأمر، وضَغَطَ عليه، كي يُنفِّذَهُ. عادةً ما يعارض الأبناء زواج آبائهم من امرأة أُخرى، أمَّا ابنه، فعلى العكس، هو مَنْ أصرَّ على أن يتزوَّج أبوه بامرأة ثانية، ما دام ذلك سيساعده في عمله.

ابتهج جيا تسونغ مينغ قائلاً: "هذا رائع، فلنُنَفِّذ خطَّتنا، إذنْ، لو نَجَحْنَا، فالمكسب سيكون مضاعفاً، ولو أخفقْنا، فلن يكون هناك ما نخسره".

ردَّ تشاو داتو: "هذا أيضاً ما أفكِّر فيه".

بعدما افترقا، عاد تشاو داتو ليُخطِّط لفكرته في الزواج من لي شيوليان، ومَنْعها من الشكوى. وعلى الرَّغْمِ من أنه بدأ يتحرَّك لتنفيذ المهمَّة، فإن جيا تسونغ مينغ لم يكن متأكِّداً من نجاحه، ولكنه يعرف أنه ليس لديه ما يخسره، تماماً كما أخبره، فلو نَجَحَا، فالمكسب سيكون مضاعفاً، ولو أخفقا، فلا توجد خسائر.

وفي اليوم التالي، نسي جيا تسونغ مينغ هذا الأمر، لكن تشاو داتو هو الذي بدأ يهاتفه يومياً، كي يخبرَه بتفاصيل تطوُّر الأمر مع لي شيوليان. لكنْ، لم يجرؤ جيا تسونغ مينغ على الحديث مع رؤسائه بهذا الشأن، خشية أن يجذب الأمر انتباههم، ولو أخفق تشاو داتو في النهاية، يصبح هو في موقف لا يُحسَد عليه. كان لا يريد كَشْف غطاء القِدْر إلَّا بعد أن يتأكَّد أن الأرز قد نَضَجَ تماماً. وخشي أيضاً أن ينتشر هذا الخبر، ويعلم به منافسوه، لأنهم سيتقرَّبون من تشاو داتو، وتضيع عليه الفرصة. كانت مجرَّد محاولة من جيا تسونغ مينغ، ولكنْ، حَدَثَ ما لم يتوقَّعه، ففي النهاية، نَجَحَ تشاو داتو في مهمَّته. ولم ينجحْ في محافظتهم، بل في المُحَافَظَة المجاورة. فعندما أرسل له تشاو داتو رسالة نصِّيَّة، يُخبره بنجاحه في المهمَّة، لم يصدِّق ما قرأه، فردَّ عليه برسالة يسأله: "هل حقَّاً فَعَلْتَهَا؟".

ردَّ عليه مؤكِّداً: "لقد ضاجعتُها بالفعل، هل تريد تأكيداً أكبر من ذلك؟".

تيقَّن من صِدْق كلامه، ولم يتمالك نفسه، فأسرع ليُخبرَ المسؤولين بشأن نجاح خطَّته في مَنْع لي شيوليان من الشكوى. فقد هَرَبَتْ، ولم يستطيعوا العثور عليها لثلاثة أيَّام، وهم يشعرون بالقلق الشديد حيال هذا الأمر، وهذا هو الوقت المناسب تماماً لإخبارهم. لكنه عندما قرَّر إخبار المسؤولين بَدَا متردِّداً قليلاً، فهو عضو باللجنة القَضَائيَّة، ومن المفترَض أن يُخبر أوَّلاً رئيسه المباشر في العمل رئيس الهيئة القَضَائيَّة وانغ قونغ داو. لكن الطمع تملَّكه، إضافة إلى أنه لم يكن يحبُّ رئيسه، فقد وَقَعَتْ بينهما مشاكل عندما كان وانغ قونغ داو ما زال رئيس محكمة. وانغ قونغ داو من النوع الذي يحبُّ الانتقام، وظلَّ يضع العراقيل أمام جيا تسونغ مينغ، وقدَّم له جيا تسونغ مينغ الكثير من الهدايا والرِّشَاوى، ولكنْ، دون فائدة. كيف لشخص قصير سمين، ليس لديه شَعْر في حاجبَيْه أن يكون حقوداً هكذا؟ لذا فكَّر جيا تسونغ مينغ أن يتجاوز رئيسه، ويتحدَّث إلى المُحافِظ مباشرة. فإظهار نتيجة عمله أمام المُحافِظ ستُؤتي بثمار أفضل بكثير من إظهارها أمام رئيس الهيئة القَضَائيَّة، كما أنه لو أخبر رئيس الهيئة القَضَائيَّة، سيذهب هذا، ويخبر المُحافِظ، وربمَّا ينسب الإنجاز لنفسه، وهو لن يقومَ بعمل أخرق كهذا، فكَّر أيضاً أن تجاوُزَ رئيسه والحديث مباشرة إلى المُحافِظ سيكون بمثابة صفعة قوية على قفاه، حيثُ لم ينجح فيما نَجَحَ هو فيه. وبهذا سيُمهِّد الطريق لنفسه لتوليِّ منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة. لذلك تحرَّك مَزهُوَّاً قاصداً مقرَّ حكومة المُحَافَظَة للِقاء المُحافِظ.

لم يكن المُحافِظ قد تناول وجبة طعام مشبعة خلال الأيَّام الثلاثة السابقة. وعلى الرَّغْم من ذلك، لم يشعر بالجوع، وَظَهَرَتْ على شَفَتَيْه بعض البثور. فقط كان يشعر بالقلق الشديد لمرور ثلاثة أيَّام دون العثور على لي شيوليان. عادةً ليس من السهل على عضو لجنة قَضَائيَّة أن يذهب

لمقابلة المُحافِظ، فسكرتير المُحافِظ قد يمنعه من الدخول، ولكنْ، هذه المرَّة كانت مُختلِفة، فعندما قال جيا تسونغ مينغ إنه جاء لمقابلة المُحافِظ لأمر يتعلَّق بموضوع لي شيوليان، لم يجرؤ السكرتير على رَفْض دخوله، بل ذَهَبَ على الفور، وأخبر المُحافِظ. وطَلَبَ المُحافِظ أن يسمح له بالدخول فوراً. ودُهِشَ المُحافِظ وهو يستمع إلى حديث جيا تسونغ مينغ بخصوص قصَّة لي شيوليان وتشاو داتو من البداية للنهاية، فهذا أمر لم يكن يتوقَّعه إطلاقاً، لذلك سأله: "هل ما تقوله حقيقي فعلاً؟".

هذا السؤال أشبه بالسؤال الذي طَرَحَهُ جيا تسونغ مينغ على تشاو داتو في رسالته النَّصِّيَّة. لذلك أخرج جيا تسونغ مينغ هاتفَهُ، وَفَتَحَ الرسائل النَّصِّيَّة، وأطْلَعَ المُحافِظ عليها. طالع المُحافِظ كلَّ شيء، بما في ذلك رسالته أنه ضَاجَعَها، ورسالة أخيرة أرسلها قبل ساعة يقول فيها: "نحن الآن فوق جبل تايشان، وسنتزوَّج فور عودتنا".

تابع جيا تسونغ مينغ يقول: "أيُّها المُحافِظ، سجلُّ الرسائل كلُّه أمامكَ، هل هناك شكٌّ في صِدْق كلامي؟ هي الآن ستتزوَّج، وبالتأكيد لن تذهب للشكوى. وعلى الرَّغْم من هروبها من الشرطة، فإنها ذَهَبَتْ إلى مُقَاطَعَة شاندونج، وليس إلى بكين، أليس هذا دليلاً قاطعاً؟".

قال المُحافِظ بريبة: "هذا أمر خطير، لا يحتمل وجود أدنى خطأ".

طَمْأَنَهُ قائلاً: "أيُّها المُحافِظ، أتعهَّد أمامكَ بصفتي الوظيفية والحزبية أن هذا الأمر مضمون، لا تشوبه شائبة، لقد خطَّطتُ له على مدار عامَيْن بالكامل، أنا فقط لم أجرؤ على كَشْف غطاء القِدْر إلَّا بعد التَّأكُّد من أن الأرز قد نَضَجَ تماماً".

صَدَّقَهُ المُحافِظ، وشَعَرَ بالطمأنينة أخيراً. وعلم أنه ظلَّ مشغولاً لثلاثة أيَّام، وحرَّك قوَّة قوامها أربعمائة شرطي، للبحث عنها دون نتيجة، لأنها

ذَهَبَتْ في اتِّجاه آخر، مُعتقِداً أنها في طريقها إلى بكين، دون أن يعرف أنها في شاندونج. جميع المسؤولين ومعهم أربعمائة شرطي، لم ينجحوا في حَلِّ هذه المشكلة، وجيا تسونغ مينغ وحده نَجَحَ فيها.

كان المُحافِظ يعلم غرض جيا تسونغ مينغ من هذه المساعدة، فخاطبه قائلاً: "جيا تسونغ مينغ، لقد ساعدت الحكومة في حَلِّ مشكلة كُبْرَى. وأنا أعلم بأمر شغور منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة. بعدما ننتهي من هذا الأمر تماماً، سننظر في ترقيتكَ".

بَدَا جيا تسونغ مينغ مُتحمِّساً بشدَّة. في الأساس كان يريد أن يُحدِّث المُحافِظ بشأن توظيف ابن تشاو داتو، لكن حديث المُحافِظ عن ترقيته جَعَلَهُ يشعر بحرج من أن يطلب شيئاً آخر، حتَّى لا يفهم المُحافِظ أنه يقايض الحكومة من أجل الحصول على مكاسب أكبر. لذا لم يتحدَّث عن الأمر، وقرَّر التَّحدُّث عنه بعدما يضمن لنفسه منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة.

وقبل أن يغادر قال له المُحافِظ: "جيا تسونغ مينغ، لا تُحدِّث أحداً بهذا الأمر".

أجابه: "أتفهَّم هذا تماماً".

غادر مكتب المُحافِظ مُبتهجاً بهذه النتيجة. أمَّا المُحافِظ، فَشَعَرَ بالجوع، وتذكَّر أنه لم يأكل جيِّداً منذُ ثلاثة أيَّام، فَطَلَبَ من سكرتيره أن يُجهِّز له طَبَقاً من المعكرونة. تناول طَبَقَ المعكرونة، ثمَّ هَاتَفَ العُمدَة. فقبل ثلاثة أيَّام عندما هَرَبَتْ لي شيوليان، أراد المُحافِظ إخفاء الخبر عن العُمدَة، وحَلَّ المشكلة بنفسه، لكن العُمدَة علم بما حَدَثَ، فَهَاتَفَهُ وَوَبَّخَهُ، وقال له إنه يكرِّر الأخطاء السابقة نفسها، وإنه يشعر بخيبة أمل ممَّا حَدَثَ، وهو ما جَعَلَ المُحافِظ يتصبَّب عَرَقاً من شدَّة الخوف. ومرَّت ثلاثة أيَّام دون

العثور عليها، وهو ما جَعَلَ المُحافِظ يشعر بقلق شديد، حتَّى إن البثور ظَهَرَتْ بكثرة فوق فمه، فقد كان يعتقد أنه فَقَدَ الأمل في حَلِّ المشكلة، وأن العُمدَة على وشك توبيخه ثانية، بل ربمَّا يُوقع عليه عقوبة قاسية هذه المرَّة. ولكنْ، حَدَثَ ما لم يتوقَّعه، فعندما أوشك على فقدان الأمل، حَدَثَ تحوُّل مُفاجِئ، وانحلَّت المشكلة. وهنا فكَّر أن يهاتف العُمدَة، ليُخبرُهُ بما حَدَثَ، آملاً أن يزيلَ ذلك التأثير السَّلبيَّ السابق الذي تسبَّب فيه هروب لي شيوليان. وقتها وَصَلَ العُمدَة إلى بكين لحضور اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب. كان يأكل حين هَاتَفَهُ المُحافِظ يُخبره بتفاصيل ما حَدَثَ. دُهش العُمدَة، وسأله: "مَن الذي فكَّر في تلك الطريقة؟!".

في البداية أراد المُحافِظ أن ينسبَ الفضل لنفسه، لكنه خاف أن تنكشف الحقيقة لاحقاً، ولو علم العُمدَة، فسيكون في موقف صعب. كان بالفعل في موقف صعب منذُ أيَّام عندما هربت لي شيوليان، وخاف أن يحدث هذا ثانية، لذلك أخبر العُمدَة بالحقيقة قائلاً: "موظَّف عادي يعمل عضواً بالهيئة القَضَائيَّة، هو قريب الرجل الذي سيتزوَّج لي شيوليان، كما أنه يعرفها جيِّداً".

علَّق العُمدَة قائلاً: "لا يجوز أن تصفه بالشخص العادي، هذا داهية سياسية محنَّك".

صَمَتَ المُحافِظ لبعض الوقت، فهو لا يعرف ماذا يقول، فاستطرد العُمدَة: "هذا الشخص وَجَدَ حلاًّ جديداً مُختلفاً للقضية، كنَّا دوماً نفكِّر في موضوع طلاقها، أمَّا هو، ففكَّر في زواجها".

بَدَا المُحافِظ سعيداً عندما سمع العُمدَة يتحدَّث بعبارات الثناء، على الرَّغْم من أن هذه العبارات لم تكن مُوجَّهة له، فقال: "صحيح، هذا كَمَنْ يهاجم عدوَّه من الخلف، ويقطع الطريق عليه".

العُمدَة: "ليس هذا ما عنيتُهُ، أقصد أننا كنَّا فقط نعالج أعراض المرض لمريض يشعر بالألم طيلة عشرين عاماً، وهو ما تطلَّب منَّا الاستمرار في علاجه، أينما ذَهَبَ المريض علينا مُرافقته، المُهمُّ ألَّا يشتكيَ من مرضه، أمَّا هذا الشخص، فقد اقتلع الألم من جذوره، فبزواج لي شيوليان، ستُحلُّ المشكلة جَذْرِيَّاً".

سارع المُحافِظ يقول: "صحيح، ما دامت ستتزوَّج، فلن يكون علينا الاهتمام بأمر شكواها ثانية بعد اليوم".

العُمدَة: "ما اسم هذا الشخص؟".

المُحافِظ يعرف أن سؤال العُمدَة عن اسم شخص في وقت كهذا هو أمر له مغزى عميق، وأن تغيُّراً كبيراً سيحدث في المستقبل المِهَنِيِّ لهذا الشخص. وهذا ما حَدَثَ معه شخصيَّاً حين حلَّ مشكلة المُعتصمين عندما كان نائباً للمُحافِظ. العُمدَة الآن يسأل عن اسم الشخص الذي حَلَّ مشكلة لي شيوليان، وهو يعرف أن العُمدَة سيُكافِئ هذا الشخص. لم يستطع كتمان اسمه، فهو يعرف أن العُمدَة سيعرف مَنْ هو هذا الشخص عاجلاً أم آجلاً ما دام يرغب في ذلك، فأخبره بالحقيقة قائلاً: "هذا الشخص اسمه جيا تسونغ مينغ".

ردَّ العُمدَة: "هذا الشخص لا يُستهان به، هو ليس مُدَّعياً للذكاء كما يدلُّ اسمه، بل هو حقَّاً ذَكيٌّ للغاية".

قال المُحافِظ: "نحن الآن في المُحَافَظَة نستعدُّ لترقيته إلى منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة".

لم يتحدَّث العُمدَة ثانية، بل أغلق الهاتف مباشرة.

ولكنَّ ما لم يتوقَّعه جيا تسونغ مينغ - أو مُدَّعي الذكاء كما يشير اسمه - أن يزعجَهُ تشاو داتو بالرسائل النَّصِّيَّة، يحثُّه على الإسراع في توظيف ابنه بالمكتب البيطري، ويقول إن ابنه في انتظار النتيجة. ولأن جيا تسونغ مينغ خاف أن يتحدَّث مع المُحافِظ عن ابنه، فيُفسدَ على نفسه ترقيته لمنصب نائب رئيس الهيئة القَضَائِيَّة، وفكَّر أن يتحدَّث عن هذا الأمر بعدما تنتهي الأمور تماماً؛ فلقد شَعَرَ بالضجر من رسائل تشاو داتو التي يسأله فيها متى سيتمُّ توظيف ابنه، وكان يُجيبه: "قريباً". لكن تشاو داتو ظلَّ يسأله عن المدى الزَّمنيِّ لكلمة "قريباً"، هل هي ثلاثة أيَّام؟ أم خمسة أيَّام؟ ردَّ جيا تسونغ مينغ عليه بكلام لا يحمل أيَّ تأكيد، وهو ما أثار قلق تشاو داتو، فَهَاتَفَهُ، لكي يستوضح حقيقة ما يجري. في بداية حديثهما لم يكن هناك توافق، فتشاجرا بصوت عالٍ. هذه المكالمة الهاتفية هي التي أزاحت الغطاء عن قِدْر الأرز قبل أن ينضج، حيثُ تصادف وسمعت لي شيوليان التي كانت تقف بالخارج تشاو داتو وهو يتحدَّث في الهاتف. وبعدما أنهى المكالمة، دَفَعَتِ الباب، وَدَخَلَتْ تسأله: "مع مَنْ كنتَ تتحدَّث؟". شاهدها والشَّرَر يتطاير من عَيْنَيْها، فعلم أن الأمر انكشف، ولكنه ظلَّ يحاول جاهدا إخفاءه؛ فقال: "إنه لاوتشو بائع اللَّحْم، اقترض منِّي ألفَي يوان، وعندما طالبتُهُ بالمال تشاجر معي".

لم تتمالك نفسها، وَصَفَعَتْهُ على وجهه وهي تقول: "أنتَ تكذب، لقد سمعتُ كلَّ ما قلتَهُ. اعتقدتُ أنكَ ترغب في الزواج بي حقَّاً، ولم أتخيَّل أنكَ تخدعني. لا أهتمُّ لخداعكَ، فقط أريد أن أعرف كيف لكَ أن تتواطأ مع هؤلاء المسؤولين الفاسدين للإيقاع بي؟".

ثارت ثورتها، وَخَلَعَتْ حذاءها، كي تضربَهُ به، فَطَوَّقَ رأسه بيده لتفادي ضرباتها، وهو يقول: "لم أخدعْكِ، ولم أتآمر عليكِ، أنا حقَّاً أريد الزواج منكِ. أنصِتِي إليَّ، أرجوكِ، هذان أمران مُختلِفان تماماً".

لم ترغب في سماع تبريره؛ فَصَفَعَتْهُ على وجهه ثانية، وقالت: "أنا حقّاً خرقاء، أستحقُّ ما يحدث لي، ثابرتُ على الشكوى طيلة عشرين عاماً، ولم أتخيَّل خداعي هكذا". ثمَّ أخذت تبكي وهي تقول: "لا يهمُّني إن نَجَحْتُ في الهرب، وَذَهَبَتُ للشكوى أم لا، ما يهمُّني الآن هو أني تعرَّضتُ للخداع، وسلَّمتُ لكَ نفسي، بأيِّ وجه سأعيش بعد اليوم لو عرف الناس حقيقة ما جرى؟". وتعالى صوتها بالبكاء، فعلم تشاو داتو أن الاستمرار في خداعها واختلاق المبرِّرات لن يفيد، فهي لن تُصدِّق ما سيقوله على أيِّ حال، فاضطرَّ للاعتراف وقال مُتلعثماً: "لقد وَجَدْتُ نفسي مُجبَراً على هذا. ابني لا يكفُّ عن إزعاجي بسبب التوظيف في المكتب البيطري. أنا لم أُخطِّط لأيٍّ من هذا، بل جيا تسونغ مينغ عضو اللجنة القَضَائيَّة هو مَنْ خطط لكلِّ هذا. أرجوكِ، لا تغضبي منِّي، يمكنني أن أتخلَّى عن أمر توظيف ابني من أجلكِ، دعينا نَعُدْ ونتزوَّج كما اتَّفقْنا". توقَّفتْ فجأة عن البكاء، وَوَضَعَتْ ملابسها في حقيبتها على عُجَالَة، ثمَّ حَمَلَتْهَا، وَرَكَلَتِ الباب مغادرة. علم تشاو داتو أن الأمور خَرَجَتْ عن سيطرته، فهُرع خلفها ينادي قائلاً: "أرجوكِ، لا تغادري، يمكننا أن نحلَّ هذا الأمر سويّاً". فلم تعرْهُ أيَّ انتباه، واستمرَّتْ في طريقها مغادرة الفندق، بينما ظلَّ يجري خلفها قائلاً: "أنا معترف بخطئي، لم يكن عليَّ أن أتواطأ معهم ضدَّكِ، ما رأيكِ أن تعودي الآن، ونخدع هؤلاء المسؤولين معاً؟". لم تلتفتْ له، واستمرَّتْ في طريقها. سارت نحو الزقاق المقابل، ثمَّ انعطفت نحو سوق الخضار المكتظِّ بالباعة والمشترين. ظلَّ يتبعها، ثمَّ أمسكها من يدها وسط السوق، وقال: "يمكنكِ أن تضربيني ثانية، لو كان ذلك سيُخفِّف من غضبكِ". كانا يقفان أمام دُكَّان جِزَارة، فالتقطتْ شيوليان سِكِّين الجزَّار من فوق طاولة تقطيع اللَّحْم، وصوَّبتْهُ نحو صدره وهي تقول: "سأقتلكَ، إن لم تتراجع". أُصيب بالذعر، فتراجع على الفور، وَشَعَرَ الجزَّار والمارَّة بالخوف أيضاً،

فلقد اعتقدوا أنهما زوجان يتشاجران، فحاولوا التَّدخُّل لتهدئة الأمور، واستمرَّ تشاو داتو يقول: "فلتغادري كما تشائين، فقط أخبريني إلى أين أنتِ ذاهبة، فأنتِ غريبة هنا". صاحت فيه وسط المارَّة قائلة: "تشاو داتو، كنتُ أنوي ألَّا أذهب للشكوى لو لم يحدث هذا الأمر، ولكنْ، ما دام الأمر هكذا، فسوف أذهب للشكوى مهما حَدَثَ، سوف أُنغِّصُ عليكم جميعاً حيواتكم، اذهبْ وأخبِرْهُم كما تشاء، فأنا لن أتراجعَ مهما فعلتُم".

10

بعدما هَرَبَتْ لي شيوليان من مُقَاطَعَة شاندونج التي يقع فيها جبل تايشان، سادت الفوضى في كلٍّ من البلدة والمدينة التي هَرَبَتْ منها. فوضى أكبر بكثير من التي وَقَعَتْ في بلدتها حينما هَرَبَتْ. عندما هَرَبَتْ من بيتها، كان بإمكان حكومة المُحَافَظَة تحريك عدد كبير من أفراد الشرطة لتعقُّبها ومَنْعها، أمَّا هذه المرَّة، فهي في مُحَافَظَة أُخرى، وإرسال شرطة عابرة للمقاطعات أمرٌ يحتاج إلى مجهود كبير ووقت طويل، كما أن إرسال شرطة تصرُّف غير صائب، فهي لن تمكث هناك، بل من المؤكَّد أنها ستتَّجه إلى بكين، وتوجُّهها الآن إلى بكين مُختلف عن توجُّهها إلى بكين قبل أيَّام، فقبل أيَّام لم تكن الاجتماعات قد بدأت، أمَّا الآن، فالاجتماعات منعقدة بالفعل. قبل بدء الاجتماعات هناك فرصة للسيطرة على الوَضْع، لكنْ، لو حَدَثَ وَنَجَحَتْ في اقتحام قاعة الشعب الكُبْرَى مرَّة أُخرى، فستكون العاقبة أشدَّ ممَّا حَدَثَ عندما اقتحمت القاعة نفسها قبل عشرين عاماً، في المرَّة الأولى ذاع صيتها بعض الشيء، ولو قامت بالفعل نفسه ثانية، فستفوق شهرتها شهرة أسامة بن لادن. ولا أحد يعلم كم من المسؤولين على المستويات كافَّة سيُعاقَبُون بسبب هذا الأمر.

لم يعرف المُحافِظ كيف يتصرَّف، فأمر باستدعاء رئيس الهيئة القَضَائيَّة وانغ قونغ داو، وعضو اللجنة القَضَائيَّة جيا تسونغ مينغ، وسألهما: "كيف حَدَثَ هذا؟".

لم يكن جيا تسونغ مينغ يتخيَّل أن تسوء الأمور هكذا، فَوَقَفَ يرتعد من

شدَّة الخوف. وغضب رئيس الهيئة القَضَائيَّة بشدَّة بعد علْمه بهذا الأمر، في البداية لم يكن غاضباً بسبب هروبها ثانية، بل كان غاضباً من قيام مرؤوسه بدَسِّ يده عنوة في كومة خِرَاء الكلاب هذه. فهروب لي شيوليان في المرَّة السابقة كان أمراً خاصَّاً بالشرطة، ولكن هروبها هذه المرَّة صار أمراً مُتعلِّقاً بالمحكمة. أكثر ما أثار غضبه هو أنه علم أن جيا تسونغ مينغ قد دَسَّ يَدَهُ في كومة الخِرَاء هذه، من أجل تولِّي منصب نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة. يمكنه تفهُّم هذا النوع من التَّطلُّعات الشَّخصيَّة، ولكنه لم يخبره عندما اعتقد أن الأمر قد أُنجز تماماً، بل تخطَّاه وَذَهَبَ مباشرة إلى المُحافِظ، وهذا بخلاف أنه يبرهن على أن جيا تسونغ مينغ كفء ومجتهد، فهو أيضاً يبرهن على أن وانغ قونغ داو عديم الكفاءة، وهذا هو سرُّ غضبه الشديد. لم يتخيَّل جيا تسونغ مينغ أن تفسد وجبة الأرز التي كان يطبخها قبل النهاية بقليل. ولم يهتمّ المُحافِظ لكلِّ هذا، فعندما ذَهَبَ إلى المُحافِظ يبلغه بإنجازه طمعاً في المكافأة، لم يكن وانغ قونغ داو شريكاً في هذا، ولكنْ، عندما ساءت الأمور، وَجَدَ وانغ قونغ داو نفسه مُنخرطاً في الأمر دون ذَنْب منه، وهذا أيضاً ما جَعَلَهُ يستشيط غضباً. ولكن المُحافِظ في أوج غضبه الآن، فكيف يجرؤ على أن يدافع عن نفسه ويشرح له مثل هذه الأمور؟ وَجَدَ نفسه مُضطرَّاً لأن يطأطئ رأسه، ويقف صامتاً دون أن يتحدَّث. كان جيا تسونغ مينغ يعرف أنه المُتسبِّب في كلِّ هذا، وأنهما غاضبان منه بشدَّة، فشرع يحكي لهما حقيقة الأمر. قال إن الأمور أُنجزَتْ بالفعل، وإن تشاو داتو ولي شيوليان اتَّفقا على الزواج، لكنْ، لسوء الحظِّ سمعت لي شيو ليان المشاجرة الهاتفية، فانكشف الأمر، وَهَرَبَتْ.

بعدما سمعه المُحافِظ بَدَا مُغتاظاً بشكل أكبر، وَوَبَّخَهُ مُستخدِماً عباراتٍ كتلك التي وَبَّخَهُ بها العُمدَة من قبل قائلاً: "لماذا لم تُخبرْني بهذا الأمر في المرَّة السابقة؟ أخفيتَ معلومات عن رؤسائكَ، وهذا اسمه تهاوُن وعدمُ اهتمام بالتفاصيل".

أمَّا وانغ قونغ داو، فانتهز الفرصة، وأخذ يصبُّ الزيت فوق النار قائلاً: "هذا بالفعل إخفاء معلومات عن الرؤساء، وعدم اهتمام بالتفاصيل، وأنانية مُفرطة، أمر كهذا كاد أن يكتمل، ولكنه باء بالإخفاق، بسبب أطماعه الشَّخصيَّة، وهو ما سيتسبَّب في متاعب كُبْرَى لكلِّ المسؤولين".

استمرَّ المُحافِظ يُوبِّخه قائلاً: "اسمكَ فعلاً جيا تسونغ مينغ، وهو اسم على مُسمَّى. أنتَ شخص أخرق، ولستَ ذكيّاً على الإطلاق". ثمَّ أشار إلى وانغ قونغ داو، وسأله: "أين ذَهَبَتْ لي شيوليان؟"

ارتجفتْ يداه وهو يقول: "لا أعلم". ولكنه عندما شاهد المُحافِظ يحدِّق فيه بغضب استطرد: "من المؤكَّد أنها ذَهَبَتْ إلى بكين للشكوى".

المُحافِظ: "ما دمتم تعرفون، لماذا تقفون هنا؟ ابحثوا عنها، وأعيدوها إلى هنا".

دُهش وانغ قونغ داو، وقال مُتلعثماً: "أيُّها المُحافِظ، البحث عن الفارِّين، وإعادتهم هو أمر خاصٌّ بالشرطة، ولا علاقة للمحكمة به".

المُحافِظ: "مَنْ قال إنه لا علاقة للمحكمة بهذا؟ أنتُم مَنْ حَكَمْتُم في القضية قبل عشرين عاماً، وأوصلتُم الأمور إلى هذا الحَدِّ، بالإضافة إلى أنها قريبتكَ، أليس كذلك؟".

وانغ قونغ داو: "لا توجد أيُّ علاقة قرابة تجمعني بها على الإطلاق".

أشاح له المُحافِظ بيده، وقال بغضب: "على ما يبدو أنكَ أيضاً مُدِّع للذكاء، أُحذِّركَ من الآن، لو لم تُحَلَّ هذه المشكلة، فلن أستمرَّ في عملي كمُحافِظ، وستفقد أنتَ أيضاً منصبكَ".

سارع وانغ قونغ داو يقول مُرتجِفاً: "أيُّها المُحافِظ، سأُنفِّذ أوامركَ على الفور، وأذهب إلى بكين للبحث عنها".

المُحافِظ: "لا تذهبْ فقط إلى بكين بحثاً عنها، بل فَتِّشْ عنها في كلِّ الشوارع والحواري والأزقَّة".

غادر وانغ قونغ داو ومعه جيا تسونغ مينغ يجرَّان أذيال الخيبة. وبعد مغادرتهما، جَلَسَ المُحافِظ يستجمع شجاعته، وقرَّر أن يُهاتِفَ العُمدَة الذي كان يحضر الاجتماعات في بكين، ليخبرَهُ بما حَدَثَ. حينما هَاتَفَ العُمدَة في المرَّة السابقة، امتدحَهُ العُمدَة عندما أخبره بالسيطرة على موضوع لي شيوليان، وأنها ستتزوَّج. لم يكن يتخيَّل أنه بعد يومَيْن ستسوء الأمور بهذا الشكل، ولكنه لم يكن يجرؤ على إخفاء الحقيقة هذه المرَّة. فهروب لي شيوليان هذه المرَّة هو حادث أخطر من هروبها في المرَّة السابقة، ففي المرَّة السابقة هَرَبَتْ من بيتها، تحاول أن تشتكي كعادتها، وهذه المرَّة هَرَبَتْ وهي في أوج غضبها، بسبب شجارها مع تشاو داتو. في المرَّة السابقة هَرَبَتْ قبل انعقاد الاجتماعات في بكين، وهذه المرَّة هَرَبَتْ والاجتماعات قد بدأت بالفعل، ولو تأخَّر في إخبار العُمدَة، فسيكون ردُّ فعل العُمدَة ليس مجرَّد "شعور ببعض الإحباط"، بل "شعور بالإحباط الكامل"، وسيُنهي مستقبله تماماً. أمسك بالهاتف، ثمَّ وَضَعَهُ ثانية، وهكذا لثلاث مرَّات. ثمَّ فكَّر في أن يُخبرَ سكرتير العُمدَة بدلاً من العُمدَة مباشرة، فالسكرتير بالتأكيد بصحبته في بكين. أراد جَسَّ نبض السكرتير أوَّلاً، ليُقرِّر الطريقة التي يُخبر بها العُمدَة لاحقاً. أخذ يتنهَّد ويتحسَّر على الأيَّام الخوالي حينما لم يكن يخاف من أيِّ شيء. عندما كان نائباً للمُحافِظ حَلَّ مشكلة الاعتصام أمام مبنى الحكومة دون تردُّد، ولكنْ، بعدما صار مُحافِظاً، شَعَرَ بالجُبن والخوف أمام قضية أقلّ حجماً مثل قضية لي شيوليان. لا يستوعب كيف لقضية لي شيوليان المُتعلِّقة بالزواج والطلاق أن تجعل المسؤولين على المستويات كافَّة يتدخَّلون فيها بهذا الشكل؟ وكلَّما تدخَّلوا ساءت الأمور أكثر، كيف لأيِّ حركة تقوم بها امرأة رِيفيَّة مثل لي شيوليان أن تكون مصدر إزعاج لهؤلاء المسؤولين، وكأنها تسحبهم خلفها. كيف تطوَّرت

قضيَّتها إلى هذه المرحلة؟ ما الذي يُخيفهم إلى هذا الحَدِّ؟ تنهُّدُهُ وتحسُّرُهُ لن يُغيِّرا من الواقع، فالفأس وَقَعَتْ في الرأس، وعليه أن يُهاتفَ العُمدَة، ليُخبرُهُ بما حَدَثَ. هَاتَفَ السكرتير أوَّلاً كما خطَّط، وأخبره بالتَّحوُّل الخطير الذي وَقَعَ في مسار المشكلة. ذُهل السكرتير، وسأله: "ألم تقرِّر تلك الرِّيفيَّة أن تعودَ وتتزوَّجَ؟ ما الذي جَعَلَهَا تهرب وتذهب للشكوى ثانية؟".

لم يجرؤ المُحافِظ أن يُلقيَ بالمسؤولية على كاهل جيا تسونغ مينغ، فقيام المسؤولين بتحميل المرؤوسين المسؤولية أمام رؤسائهم هو اعتراف بالإخفاق، وتنصُّل من المسؤولية، فألقى بالمسؤولية على تشاو داتو ولي شيوليان قائلاً: "كانا قد اتَّفقا على الزواج، لكنهما تشاجرا، فَهَرَبَتْ ثانية".

قال السكرتير: "هذا أمرٌ خطيرٌ للغاية".

أكَّد المُحافِظ كلامه قائلاً: "هو بالفعل خطير للغاية، ولكنْ، لم نكن نتوقَّعه".

عقَّب السكرتير: "هذا ليس ما أعنيه، أعنى أمراً آخر، فمساء أمس تناول العُمدَة العشاء برُفْقَة حاكم المُقَاطَعَة، وسأله الحاكم عن أمر تلك المرأة المظلومة، فأخبره العُمدَة ساخراً إنها ستتزوَّج، فضحك الحاكم ومُرافقوه، وصدَّق الجميع هذه الرواية. نحن بهذا نضع العُمدَة في موقف حرج أمام حاكم المُقَاطَعَة".

تصبَّب المُحافِظ عَرَقاً، حيثُ أدرك فجأة أن الأمور أخطر ممَّا كان يتخيَّل، وأن الأمر تجاوز عُمدَة المدينة، وَوَصَلَ إلى حاكم المُقَاطَعَة. فعدم قدرته على شَرْح ما حَدَثَ للعُمدَة يختلف تماماً عن عدم قدرة العُمدَة على شَرْح ما حَدَثَ للحاكم. فلو كان الأمر محصوراً بينه وبين العُمدَة ربمَّا كان العُمدَة "يشعر ببعض الإحباط" منه، ولكنْ، لو كان الأمر بين العُمدَة وبين الحاكم، سيكون العُمدَة "مُحبَطاً منه تماماً"، ولربمَّا يُوقع عليه عقوبة، تُنهي مستقبلَهُ المِهَنِيَّ، وهذا ما جَعَلَهُ يرتعد خوفاً فور سماعه كلام السكرتير.

اعترف المُحافظ بتقصيره، وقال: "أيُّها السكرتير، هذا تقصير منِّي في مهامِّ عملي، أنا المُتسبِّب في هذا. ولكن الأمور قد آلت إلى ما هي عليه الآن، فما العمل، إذنْ؟ هَلَّا ساعدتَني وأنقذتَني من هذه الورطة؟".

صَمَتَ السكرتير، وفكَّر لبعض الوقت، وأجابه قائلاً: "في مواجهة أمر كهذا علينا اتِّباع الأسلوب الغبي".

المُحافِظ: "وما هو الأسلوب الغبي؟".

السكرتير: "جَهِّزْ قوَّة من الشرطة ترتدي ملابس مَدَنِيَّة، وأرسلها إلى بكين، لتنتشر في كامل أرجاء قاعة الشعب الكُبْرَى قبل أن تصل تلك المرأة إلى هناك. بالطبع ستكون هناك شرطة تأمين من بكين تحيط بالقاعة، عليكَ أن تنشر شبكتَكَ هذه فوق شبكة شرطة بكين، بحيثُ يمكن لشبكتكَ الإيقاع بها قبل وقوعها في شبكة شرطة بكين. المُهِمُّ ألَّا نتركها تصل إلى قاعة الشعب الكُبْرَى بأيِّ طريقة، ولو حَدَثَتْ مشكلة في أيِّ مكان آخر في بكين، فلن تكون هناك خطورة كبيرة. اعتبرْ نفسَكَ مكلَّفاً بمهمَّة حماية قاعة الشعب".

لَمَعَت عينا المُحافِظ فور سماعه رأي سكرتير العُمدَة، وَشَعَرَ بأنها فكرة صائبة، فقال مُتحمِّساً: "أيُّها السكرتير، أتقدَّم بالشكر لكَ نيابة عن أكثر من مليون شخص من سُكَّان محافظتي. سوف أبدأ في تجهيز القوَّة الشّرطيّة على الفور. ولكنْ، هناك أمر آخر أريد أن أطلبه منكَ، أرجو ألَّا تُخبر العُمدَة بهذا الأمر الآن، وسنقوم معاً بحَلِّه في نطاق أضيق، فأنتَ تعرف عاقبة غضب العُمدَة. بالطبع أعلم أنكَ بهذا تنوب عنَّا في تحمُّل مسؤولية كبيرة".

ردَّ السكرتير قائلاً: "سأبذل ما في وسعي، ولكن النجاح في المهمَّة يتوقَّف عليكَ، عليكَ أن تقوم بنَشْر شبكة الشرطة بطريقة مُحكَمَة".

المُحافِظ: اطمئنّ، لن أُكرِّر الأخطاء السابقة، ولن أتسبَّب في مشكلة أُخرى، سأنشر شبكة مُحكَمَة للغاية من الشرطة، لا تفلت منها حتَّى الذبابة".

انتهى من محادثته مع السكرتير، ثمَّ استدعى رئيس جهاز شرطة المُحَافَظَة، وأمره بتجهيز قوَّة من الشرطة بملابس مَدَنِيَّة، ونَشْرها في محيط قاعة الشعب الكُبْرَى في بكين، والقَبْض على لي شيوليان قبل أن تقعَ في قبضة شرطة بكين، وقال له بكلِّ حزم: "في المرَّة السابقة نَجَحَتْ في الهَرَب منكم، وهذه هي فرصتُكَ الأخيرة، لو هَرَبَتْ ثانية، فلن يقتصر الأمر على إقصائكم من مناصبكم، بل ستُواجهون الاعتقال بدلاً منها".

هروب لي شيوليان من الشرطة في المرَّة السابقة جَعَلَ رئيس الشرطة مثل الملدوغ من ثعبان، ويخاف من الحبل، فلقد تنفَّس ملء رئَتَيْه بعدما علم أنها ستتزوَّج، ولن تذهب للشكوى، ولكن مخاوفه تجدَّدت بعدما علم بهروبها مرَّة أُخرى، وعلى الرَّغْمِ من أنها لم تهرب منه هذه المرَّة، فإنه يعلم أنها لم تكن لتهرب هذه المرَّة، لو لم تهرب في المرَّة الأولى.

حين رأى المُحافِظ غاضباً هكذا قال بخوف: "أيُّها المُحافِظ، سأبدأ في تجهيز الشرطة على الفور، وإرسالها اليوم إلى بكين بالقطار".

استشاط المُحافِظ غضباً وهو يقول: "نحن الآن كالجالسين على الجمر، وأنتَ تقول سترسلهم بالقطار؟ أليست هناك طائرة؟ الوقت الآن هو أهمُّ شيء بالنسبة إلينا".

سارع رئيس الشرطة يقول: "حسناً، سيذهبون بالطائرة، سيذهبون بالطائرة. أنا فقط معتاد على مثل هذه الطريقة توفيراً للنفقات".

قرَّر المُحافِظ ألَّا يُخبر رئيس الهيئة القَضَائيَّة بشأن إرسال الشرطة إلى

بكين للقَبْض على لي شيوليان، وَتَرَكَهُ يذهب هو وبقية مرؤوسيه إلى بكين بحثاً عنها. بذلك سيكون هناك فريقان يبحثان، وهذا بالتأكيد أفضل بكثير. لذلك قال لرئيس الشرطة: "هذا تحرُّك سرِّيٌّ، لا تُخبِرْ به أحداً، ولا حتَّى رئيس الهيئة القَضَائيَّة".

قال رئيس الشرطة: "لن أُخبر أحداً حتَّى لو كان والدي".

قالها، ثمَّ غادر مكتب المُحافِظ راكضاً.

11

وَصَلَ وانغ قونغ داو ومعه أربعة عشر من العاملين في المحكمة إلى بكين منذُ ثلاثة أيَّام، ولكنْ، دون أن يعثر على لي شيوليان. لم يكن يعرف أن المُحَافَظَة أرسلت عشرات من أفراد الشرطة الذين انتشروا كشبكة حول قاعة الشعب الكُبْرَى، لذلك كان يعتقد أن مهمَّة البحث عنها مُلقاة على عاتقه وحده. قسَّم العدد البالغ خمسة عشر مُرافقاً، حاسِباً نفسه من ضمنهم، إلى خمسة فِرَق، كلُّ فريق مُكوَّن من ثلاثة أفراد، وانتشروا في بكين بحثاً عنها. كان من بينهم اثنان جاءا في السنوات الماضية إلى بكين بحثاً عن لي شيوليان، فاصطحب كلُّ واحد منهم فرقة من أربعة أفراد، وَذَهَبَا للبحث في جميع الفنادق الصغيرة كريهة الرائحة القابعة في الأزقَّة النائية التي قَطَنَتْ فيها في الماضي، كما ذَهَبَا إلى جميع المطاعم ومواقع البناء وأسواق الخضار وأماكن تجميع القمامة التي يعمل بها معارفها وأقاربها في بكين. لم يتركا أحداً أو مكاناً مُحتَمَلاً دون أن يذهبا إليه، ولكنْ، دون العثور على أدنى أثر لها. أمَّا الفِرَق الثلاثة الأُخرى، فقد تفرَّقت للبحث في محطَّات القطارات والحافلات، آملين أن يُمسكوا بها فور وصولها إلى بكين، أو أن تكون غير قادرة على النزول في فندق، وتبيت ليلتها في هذه المحطَّات. لكنْ، مرَّت ثلاثة أيَّام، تعاقب فيها الملايين على محطَّات القطارات والحافلات دون أن يعثروا لها على أثر.

لم يكن جيا تسونغ مينغ يرغب في المجيء معهم إلى بكين، ولكن وانغ قونغ داو وَبَّخَهُ قائلاً: "كيف لك ألَّا تأتي معنا إلى بكين وأنتَ المتسبِّب في

كلِّ ما حَدَثَ؟ لولاكَ لَمَا كانت للمحكمة علاقة بهذا الأمر، ولكنْ، بسبب أنانيَّتكَ، أقحمتْنا جميعاً في هذا، عليكَ أن تأتيَ وتعثرَ عليها، ولو لم تنجحْ في ذلك، فسوف أطردكَ من وظيفتكَ قبل أن يطردَني المُحافِظ من وظيفتي".

كان جيا تسونغ مينغ يعي تماماً فداحة الخطأ الذي ارتكبَهُ، وَوَجَدَ نفسه مُرغَماً على الذهاب معهم. هو أيضاً كان يأمل في أن يعثرَ عليها، وبذلك يكون قد كفَّر عن خطيئته، ولذلك كان مُتحمِّساً بشدَّة. ولكن العثور على شخص من عدمه لَهُوَ أمر لا علاقة له بالحماسة. فلا أحد يعرف إن كانت لي شيوليان قد جاءت إلى بكين أم لا، وحتَّى لو جاءت إلى بكين، فلا أحد يعرف أين هي، ولا فائدة من البحث على غير هُدى. فالبحث جَعَلَهُم يعرفون كم هي كبيرة بكين، وكم هي هائلة أعداد البشر فيها، وفي خضمِّ هذا كلِّه، بَدَا الإخفاق في العثور عليها شبه حَتْمِيّ. وما داموا لم يعثروا عليها، فلن يمكنهم التَّوقُّف، كما أنهم لا يعرفون كم من الوقت يتطلَّب ذلك. تَوَاصَلَ فريق وانغ قونغ داو مع الشرطة المحلِّيَّة في بكين في المناطق القريبة من الفنادق ومواقع البناء وأسواق الخضروات ومناطق تجميع القمامة، وَذَهَبُوا أيضاً إلى أقسام الشرطة القريبة من محطَّات القطارات والحافلات، حاملين صورة لها، آملين أن يتعرَّف عليها الناس والشرطة هناك. ولكن أفراد الشرطة كانوا مشغولين للغاية في تأمين انعقاد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، كما كان هناك الكثيرون أمثالهم من القادمين من خارج بكين بحثاً عن أشخاص آخرين، لذلك لم تعرْهم الشرطة أيَّ انتباه، على الرَّغْم من أنهم كانوا يحملون إثباتاً من محكمة المُحَافَظَة أنهم في مهمَّة رَسْمِيَّة، وقد اطَّلع بعض أفراد الشرطة على هذا الإثبات، وسألوا باندهاش: "البحث عن أشخاص هي مهمَّة الأمن العامِّ، ما علاقة المحكمة بهذا؟".

فأشار وانغ قونغ داو إلى جيا تسونغ مينغ، وقال غاضباً: "يمكنُكُم أن تسألوه هو".

دُهش أفراد الشرطة بشكل أكبر، فَبَدَا جيا تسونغ مينغ مثل المُذنب الذي يتمنّى أن تنشقَّ الأرض، وتبلعه. لم يكن وانغ قونغ داو وحده هو الغاضب منه، فالثلاثة عشر مُرافقاً الآخرون كانوا غاضبين، ويلومونه على أنانيَّته التي أوقعت بهم في حُفرة النار هذه. فالذهاب إلى بكين بحثاً عن شخص يختلف عن الذهاب إلى بكين للتَّنزُّه. عندما يتنزَّه الشخص يكون مرتاح البال، ويخلد إلى فراشة مُبكِّراً، أمَّا بالنسبة إليهم، فالعثور على لي شيوليان يُنغِّص عليهم أفكارهم، ولا ينامون إلَّا قرب الفجر. في ذلك اليوم، ظلُّوا يبحثون حتَّى الثانية فجراً، وعادوا إلى سَكَنِهم جائعين مُرهَقين وهم يسبُّون جيا تسونغ مينغ. ومن أجل تخفيف أجواء الاحتقان، اقترح أن يدعوهم لتناوُل الطعام. سألوه ما الذي سيدعوهم لتناوُله، لو كانت وجبة معكرونة، فمن الأفضل أن يخلدوا إلى النوم؛ فاقترح وجبة شهية من اللحوم والأسماك، معها بعض الخمر؛ فَنَجَحَ في إغرائهم، ثمَّ ذَهَبَ إلى وانغ قونغ داو في غرفته، يدعوه لتناوُل الطعام معهم، ولكنه أجابه ببرود: "لم نُنجزْ مهمَّتنا بعد، أين لي بالشهية لتناوُل الطعام؟". كان يتعمَّد جَعْل جيا تسونغ مينغ في موقف سيِّئ أمام البقية. فهو رئيس الهيئة القَضَائيَّة، ولو لم يذهب لن تكون لدعوته للبقية فائدة. فاستمرَّ جيا تسونغ مينغ يقول: "أيُّها الرئيس، أعرف أنكَ غاضب منِّي، ولكنكَ حكيم مُتسامح، ولن تحاسبَ شخصاً وضيعاً مثلي على خطئه". ثمَّ لَطَمَ وجهه بيده، واستمرَّ يقول: "والدي هو المُتسبِّب في كلِّ ما حَدَثَ، هو الذي فكَّر في تلك الفكرة من البداية". فكَّر وانغ قونغ داو لبعض الوقت، ثمَّ وافق على دعوته لتناوُل الطعام. ما جَعَلَهُم يطمئنُّون قليلاً هو مرور ثلاثة أيَّام دون أن تتسبَّب لي شيوليان في مشكلة. وتمنَّوا أن تمرُّ الأيَّام العشرة الباقية على تلك الوتيرة، فحينها ستنتهي الاجتماعات، وحتَّى لو لم يعثروا عليها، فلن يُحاسبَهُم أحد. كان المُحافِظ يهاتفه يومياً، وبمجرَّد أن أخبره وانغ قونغ داو أنه على الرَّغْم من أنهم لم يعثروا عليها، فإنها لم تتسبَّب في مشاكل حتَّى الآن، ولو استمرَّ

الأمر هكذا لعشرة أيّام قادمة حتّى انتهاء الاجتماعات، فلن تكون هناك مشكلة؛ انفجر المُحافِظ غاضباً، وقال: "هذا هُرَاء، ما دمتَ تفكِّر هكذا، فستحدث الكارثة عاجلاً أم آجلاً. هي وحدها مَنْ يقرِّر، كيف لكَ ضمان أنها لن تتسبَّب في مشكلة خلال الأيّام العشرة القادمة؟ لم تنقضِ سوى ثُلث مدَّة الاجتماعات فقط، وكلَّما تقدَّم الوقت، زادت الخطورة، لا يمكننا التساهل في الأمر، إن لم تعثرْ عليها، فلتعدْ حاملاً معكَ استقالتكَ".

صَدَّقَ وانغ قونغ داو على كلامه، ولكنْ، كيف للعثور على شخص أن يكون بهذه السهولة؟ هو يعرف أن المهمَّة الأساسية هي العثور على لي شيوليان، ولكنه كان يُمنِّي نفسه أن تمرَّ فترة الاجتماعات دون حدوث مشاكل.

استمرُّوا يبحثون عنها ليل نهار، كان الجوُّ شديد البرودة ليلاً، وبحلول اليوم الرابع، مرض اثنان من المُرافقين. في النهار كانوا يسعلون فقط، ولكنْ، مع حلول الليل، أصابتْهم حُمَّى شديدة، فأرسلهم رئيس المحكمة للمستشفى. وبحلول صباح اليوم التالي، لم تتراجع الحُمَّى، وزادت أعراض السعال، فَفَقَدَ بذلك اثنَيْن من أعضاء فريقه، ليس هذا فحسب، بل عليه تكليف ثالث بالاعتناء بهما. فاضطرَّ رئيس المحكمة لإعادة تشكيل بقية الفريق لأربع مجموعات. تزامن ذلك مع طَلَب مُرافق آخر - اسمه لاوهاو - العودة لبلدته لحضور الذكرى السَّنويَّة لوفاة أُمِّه. قال إن والده تُوفيِّ مُبكِّراً، وأُمُّه الأرملة هي مَنْ ربَّتْهُ وحدها، وعليه العودة ليشاركَ في ذِكْراها السَّنويَّة، لأنه كان يتوقَّع انتهاء المهمَّة خلال أيّام قليلة، ولم يتخيَّل أن تصبح معركة طويلة هكذا. بَدَا البقية منزعجين من كلامه، وَوَبَّخَهُ وانغ قونغ داو واصفاً إيَّاه بالأناني الذي يهتمُّ لأموره الشَّخصيَّة على حساب العمل، وأخبره أنه في الأحوال الطَّبيعيَّة لم يكن سيمنحه إجازة فقط، بل كان سيذهب معه بنفسه للمشاركة في ذكرى أُمِّه. وحدَّثَهُ قائلاً: "عليكَ تفهُّم المشكلة. لقد جاءت لي شيوليان إلى بكين للشكوى، والاجتماعات منعقدة، فهل اجتماعات

المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب أهمُّ أم ذكرى وفاة أُمِّكَ أهَمُّ؟ أنتَ كادر وطني، وعليكَ أن تُفرِّق بين أهمِّيَّة الأمور، ما الذي رَبَطَ بين اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب وبين ذكرى وفاة أُمِّك؟ أليست هي لي شيوليان؟ لو كان يجب أن تكره أحداً، فَلْتَكْرَهْها هي". ثمَّ تعهَّد له أنه إذا لم يغادر الفريق، فسوف يُرقِّيه بعد عودتهم. وهكذا ظلَّ وانغ قونغ داو يُرهِّبُهُ ويُرغِّبه حتَّى نَجَحَ في إقناعه؛ فهدأت نفوس البقية.

مرَّت ثلاثة أيَّام أُخرى دون العثور على لي شيوليان، وظلَّ وانغ قونغ داو يشعر بالقلق، لأنه لم يعثر عليها، ولكنه، في نفس الوقت، كان يشعر ببعض الارتياح، لأنه لم تحدث مشكلة بسببها خلال هذه الأيَّام. كان يأمل أن يمرَّ أسبوع آخر دون مشاكل، فالاجتماعات ستنتهي، وسيعبر الجميع الأزمة بسلام. وعلى الرَّغْم من هذا، فقد كان، أحياناً، يشكُّ أنها تلعب معهم لعبة القطِّ والفأر، وأنها لم تأتِ إلى بكين من الأساس، بل غيَّرت رأيها، ولن تشتكيَ هذا العام، وذَهَبَتْ إلى مكان آخر، وأحياناً يفكِّر أنها مثل ذَيْل الكلب الذي لن يستقيم، فقد ظلَّت مُتمسِّكة بموقفها على مدى عشرين عاماً، ولن تتنازل مهما حَدَثَ، كما أنها تشاجرت مع تشاو داتو، وهي الآن في أوج غضبها، ومن المحتمل جدَّاً أنها جاءت بكين بالفعل. هي فقط تختبئ، وتنتظر الوقت المناسب، لتتسلَّل إلى قاعة الشعب الكُبْرَى كما فَعَلَتْ في السابق. عندما كان يفكِّر في تلك النقطة كان يتصبَّب عَرَقَاً، ويشعر أن المُحافِظَ مُحقٌّ فيما قاله.

في صباح اليوم التالي، بينما كان وانغ قونغ داو ومُرافقوه يستعدُّون للخروج، جاءه شخص من بلدته يمتلك مطعماً في بكين، اسمه لاوباي برُفْقَة شخص آخر. كان وانغ قونغ داو قد ذَهَبَ إلى هذا المطعم بحثاً عن لي شيوليان منذُ عدَّة أيَّام. في الحقيقة إن اسمه مطعم، ولكنه، في الواقع، ليس سوى مكان صغير للغاية، يبيع الجياوتسي وبعض الأطعمة الخفيفة، ويتَّسع بالكاد لعدَّة طاولات.

اعتقد وانغ قونغ داو أن لاوباي لديه معلومات بخصوص لي شيوليان، وجاء يخبره بها، فاستقبله فَرِحاً، لكن لاوباي أشار إلى الشخص الذي برفقته قائلاً: "هذا السَّيِّد لاوماو، هو أيضاً من بلدتنا، ويودُّ دعوتكَ لتناوُل العشاء".

تبدَّلت ملامح وانغ قونغ داو وقال: "عذراً، لا يمكنني ذلك، فأنا الآن في مهمَّة رَسْمِيَّة".

لاوباي يعرف أنه مشغول بشأن البحث عن لي شيوليان، ويخاف أن تذهب وتتسلَّل إلى قاعة الشعب الكُبْرَى، فاستطرد يقول: "سنتناول الطعام في المساء، قاعة الشعب ستكون مُغلَقَة، ولا داعي للقلق بشأن تسلُّل لي شيوليان إلى هناك. لقد تملَّكَكَ التعب طيلة هذه الأيَّام، وينبغي أن تستريحَ ولو لليلة". ثمَّ سَحَبَهُ من يده، وَهَمَسَ وهو يشير إلى بقية مُرافقيه قائلاً: "حتَّى لو كنتُم تخرجون ليلاً للبحث عنها، فَلْتَتْرُكْ مُرافقيكَ يذهبون وحدهم، أنتَ رئيسهم، وليس عليكَ أن ترافقهم في كلِّ خطوة".

ضحك وانغ قونغ داو، وأشار إلى الشخص الذي برفقته سائلاً: "مَنْ هذا؟".

هَمَسَ لاوباي قائلاً: "لا أُخفيكَ سرَّاً، يدَّعي أنه رجل أعمال، ولكنه، في الحقيقة، تاجر أمعاء ماشية في بكين".

بَدَا وانغ قونغ داو مُمتعِضَاً، وشَعَرَ أن تناوُله الطعام برُفْقَة تاجر أمعاء ماشية أمر يحطُّ من قَدْره كرئيس للهيئة القَضَائيَّة. وعندما رآه لاوباي على تلك الحالة، سارع يقول: "على الرَّغْمِ من أنه تاجر أمعاء ماشية، فإنه ليس كغيره من تُجَّار أمعاء الماشية، فهو المُورِّد الوحيد لتُجَّار جملة أمعاء الماشية في بكين كلِّها".

فكَّر أن مهنة الشخص ليست دليلاً على مكانته، وأنه لا ينبغي أن

يأخذ الأمور بظاهرها. فسأله: "ولماذا يَدْعُوني تاجر أمعاء ماشية لتناوُل الطعام؟".

أجابه: "ليس هناك سبب، نحن فقط أبناء بلدة واحدة، وقد التقيْنا صدفة هنا في بكين، وهذه فرصة لنتعرَّف إلى بعضنا بعضاً".

ردَّ قائلاً: "لا تُحاوِلْ خداعي، فكلُّ مَنْ يقول لا يوجد سبب، يكون لديه سبب".

اضطرَّ لاوباي للمصارحة قائلاً: "لديه قضية، وينشد مساعدتَكَ بخصوصها".

ردَّ رئيس المحكمة مُندهِشاً: "هل هي قضية طلاق؟".

كان لاوباي يعرف أنه ما زال يعاني بسبب قضية لي شيوليان، فسارع بالقول: "لا، ليست قضية طلاق، بل قضية نزاع مالي".

فردَّ رئيس المحكمة ببرود رافضاً: "فلنتحدَّثْ عن هذا الأمر لاحقاً".

ثمَّ اصطحب مُرافقيه، وَخَرَجَ للبحث عن لي شيوليان. في اليوم التالي، كان قد نسي الأمر، ولم يتذكَّر إلَّا عندما هَاتَفَهُ لاوباي صاحب المطعم يسأله أين هو الآن؟ ويُخبره أن لاوماو يريد أن يدعوَهُ لتناوُل الطعام. أخبره وانغ قونغ داو أنه بقُرب محطَّة يونغ دينغمن للحافلات، وليس لديه وقت لتناوُل الطعام.

ولكنْ، بعد نصف ساعة، جاء لاوماو يقود سيَّارته المرسيدس الفارهة، ومعه لاوباي. وعندما رأى السَّيَّارة أدرك رئيس المحكمة مدى ثراء لاوماو. وأدرك، أيضاً، مدى إصراره على دعوته لتناوُل الطعام، كما أنه لم يتناول وجبة طعام شهية خلال الأيَّام الماضية، ويرغب في الذهاب إلى مكان

نظيف، يحتسي فيه بعض الخمر، فَفَكَّرَ قليلاً، ثمَّ طَلَبَ من مُرافقيه أن يستمرُّوا في بحثهم، واستقلَّ سيَّارة لاوماو المرسيدس مُغادِراً.

لم يُخيِّب لاوماو ظَنَّ وانغ قونغ داو، فلم يأخذْهُ إلى مطعم لاوباي الصغير، بل اصطحَبَهُ إلى نادي (888) الواقع على جانب الطريق الدَّائريِّ الغربي الرابع. شَعَرَ وانغ قونغ داو براحة عارمة فور دخوله إلى النادي، حيثُ شاهد الأضواء الساطعة، والعاملات الحسناوات يصطففنَ على جانبَي المدخل. في البداية ذَهَبُوا إلى قسم الساونا، استحمَّ جيِّداً، ثمَّ لَيَّفَ جَسَدَهُ، وَنَظَّفَهُ بالكامل، بعدها ذَهَبُوا إلى غرفة منفصلة لتناوُل الطعام. الغرفة مساحتها تتجاوز المائة متر، فسيحة تغمرها الإضاءة، وبداخلها نافورة يتدفَّق منها الماء. والطاولة مُزيَّنة بأصناف فاخرة من الطعام، زعانف القرش، وحَسَاء عشِّ الطائر، وحَلَزُون الجيودوك، وخيار البحر، وغيرها ممَّا لَذَّ وطابَ. كان وانغ قونغ داو مُعتاداً على مثل هذه الولائم، فهو دائم التَّردُّد على مطعم "نبع الكرز البعيد" في محافظته. ولكنه الآن في بكين، ولم يتناول أيَّ وجبة كهذه منذُ أيَّام، لم يذقْ فيها طَعْمَ الراحة، كان يشعر براحة وسرور بالغَيْن. أخذ يتأمَّل تلك الغرفة الفاخرة، ويقارن الاختلاف الكبير بين مطاعم بكين ومطاعم محافظته من حيثُ فخامة المكان وفخامة الطعام. تناول بعض الطعام، ثمَّ احتسى عدَّة كؤوس من الخمر، فَبَدَا ثَمِلاً بعض الشيء. وحتَّى لو لم يكن ثَمِلاً، كان سيتظاهر بالسُّكْر، فتلك خبرات اكتسبها من عمله لسنوات كرئيس للهيئة القَضَائيَّة، فهو يعرف جيِّداً أنه كلَّما كانت الوليمة فاخرة كان الأمر كبيراً. تظاهُرُه بالسُّكْر سيجعله قادراً على التَّنصُّل من المساعدة. بعدما شرب عشرة كؤوس، أشار لاوباي بعينه إلى لاماو أن يتحدَّث، وقد لاحظ وانغ قونغ داو تلك الإشارة، ولكنه تظاهر بأنه لم يلحظْ شيئاً. قال لاوماو إن ابن عمِّه كان يتعامل في تجارة جلود الماشية من خلاله مع المكتب التِّجاريِّ للمُحَافَظَة، وفي الأعوام السابقة، كانت

الأمور تسير على ما يرام، ولكنْ، حَدَثَ صدام هذا العام بسبب دَيْن متأخِّر على المكتب التِّجاريِّ للمُحَافَظَة من العام الماضي، ولم ينجح الحوار في الوصول إلى نتيجة، واضطرَّ لأن يرفع دعوى على المكتب التِّجاريِّ، ويريد منه المساعدة في هذه القضية.

سأله وانغ قونغ داو: "وكم يبلغ هذا الدَّيْن؟".

أجاب: "عشرون مليوناً".

ذُهِلَ وانغ قونغ داو، فكيف لتاجر جلود الماشية أن يكسب رَقْماً كهذا، وبما أن الرَّقْم ضخم هكذا، فبالتأكيد هذه قضية صعبة، ولهذا تظاهر بالسُّكْر بشكل أكبر، وقال بلسان متثاقل: "أنا ثمِلٌ الآن".

سارع لاوماو يقول: "لا توجد مشكلة، يمكننا أن نتحدَّث عن هذا الأمر في وقت آخر. وكما يقول المَثَل: لا حديث جادّاً خلال الشراب".

شَعَرَ أن لاوماو شخصٌ فَطِنٌ، يعقلُ الأمور، فاستمرَّ يشرب حتَّى ثمِلَ حقّاً، وغاب عن وعيه، وبدأ يسأل لاوماو عن أحوال القضية، ولكنه كان مُشوَّشاً لا يعي أيَّ شيء، فتدخَّل لاوباي قائلاً: "قضية أبسط بكثير من قضية لي شيوليان".

عندما سمعه يذكر قضية لي شيوليان، تحوَّل فكره تماماً لقضيَّتها، وأخذ يتحدَّث عنها. وعلى الرَّغْمِ من أنه لم يفهم أيَّ شيء عن قضية لاوماو، فإنه كان يتحدَّث بوضوح عن قضية لي شيوليان، والسبب في ذلك أنه خاض تفاصيل القضية على مدار عشرين عاماً كاملة بداية من إصداره الحُكْم فيها وحتَّى الآن، دون أن تنتهيَ معاناته بسببها. تحدَّث حتَّى أجهش بالبكاء، ثمَّ خَبَطَ بيده على الطاولة قائلاً: "لي شيوليان، يا ابنة العاهرة، لقد جَعَلْتِ حياتي جحيماً".

نَظَرَ لاوباي ولاماو إلى بعضهما، وهما لا يعرفان كيف ينصحانه. بينما استمرَّ في حديثه المتثاقل، ثمَّ انبطح برأسه على الطاولة، واستغرق في النوم. فَحَمَلَاه إلى السَّيَّارة، ثمَّ أوصلاه إلى سَكَنِه.

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي لم يتذكَّر ما دار في الليلة السابقة. شَعَرَ بصداع شديد، وفكَّر أنه ربمَّا كانت الخمر التي شربها بالأمس خمراً مَغشوشة. وَضَعَ يده على رأسه وهو يلوم نفسه على الذهاب لتناوُل العشاء، فلم يكن يتذكَّر ما قاله لهما بالأمس، وخشي أن يكون قد تفوَّه بكلام خاطئ. ولكن النَّدَمَ لن يفيد، وعليه أن يترك هذا الأمر خلفه، ويذهب للبحث عن لي شيوليان. تَحَامَلَ على نفسه، وَخَرَجَ للبحث عنها. ذَهَبَ برُفْقَة فرقته المكوَّنة من ثلاثة أفراد، وبحلول الظَّهيرة، ذَهَبُوا إلى مطعم صغير لتناوُل المعكرونة. جَلَسَ وحده يشرب بعض الشاي، ثمَّ رنَّ جَرَسُ هاتفه. أخرج الهاتف، فَوَجَدَ المتَّصل هو لاوهاو، فاعتقد أنه يريد الحديث عن الذكرى السَّنويَّة لوفاة والدته، فبادره قائلاً: "ألم ننتهِ من الحديث بشأن ذكرى وفاة والدتكَ؟".

لكن لاوهاو أجابه قائلاً: "لقد وَجَدْتُ لي شيوليان".

بَدَا وكأنه استفاق من سُكْره فجأة، وقال متلهِّفاً: "وأين أنتَ الآن؟".

لاوهاو: "أمام مدخل محطَّة مترو سونغ جيا تشوانغ".

سأله: "وماذا تنتظر، اقبضْ عليها فوراً".

لاوهاو: "أنا هنا بمفردي، والأعداد كبيرة أمام مدخل المحطَّة، أخشى ألَّا أستطيع الإمساك بها بمفردي".

قال رئيس المحكمة بحَنَق: "وأين الاثنان الآخران عضوا فريقكَ؟".

لاوهاو: "كنَّا نتناول الطعام معاً، فشَعَرْتُ بمَغْصٍ، وَخَرَجْتُ بحثاً عن دورة مياه، وشاهدتُها فجأة".

قال مُتلهِّفاً: "لا تُثرِ انتباهها، ولا تجعلْ نَظَرَكَ يغيب عنها، لا تجعلْها تهرب منكَ، وسأرسل لكَ مساعدة على الفور".

طَلَبَ من مُرافقيه تَرْك أطباق المعكرونة، والخروج معه بسرعة، واتَّصل بأعضاء الفرقَتَيْن الأُخرَيَيْن، يطلب منهم الذهاب على وجه السرعة إلى محطَّة مترو سونغ جيا تشوانغ، ثمَّ استقلَّ سيَّارة أجرة، وتوجَّه هو ومَنْ معه إلى هناك. وَصَلُوا جميعاً بعد نصف ساعة، فَوَجَدُوا لاو هاو ومعه زميلاه. وما إن اقترب منهم حتَّى بادره لاوهاو قائلاً: "لي شيوليان اختفت".

قال رئيس المحكمة مُحتدَّاً: "ألم أقلْ لكَ ألَّا ترفع نَظَرَكَ عنها؟".

أشار لاوهاو إلى الناس أمام مدخل المحطَّة، وقال: "انظرْ، كيف أراقب شخصاً بين كلِّ هؤلاء؟ اختفت في لَمْح البصر".

لم يكن لديه وقت ليُوبِّخَهُ، فأشار إلى مَنْ معه قائلاً: "هيَّا، تفرَّقوا، كلُّ واحد في اتِّجاه مُختلف داخل المحطَّة وخارجها، اقلبوا الأرض رأسا على عقب، المُهمُّ أن تعثروا عليها".

تفرَّق الجميع بحثاً عنها داخل وخارج محطَّة المترو. اثنا عشر شخصاً مُقسَّمون إلى أربعة فِرَق، استمرُّوا يبحثون ذهاباً وإياباً داخل وخارج محطَّة مترو سونغ جيا تشوانغ منذُ الظَّهيرة حتَّى وقت العصر دون العثور على أدنى أثر لها. محطَّات المترو من الأماكن المزدحمة التي يتنقَّل عبرها الكثيرون، ولربَّما كانت لي شيوليان استقلَّت المترو، وَذَهَبَتْ إلى مكان آخر، لذلك تفرَّقت الفِرَق الأربع، واستقلُّوا المترو بحثاً عنها في محطَّات أُخرى. ولكنْ، يوجد العديد من خطوط المترو في بكين، بحثوا في أكثر من مائتَي محطَّة،

في عشر خطوط منها، لكنْ، أنَّى لهم العثور عليها وسط حشود الرُّكَّاب. استمرُّوا يبحثون في أكبر عدد ممكن من المحطَّات والخطوط حتَّى منتصف الليل دون تناوُل أيِّ طعام، ولم يعثروا عليها. وبحلول الواحدة بعد منتصف اليل، توقَّفت جميع خطوط المترو، وأُغلقَت المحطَّات كافَّة، عادت الفِرَق الأربع، وتجمَّعت مرَّة أُخرى عند محطَّة سونغ جيا تشوانغ. لم يَقْلَقُوا هكذا قبل اكتشاف وجود لي شيوليان، فهم لا يعرفون ما الذي قد تُقدِم على فِعْله في الخطوة التالية، وأيّ كارثة قد تتسبَّب فيها. كانوا يأملون أن تمرَّ الأيَّام المتبقِّية في سلام حتَّى تنتهيَ الاجتماعات، ولكن ظهورها في بكين يعني أن الكارثة اقتربت، وربمَّا تقع غداً أو بعد غد. ظَهَرَت البثور على فم رئيس المحكمة وانغ قونغ داو من شدَّة التعب، وأخذ يُوبِّخ لاوهاو قائلاً: "لماذا لم تنقضّ عليها حين رأيتَها؟ كيف لشخص بدين ممتلئ مثلكَ ألَّا يتمكَّن من الإمساك بامرأة؟".

لم يقتنع لاوهاو بكلامه، وردَّ عليه قائلاً: "ألستُ بهذا أثير انتباهها حال أخفقتُ في الإمساك بها؟ نحن نرتدي ملابس مَدَنِيَّة، ولا أحد يعرف هُوِيَّتنا، وأخاف أن تصرخ، فيجتمع حولي المارَّة، ويضربونني".

ضحك البقية من كلامه، أمَّا رئيس المحكمة، فَبَدَا عابساً وهو يقول: "هل أنتَ متأكِّد من أنها هي لي شيوليان؟".

بَدَا لاوهاو متردِّداً، واضطرَّ أن يقول: "لقد رأيتُها من الخلف، ولذلك لم أتأكَّد من وجهها بشكل كامل".

قال رئيس المحكمة بغضب: "وكيف حَكَمْتَ بأنها هي؟".

لاوهاو: "بَدَتْ لي مثلها تماماً".

تذمَّر البقية قائلين: "كيف لكَ أن تجعَلَنا نبحث من الظَّهيرة حتَّى منتصف الليل دون تناوُل الطعام وأنتَ غير متأكِّد؟!".

بَدَا رئيس المحكمة حانقاً على لاوهاو بشدَّة، فكيف له أن يُخطِئ التَّعرُّف إلى امرأة تشبه لي شيوليان في توقيت كهذا، عدم تأكُّده من كونها هي يحتمل أمرَيْن: إمَّا أنها هي، وإمَّا أنها ليست هي. ليست هناك مشكلة ألَّا تكون هي بعد كلِّ هذا العناء، ولكنْ، ماذا لو كانت هي؟ في صباح اليوم التالي، استمرَّ البحث في محطَّات مترو بكين. وبما أنهم لم يعثروا عليها، ولم تحدث أيُّ مشاكل بسببها، فكَّر رئيس المحكمة أن تلك المرأة التي رآها لاوهاو ربمَّا لم تكن هي، فَشَعَرَ ببعض الطمأنينة. بقيت خمسة أيَّام على انتهاء الاجتماعات، وهو يُمنِّي نفسه أن تمرَّ هذه الأيَّام بسلام حتَّى لو لم ينجحْ في العثور عليها.

حتَّى منتصف تلك الليلة، لم يعثروا عليها، ولكن شرطة بكين نَجَحَتْ في القَبْض عليها. يومها استمرُّوا في بحثهم طيلة النهار والليل، وعادوا إلى الفندق دون نتيجة. وما إن خَلَعَ رئيس المحكمة ملابسه، واستلقى على فراشه حتَّى رنَّ هاتفه، كان المتَّصل شرطياً من قسم شرطة أحد شوارع حي غرب بكين. قبل عشرة أيَّام، ذَهَبَ رئيس المحكمة لأحد الفنادق الصغيرة هناك بحثاً عنها، وتواصل مع قسم الشرطة، وَتَرَكَ لهم رَقْم هاتفه. أخبره الشّرطيّ في الهاتف أنهم خلال دورية ليلية عثروا على سيِّدة ريفيَّة، تتطابق مواصفاتها مع لي شيوليان، واقتادوها إلى قسم الشرطة، وحقَّقوا معها، ولكنها امتنعت عن الجواب. اعتقد المُحقِّقون أنها بكماء، لكنهم لاحظوا أنها تستطيع سماعهم. قَفَزَ من فراشه، وسأل الشّرطيّ: "كم عُمُرها تقريباً؟".

الشّرطيّ: "تقريباً خمسون".

-: "وكيف يبدو شكلها؟".

=: "متوسِّطة القامة، شَعْرها قصير".

-: "سمينه أم نحيلة؟".

مكتبة
t.me/soramnqraa

=: "ليست سمينة ولا نحيلة".

لَمَعَتْ عيناه قائلاً: "بالتأكيد هي لي شيوليان، سآتي على الفور".

ثمَّ نادى على بقية مُرافقيه، وغادروا الفندق متَّجهين إلى قسم الشرطة. بَدَا رئيس المحكمة وكأن حِمْلاً ثقيلاً قد أُزيح عن كاهله، فها هي لي شيوليان جاءت إلى بكين، وما دام قد نَجَحَ في الإمساك بها، فسيكون في موقف أفضل أمام قادته بدلاً من عودته خالي الوفاض. بَدَا مسروراً للغاية هو ومُرافقوه، وأخذ أحدهم يمتدح شرطة بكين قائلاً: "شرطة بكين ماهرة بالفعل، لم ننجحْ في العثور عليها لأكثر من عشرة أيَّام، وشرطتُها نَجَحَتْ في العثور عليها في ليلة واحدة".

وقال آخر: "لا يهمُّ مَن الذي أمسك بها، المُهمُّ أن هذا إنجازاً سيُحسَب لنا في النهاية عندما نقتادها معنا عائدين إلى المُحَافَظَة".

حتَّى جيا تسونغ مينغ الذي كان مَهموماً دوماً بسبب هذا الأمر مَازَحَ رئيس المحكمة قائلاً: "أيُّها الرئيس، لقد عثرْنا عليها أخيراً، عليكَ أن تدعوَنا للطعام على حسابكَ".

بَدَا مُتحمِّساً هو الآخر، ولم يعبسْ في وجه جيا تسونغ مينغ كالمعتاد، وقال: "بالتأكيد سأدعوكم، لقد تعبْنا جميعاً طيلة هذه الأيَّام، سنذهب غداً لتناوُل بَطٍّ بكين المَشويِّ".

دَخَلُوا قسم الشرطة، وتحدَّثوا إلى الشّرطيّ المناوب. ذَهَبَ الشّرطيّ إلى إحدى غرف الاحتجاز، ثمَّ خَرَجَ مصطحباً معه امرأة رِيفيَّة. أُصيب الجميع بالدهشة والذهول، سنُّها وجسمها يشبهان لي شيوليان بالفعل، ولكنها ليست هي.

خَاطَبَهُم الشّرطيّ المناوب قائلاً: "تبدو امرأة سليطة اللسان، لكنها تتظاهر بأنها بكماء، أليست هي مَنْ تبحثون عنها؟".

بَدَا رئيس المحكمة كالأبكم، وهزَّ رأسه بحسرة نافياً.

عادوا إلى غرفهم، وفي صباح اليوم التالي استمرُّوا في بحثهم.

12

مرَّ اثنا عشر يوماً على انعقاد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، ولم تأتِ لي شيوليان إلى بكين. وهذا يعني أن كلَّ ما بَذَلهُ رئيس الهيئة القَضَائيَّة وفريقه في البحث عنها ضاع هَبَاء، وأنَّ نَشْر شبكة من شرطة المُحَافَظَة خارج قاعة الشعب لم يكن له فائدة.

هي لم تأتِ إلى بكين، ليس لأنها غيَّرت رأيها ولن تشتكي في بكين، أو لأن شرطة مُقَاطَعَة شاندونج أو مُقَاطَعَة خبي ألقت القَبْض عليها في طريقها إلى بكين؛ بل لأنها مرضت وهي في طريقها إلى بكين.

لأنها كانت قَلِقَة أن تعتقلها الشرطة في طريقها إلى بكين، لم تسافرْ من شاندونج مباشرة إلى بكين، ولم تستقل القطار المتَّجه إلى بكين، ولم تركب حافلات المسافات الطويلة المتَّجهة إلى بكين، بل سافرت أوَّلاً إلى مدينة تشانغ تشينغ القريبة، ومن تشانغ تشينغ إلى يان تشنغ، ومن يان تشنغ إلى يو تشنغ، ومن يوتشنغ إلى بينغ يوان، ومن بينغ يوان إلى داتشو، ومن داتشو إلى ووتشياو، ومن ووتشياو إلى دونغ قوانغ، ومن دونغ قوانغ إلى نان بي، ومن نان بي إلى تسانغتشو، ومن تسانغتشو، إلى تشنيغ شيان، ومن تشينغ شيان إلى باتشو، ومن باتشو إلى قو آن، ومن قو آن إلى دا شينغ، ومن دا شينغ إلى بكين.

كانت كلُّ تنقُّلاتها بالحافلات الصغيرة التي تتنقَّل بين القرى والمحافظات حتَّى تهرب من كمائن الشرطة المنتشرة على الطُّرُق السريعة.

وتلك خبرات اكتسبتْها خلال عشرين عاماً من احتكاكها بالشرطة. وعلى الرَّغْم من التعب الشديد الذي ألمَّ بها جرَّاء كلِّ هذه التَّنقُّلات، ومصاريف التَّنقُّلات التي زادت عدَّة أضعاف، فإن نجاحها في الإفلات من قبضة الشرطة أفضل بكثير من الراحة وتوفير المال. تنقُّلها من بلدة إلى أُخرى ومن محطَّة إلى أُخرى كان يهدر الوقت بشكل كبير، ولكن اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب تستغرق أسبوعَيْن، وما دامت ستتمكَّن من الوصول إلى بكين قبل انتهاء الاجتماعات، فلن تكون هناك مشكلة. كانت تعي أيضاً أن المُحَافَظَة سترسل قوَّة من الشرطة إلى بكين للبحث عنها. فخلال عشرين عاماً من الشكوى، كانت شرطة المُحَافَظَة تمنعها من السَّفَر في كلِّ مرَّة، ولم تنجحْ في الإفلات منهم سوى خمس مرَّات، وفي هذه المرَّات الخمس، كانوا يتعقَّبونها إلى بكين، ومن خلال خبراتها في لعبة القطِّ والفأر مع الشرطة، كانت تعرف أن وصولها مُبكِّراً سيجعل من السهل على الشرطة المتحفِّزة هناك اعتقالها، لكنْ، لو وَصَلَتْ متأخِّرة، فسيكون التعب قد تملَّك من الشرطة، ومن السهل الإفلات منهم.

ظلَّت تتنقَّل بين المحافظات والمحطَّات إلى أن وَصَلَتْ إلى بلدة قو آن في مُقَاطَعَة خبي المتاخمة لبكين بعد خمسة أيَّام. وعلى الرَّغْم من المشقَّة الشديدة التي عانتْها، فإنها حقَّقت هدفها، ولم تقع في قبضة الشرطة. بلدة قو آن تقع على الحدود مع بكين، وتبقَّى لها ركوب سيَّارة منها، لتصل إلى بكين. كانت سعيدة للغاية وقت وصولها إلى قو آن. كان الوقت ليلاً، فَبَحَثَتْ عن فندق صغير، تستريح فيه. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت وهي تشعر بألم شديد في رأسها، وحين تحسَّستْ جبهتها، وَجَدَتْها ساخنة كالجمر. شَعَرَتْ بالمرارة، فهذا ليس الوقت أو المكان المناسب للمرض، ولو وَقَعَتْ فريسة للمرض الآن، فلن تكون المشكلة في المرض فقط، بل ستكون في تعطُّلها عن الذهاب للشكوى. هي الآن في قو آن، وبكين على مَرمَى البصر، والأيَّام تنقضي بسرعة، ولا

يمكنها أن تتراخى بسبب المرض، لذلك تحاملت على نفسها، فقامت، واغتسلت، ثمَّ غادرت الفندق مُتوجِّهة لمحطَّة الحافلات. تناولت طَبَقاً من الحَسَاء الساخن في مطعم صغير داخل محطَّة الحافلات. كانت تأمل أن يجعلها الحَسَاء تتعرَّق ويُخفِّف من الحُمَّى. ولكنها تقيَّأت الحَسَاء فور وصوله معدتها. لم تستسلم، ولم تسترح، تحاملت على نفسها، واستقلَّت الحافلة المتَّجهة إلى ضاحية داشينغ في بكين. ظلَّت تفكِّر في مرضها وهي داخل الحافلة، فمنذُ انطلقت من شاندونج تنقَّلت بين بضع عشرة بلدة ومُحَافَظَة، وعلى الرَّغْم من شدَّة التعب والارهاق، فإنها لم تتناول سوى الخبز الجافِّ والمخلَّلات الجاهزة توفيراً للمال. قَضَتْ بضعة أيَّام لم تتناول خلالها وجبة مكتملة أو حَسَاء دافئاً. شَعَرَتْ بالنَّدَم، وأنه لم يكنْ عليها التفكير في توفير المال هكذا، فهذا أمر لم يؤثِّر على صحَّتها فقط، بل قد يُعطِّلها عن الذهاب إلى بكين. فكَّرَتْ أيضاً أن إهمالها صحَّتها كان بسبب غضبها الشديد من تشاو داتو أيضاً. لم تكن تتخيَّل أنه تواطأ مع المسؤولين في المُحَافَظَة، فهو يريدها ليس فقط للزواج، بل لمَنْعها من الذهاب للشكوى، وبذلك يكون المسؤولون في المُحَافَظَة قد تخلَّصوا من مشكلتها. كانت صفقة بين تشاو داتو والمسؤولين، ولقد علمتْ كلَّ هذا بمحض الصدفة حين سمعتْهُ يتحدَّث في الهاتف، وكاد دماغها أن ينفجرَ، والسبب في ذلك ليس تواطؤ تشاو داتو مع المسؤولين، بل لأنها كرهت نفسها بسبب ما فَعَلَتْهُ معه. هي الآن في التاسعة والأربعين، وظلَّت تشتكي على مدار عشرين عاماً، ذاقت خلالها ويلات كثيرة، ولم تكن تتخيَّل أن تقع ضحية الخداع في نهاية المطاف. تعرُّضها للخداع لم يكن المشكلة الأكبر بالنسبة إليها، المشكلة الأكبر هي أنها سلَّمت جَسَدَهَا. يمكنها أن تنتقم منه، لأنها خَدَعَهَا، ولكنْ، ماذا عن جَسَدِهَا الذي دنَّسَتْهُ؟ الأواني القذرة يمكن غَسْلها، ولكنْ، ماذا عن الجسد الذي تلطَّخ بالعار؟ أحد الأسباب التي جَعَلَتْها تستمرُّ في شكواها طيلة العشرين عاماً الماضية

هي أنها تريد أن تنفيَ عن نفسها تهمة الخيانة وَوَصْمها بأنها الخائنة بان جين ليان، ولكنها الآن صارت بالفعل بان جين ليان بعدما تَرَكَتْهُ يضاجعها. فكَّرَتْ في قَتْله، لكن قَتْله وحده لن يشفيَ غليلها. قَتْلها له يعني هلاكه وهلاكها، ولن يضرَّ شَعْرة من هؤلاء المسؤولين الفاسدين، بل على العكس، سيُخلِّصهم من مشكلتها إلى الأبد. وحتَّى لو كانت ستقتله، عليها أن تذهب للشكوى أوَّلاً، وبعدها يمكنها أن تعود وتقتله. ذهابها للشكوى الآن مُختلف عمَّا كان عليه في السابق، هي لن تذهب لتشكوَ زوجها السابق تشين يوخه وحده، بل ستشكو جميع هؤلاء المسؤولين الفاسدين الذين تواطؤوا مع تشاو داتو ضدَّها، بمَنْ فيهم عضو اللجنة القَضَائيَّة، ورئيس الهيئة القَضَائيَّة، والمحافظ، والعُمدَة ... فهؤلاء جميعاً هم مَنْ أوصلوها إلى هذه الحال. سُخطها الشديد عليهم زاد من حِدَّة الحُمَّى التي انتابت جَسَدَهَا وهي تجلس في الحافلة، شَعَرَتْ أن جَسَدَهَا كالجَمْر المُتَّقد؛ فَفَتَحَتْ نافذة الحافلة، لتشعر ببرودة الهواء قليلاً، فلربمَّا خفَّف ذلك من شعورها بالحُمَّى.

ارتفعت درجة حرارة جَسَدِهَا بشكل كبير. في الصباح كانت تشعر بالحُمَّى في رأسها، ولكنها الآن تشعر وكأن جَسَدَهَا يقبع وسط حفرة من النار، يزيد لهيبها بمرور الوقت، وأنها على وشك أن تفقدَ وعيها. وقتها وَصَلَتِ الحافلة إلى المعبر الفاصل بين قو آن وبكين، واكتشفت وجود خمس سيَّارات شرطة قرب المعبر، يقف بجوارها عدد من أفراد الشرطة، يحملون كشَّافات ضوئية، ويشيرون لجميع السَّيَّارات القادمة بالتَّوقُّف والخضوع للتفتيش، وهناك الكثير من السَّيَّارات والحافلات الواقفة على جانبَي الطريق انتظاراً للتفتيش. شَعَرَتْ بخيبة الأمل، فهي لم تركب القطار أو الحافلات المتَّجهة مباشرة إلى بكين، واستمرَّتْ تتنقَّل بالحافلات الصغيرة بين البلدات والمحافظات تجنُّباً لكمائن الشرطة، ولكنها، على ما يبدو، لم تنجح في ذلك. لقد ضاع تعبها ومرضها هَبَاء. توقَّفت الحافلة

لأكثر من ساعة في طابور من السَّيَّارات انتظاراً للتفتيش، بعدها صَعِدَ شرطيان إلى الحافلة التي تستقلُّها، وتفحَّصا هُوِيَّات الرُّكَّاب والتصاريح التي بحوزتهم واحداً تلو الآخر، ويسألان عن سبب قدومهم إلى بكين. تماماً كما حَدَثَ معها قبل عشرين عاماً عندما جاءت للمرَّة الأولى، ولكنها الآن أصبحت خبيرة بمثل هذه الأمور، فلم ترتبك أو تهاب الموقف. ظلَّ الشّرطيّان يتفحَّصان الرُّكَّاب، منهم مَنْ كانت أوراقه سليمة، فلم تضايقْهُ الشرطة، ومنهم مَنْ لم ينجح في إقناع الشرطة، فأنزلوه بالقوَّة من الحافلة. جاء الدَّوْر على لي شيوليان، فأخرجت بطاقة هُوِيَّة مُزيَّفة كانت قد اشترتها بمائَتَي يوان من مزوِّر في أحد حواري حَيِّ هايديان في بكين قبل ثلاث سنوات خصِّيصاً، كي تتفادى تفتيش الشرطة. اسمها في الهُوِيَّة المُزوَّرة كان تشاو شيو، وكانت كالأصلية تماماً، بحيثُ لم يكتشف الشّرطيّ أنها مُزوَّرة. أمسك الشّرطيّ بالهُوِيَّة وسألها: "لماذا أنتِ قادمة إلى بكين؟".

أجابتْهُ لي شيوليان كما حَدَثَ قبل عشرين عاماً: "جئتُ للعلاج".

حدَّق الشّرطيّ فيها، واستمرَّ يسأل: "وإلى أيِّ مستشفى ستذهبين؟".

أجابتْهُ كما أجابت قبل عشرين عاماً أيضاً: "مستشفى بكين".

الشّرطيّ: "من أيِّ مرض تعانين؟".

لي شيوليان: "هَلَّا تحسَّستَ جبهتي؟".

ذُهل الشّرطيّ، ثمَّ مدَّ يده، يتحسَّس جبينها، فَوَجَدَهَا حامية كالجمر الملتهب، فَسَحَبَ يده بسرعة، واستمرَّ يسأل: "وأين التصريح الذي بحوزتكِ؟".

أجابت بوَهْن: "كيف لي أن أذهب لعمل تصريح وأنا مريضة على هذا الحال؟".

الشّرطيّ: "آسف، لا يمكنني السماح لكِ بالعبور دون تصريح".

قالت وهي تصارع التعب: "أنا على وشك أن أفقد وعيي الآن، لو نَزَلْتُ من السَّيَّارة سأموت، ستكون أنتَ المسؤول عن موتي".

بَدَا الشّرطيّ متضايقاً، وقال: "يمكنكِ الذهاب إلى أيِّ مستشفى آخر قريب منكِ، وبعد انتهاء الاجتماعات، يمكنكِ أن تعودي إلى بكين للعلاج".

استندت برأسها على النافذة، وقالت: "أنا مريضة بالتهاب رئوي حادّ، وقد تتوقَّف أنفاسي في أيِّ لحظة، ولا توجد أيُّ مستشفيات قريبة من هنا، لن أنزل من الحافلة مهما حَدَثَ".

تقدَّم الشّرطيّ وَجَذَبَهَا ليُنزِلها من الحافلة وهو يقول: "لا تجادليني، لن يمكنكِ العبور بدون تصريح".

وبينما هما يتجاذبان، نَهَضَ رجل طاعن في السِّنِّ يجلس بجوارها، ويرتدي ملابس عسكرية قديمة، ويبدو أنه من الكوادر، وقال: "إن كنتَ تريد تصريحاً، فمرضها هو التصريح، هذه السَّيِّدة تجلس بجواري طَوَالَ الطريق والحُمَّى تجتاح جَسَدَهَا، لو كانت أُختكَ هل كنتَ ستتركها تنزل من الحافلة وتواجه الموت هكذا؟".

شَعَرَتْ بالامتنان تجاه الرجل، فهي لم تسمع أحداً يدافع عنها هكذا منذُ وقت طويل، فاختلطت مشاعرها، وتذكَّرت معاناتها على مدار الأيَّام الماضية، ومعاناتها طيلة العشرين عاماً السابقة؛ فانخرطت في البكاء. دُهش الشّرطيّ، وخاطب الرجل قائلاً: "أنا لا أمنعها من الدخول إلى بكين، ولكن اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب منعقدة الآن".

قال الرجل: "وماذا إذنْ؟ هل ستمنعون الناس من العلاج، بسبب

انعقاد اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب؟! أليست هي واحدة من أبناء الشعب؟!".

غضب بقية الرُّكَّاب أيضاً عندما رأوها تبكي، وتعالت أصواتهم مستهجنين تصرُّف الشّرطيّ.

عندما سمع الشّرطيّ أصواتهم الغاضبة سارع يقول: "هل تعتقدون أنني أتصرَّف هكذا من تلقاء نفسي؟ هذه تعليمات المسؤولين". ثمَّ ترجَّل من الحافلة، وَتَرَكَهَا تمضي.

استمرَّتْ الحافلة في طريقها بعد نزول الشّرطيّ، فَشَكَرَتْ لي شيوليان الرجلَ الجالس بجوارها، وَشَكَرَتْ بقية الرُّكَّاب، وتوقَّفت عن البكاء. ولكنها كانت واهنة الجسد، وَوَهَنَتْ أكثر بعد نوبة البكاء. قبل أن تبكيَ كانت تشعر بالحُمَّى، ولكنْ، بعد أن بَكَتْ، صارت تشعر بالبرد، حتَّى اصطكَّت أسنانها ببعضها بعضاً. ومع ذلك تحاملت على نفسها، كي تستمرَّ في طريقها إلى بكين للشكوى. بعد ساعة، لم تعد تشعر بالبرودة، بل عادت الحُمَّى ثانية، ولكنها حُمَّى جافَّة دون تعرُّق، ثمَّ دَخَلَتْ في غيبوبة، ومالت بجَسَدِهَا على الرجل الجالس بجوارها.

طَلَبَ الرجل من السائق التَّوقُّف عندما رآها على هذه الحال. أوقَفَ السائق الحافلة وَذَهَبَ ليتفقَّدها، وارتعب عندما رآها، فقد سمعها قبل قليل تقول للشّرطيّ إنها تعاني من التهاب رئوي. لم يرتعبْ من مرضها، بل من أن تموت في حافلته، فسيكون عرضة للمساءلة. صاح فيه الرجل الجالس بجوارها: "ماذا تنتظر؟! هيَّا، اذهبْ بنا إلى أقرب مستشفى".

بَدَا السائق وكأنه استفاق من دهشته، فسارع إلى مقعده، وقاد متَّجهاً إلى أقرب مستشفى. نَزَلَ من الطريق العامِّ إلى طريق ريفيٍّ فرعيٍّ، ثمَّ توجَّه إلى بلدة قريبة على بُعد خمسة عشر كيلو متراً، اسمها نيوتو، هذه

البلدة تقع على الحدود بين بكين ومُقَاطَعَة خبي، ولكنها تتبع خبي. دَخَلَ السائق البلدة مخترِقاً سوق الخضروات هناك، ثمَّ توجَّه نحو المستشفى الصغير غرب البلدة.

استفاقت لي شيوليان بعدما رَقَدَتْ في غيبوبة بمستشفى بلدة نيوتو لمدَّة أربعة أيَّام؛ فَوَجَدَتْ نفسها راقدة على سرير المستشفى وأنابيب المحاليل مُعلَّقة في ذراعها. استمرَّتْ في شكواها لعشرين عاماً، خاضت خلالها الكثير من الصعاب، ولكنها لم تمرض قطُّ، بل نادراً ما كانت تُصاب بحُمَّى أو صداع. ولهذا فعندما أصابها هذا المرض المُفاجِئ، ضَرَبَ جَسَدَهَا بشدَّة، وَظَهَرَتْ عليها جميع الأعراض التي تراكمت لعشرين عاماً. أخبرها الطبيب أنها كانت مصابة بالحُمَّى في البداية، بعد ذلك ظَهَرَتْ عليها أعراض الملاريا، وتزامن معها التهاب معوي، وربمَّا كان ذلك بسبب تناوُل طعام غير نظيف، كما أنها أُصيبت بالتهاب رئوي تماماً كما ادَّعت منذُ أربعة أيَّام وهي تتحدَّث إلى الشّرطيّ. الأعراض التي طرأت عليها كانت مرتبطة بالالتهاب، ولذلك لم تنخفضْ حرارتها لأربعة أيَّام، وكانت هناك زيادات مُخيفة في كُريَّات الدم البيضاء، ولذلك استمرَّ الأطبَّاء في تعليق المحاليل طيلة الأيَّام الأربعة. لم تتوفَّر كمِّيَّات كبيرة من الأدوية في تلك المستشفى الصغيرة، واستهلكت وحدها جميع العلاجات المضادَّة للالتهاب في المستشفى. بعدما استفاقت، شَكَرَتِ الأطبَّاء، وحاولت النهوض مسرعة، لم تكن تحاول النهوض بسبب قَلَقِها من المرض، بل لأنها نَظَرَتْ إلى روزنامة التقويم المُعلَّقة على الحائط، فعلمت أنها رَقَدَتْ لأربعة أيَّام. قامت بحساب الأيَّام، فأدركتْ أنه لم يتبقَّ أمامها سوى أربعة أيَّام هي الفترة المتبقِّية على انتهاء اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، ولو لم تصل إلى بكين بسرعة، فلن تتمكَّن من الشكوى. ولن يكون لشكواها أثر. هي الآن في موقف أقوى بسبب انعقاد الاجتماعات، ولكنْ، بعد انتهاء الاجتماعات، سيصبح موقفها أضعف بكثير، هي الآن مثل النَّمِر،

وبعد أربع أيَّام ستصبح قطَّة، ولن يهابها أحد من المسؤولين. بعدما غادر الطبيب، تحاملت على نفسها، وحاولت النهوض من فراشها، وأدركت أن جَسَدَهَا واهن للغاية، وأن قَدَمَيْها لا تقويان على حَمْلها، ولا حتَّى السَّيْر لخطوات، فكيف لها أن تذهب للشكوى وهي على تلك الحالة؟ تنهَّدت طويلاً، ثمَّ استلقت على السرير ثانية.

مرَّ يومان آخران وهي غير قادرة على النهوض، ولم يتبقَّ سوى يومَيْن وتنتهي الاجتماعات. وَمَلَّتِ المكوث في المستشفى أكثر من ذلك، وكانت مثل الراقد على الجَمْر. قرَّرت مغادرة المستشفى ولو زاحفة، فعليها أن تصل إلى بكين قبل انتهاء الاجتماعات. طَلَبَتْ من مُرافقتها في غرفة المرضى أن تستدعيَ الطبيب، وقالت إنها تريد المغادرة. طبيبها كان رجلاً نحيلاً، ناتئ الأسنان، خلال تعامُلها معه في الأيَّام الماضية، علمت أنه شخص طيِّب. ولكنه بَدَا قَلِقاً أكثر منها حين سمع أنها تريد المغادرة وقال: "ألَّا تريدين العيش؟ كيف تغادرين وأنتِ بهذه الحالة؟".

لم تكن تريد إخباره بأمر استعجالها على الذهاب للشكوى، ومن ثمَّ اختلقت عذراً آخر، وقالت: "ليس لديَّ مال".

ذُهل الطبيب، ولم يُجبها، بل استدار بجَسَدِهِ وغادر، ثمَّ عاد بعد قليل برُفْقَة مديرة المستشفى. كانت مديرة المستشفى امرأة سمينة ذات شَعْر مجعّد، وحين وَقَفَتْ أمام لي شيوليان بادرتْها بالسؤال: "كم من المال لديكِ؟".

أمسكتْ لي شيوليان بحقيبتها من على الطاولة بجوار السرير، ثمَّ فَتَحَتِ السَّحَّاب، وأخرجتْ محفظة النقود من وسط الملابس، ثمَّ أخرجتْ منها كومة من التذاكر والعُملات الورقية والمعدنية، وعدَّتْ نقودها أمامهما. كان إجمالي ما معها خمسمائة وستَّة عشر يواناً. بَدَتْ مديرة المستشفى مغتاظة، وقالت: "لقد مَكَثْتِ في المستشفى ستة أيَّام، وكلُّ يوم نُعلِّق

لكِ المحاليل، أعطيناكِ أفضل الأدوية لدينا حتَّى فرغ مخزوننا من الأدوية، وبحساب كلفة الإقامة وكلفة الدواء يكون الإجمالي أكثر من خمسة آلاف يوان".

قالت: "ولهذا أردتُ مغادرة المستشفى منذُ وقت مبكِّر".

قالت المديرة: "بدون دَفْع التكلفة، لن نتركِكِ تغادرين المستشفى".

ردَّتْ بحَنَق: "لو لم تتركوني أغادر المستشفى، فستزيد التكلفة".

شَعَرَتْ مديرة المستشفى أن كلامها منطقيّ، فقالت: "هيَّا، اطلبي بسرعة من أحد أقاربكِ أن يأتيكَ بالمال".

ردَّت قائلة: "قريتي تبعد عن هنا أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر، وأقاربي كلُّهم فقراء، ولا يستطيعون تحمُّل كلفة السفر إلى هنا، بالتأكيد لن يأتيَ أحد منهم".

قالت المديرة بغضب: "وما العمل، إذنْ؟".

فكَّرَتْ لي شيوليان وقالت: "بكين قريبة من هنا، مائة كيلو متر فقط، ولديَّ قريب هناك، يبيع زيت السِّمْسِم في سوق دونغ قاو للخضروات، يمكنكم أن ترسلوا معي أحد الأشخاص إلى بكين، ليأخذَ المال، ويعودَ به إليكم".

13

في صباح اليوم التالي، استقلَّت لي شيوليان سيَّارة إسعاف المستشفى، وتوجَّهت إلى بكين. كانت السَّيَّارة قديمة ومتهالكة، تسير مثل رجل هَرِم، يتنفَّس بصعوبة. سيَّارات الإسعاف جُعِلَتْ لنَقْل المرضى، ولكن سيَّارة الإسعاف هذه لم تنقل لي شيوليان إلى بكين، لأنها مريضة، أو لتحويلها إلى مستشفى آخر، بل لتحصيل تكاليف علاجها. لم يكن المستشفى ليرسل معها سيَّارة إسعاف من أجل تحصيل نفقات علاجها فقط، بل لأن أنواعاً عديدة من الأدوية نَفَدَتْ، وإدارة المستشفى تريد جَلْب كمِّيَّات أُخرى من الأدوية من بكين. في الأصل كان المستشفى يريد إرسال السَّيَّارة إلى بكين بعد يومَيْن، ولكنْ، جرى تقديم الموعد بسبب موضوع تكاليف علاجها، وبهذا تكون إدارة المستشفى ضَرَبَتْ عصفورَيْن بحجر واحد. كان هناك اختلاف كبير بين ذهاب لي شيوليان إلى بكين بالحافلة وبين ذهابها بسيَّارة الإسعاف، فعندما اقتربت سيَّارة الإسعاف من حدود مُقَاطَعَة خبي مع مدينة بكين، كانت الشرطة تفتِّش السَّيَّارات ورُكَّابها. ولو كانت تستقلُّ حافلة عادية، سيكون عليها الانتظار والخضوع للتفتيش ثانية، ولكنْ، لأنها تستقلُّ سيَّارة إسعاف، سَمَحَتْ الشرطة بالعبور المباشر. وهكذا دَخَلَتْ بكين بسلام.

لقد جاءت بكين للشكوى، ولكنْ، قبل ذهابها للشكوى في قاعة الشعب الكُبْرَى، عليها الذهاب إلى سوق قاو دونغ للخضروات أوَّلاً. سائق سيَّارة الإسعاف الذي كان يرافقها لأخذ المال، ولجَلْب أدوية من بكين إلى

المستشفى شابٌّ ثلاثيني، اسمه آن جينغ(*). وعلى الرَّغْمِ من أن اسمه "الهادئ" فإنه مُزعِج للغاية، فقد ظلَّ يتذمَّر منها ومن إدارة المستشفى طيلة الطريق مُردِّداً: "من المفترَض أن آتيَ إلى بكين بعد يومَيْن، كان لديَّ أمر مُهمٌّ أقوم به، اليوم تعطَّلتُ عنه بسببكِ، وأخبرتُ إدارة المستشفى من قبل، على مَنْ يأتي للعلاج أن يدفع أوَّلاً، ولكنهم لا يُنصتون إليَّ، وها قد جَلَبُوا المتاعب لأنفسهم".

فكَّرَتْ أن تشرح له أن المستشفى لم يتعمَّد ذلك، وأنها أُصيبت بغيبوبة، وحَمَلَهَا الناس إلى هناك، كما أنها لم تعرف أنها ستمكث فيه كلّ هذا الوقت، وتستهلك كمِّيَّة كبيرة من الأدوية، كما أنها لم تتهرَّب من الدَّفْع، فقط ليس لديها المال الآن، ولذلك فهي ذاهبة بصحبته، للبحث عن قريبها في سوق قاو دونغ للخضروات، لكي تطلب منه المال، ولكنها عَدَلَتْ عن فكرتها، فقد كانت تشعر بالوَهْن، ولا طاقة لديها للحديث، كما أنها كانت تعلم أنها ربمَّا لن تلتقيَ به ثانية، ولا داعي للثرثرة معه. فبعدما فَتَحَتْ فمها للتَّحدُّث معه، عادتْ وأطبقتْ شَفَتَيْهَا، وظلَّتْ تنظر من النافذة في صمت.

وَصَلَتْ سيَّارة الإسعاف إلى سوق الخضروات بعد ساعة من دخولها إلى بكين. لي شيوليان لديها ابن عمَّة اسمه لو شياويي، جاء إلى بكين قبل سبع سنوات، ليبيعَ زيت السِّمْسِم في سوق قاو دونغ للخضروات. هي تكبره باثنَي عشر عاماً، وعندما كان في الثالثة من عُمُره أُصيبت والدته بالتهاب كبدي، ولأن والده كان دائماً ما يرافق والدته في الذهاب للعلاج، وكان يخشى عليه أيضاً من أن تصيبه عدوى الالتهاب الكبدي من والدته، أرسله ليعيش في بيت لي شيوليان، وعاش معهم لثلاث سنوات كاملة. كان لو شياويي بطيء الكلام، حتَّى إنه لم يكن لينطق بجملة كاملة وهو

*) معنى اسمه في اللغة الصِّينيَّة: الهادئ.

في سنِّ الثالثة. وكان شقيق لي شيوليان الأصغر لي ينغ يونغ دائماً ينفر منه، ويضربه خفية. أمَّا هي، فكانت تُراعيه وتهتمُّ به، وتحمله على ظَهْرها، لتذهبَ به إلى الحقول، وتُمسك له الفراشات والجنادب، ليلهوَ بها. وظلَّ يحفظ لها هذا الجميل بعدما كبر. وفي كلِّ مرَّة يعود فيها إلى بلدته، يذهب لزيارتها. قبل عدَّة سنوات عندما جاءت بكين للشكوى، ذَهَبَتْ لزيارته في السوق، وتكفَّل بإقامتها عنده طيلة مكوثها في بكين. كما أنه كان متعاطِفاً معها بشأن قضيَّتها، على الرَّغْم من أنه لا يعرف كيف تحوَّلت هذه القضية من حبَّة سِمْسِم إلى ثمرة بِطِّيخ، ومن نملة صغيرة إلى فيل كبير. كانت تعرف أن ابن عمَّتها الصغير هذا حافظٌ للجميل، ولذلك عندما واجهتْها المشكلة المالية جاءت تطلب مساعدته. هي تتذكَّر أن دُكَّانه يقع في الزاوية الشَّماليَّة الشَّرقيَّة للسوق، وعلى يمينه دُكَّان نقانق، وعلى يساره دُكَّان دواجن. ولذلك فعندما وَصَلَتْ سيَّارة الإسعاف أمام السوق، نَزَلَتْ مُتحامِلَة على نفسها، يرافقها السائق، وسارا داخل السوق مُتوجِّهَيْن نحو الزاوية الشَّماليَّة الشَّرقيَّة منه. وبعدما وَصَلاَ، اكتشفت أن الدُّكَّان لم يعد موجوداً، وأن دُكَّاناً لبيع الخردوات حلَّ محلَّه، على الرَّغْم من أن بائعي النقانق والدواجن لا يزالان في مكانهما. شَعَرَتْ بالقلق، فسارعت تسأل صاحب دُكَّان الخردوات: "أين ذَهَبَ لو شياويي الذي كان يبيع السِّمْسِم هنا؟".

قال: "لا أعرف، عندما استأجرتُ هذا الدُّكَّان كان فارغاً".

التفتتْ وسألتْ بائع النقانق: "هل تعرف أين ذَهَبَ بائع زيت السِّمْسِم الذي كان يبيع هنا؟".

فردَّ قائلاً: "لقد تَرَكَ المكان منذُ ثلاثة أشهر".

سألت متلهِّفة: "وهل تعرف أين ذَهَبَ؟".

ردَّ بلا اكتراث: "لا أعرف".

التفتت نحو تاجر الدواجن الذي كان منشغلاً في ذَبْح إحدى الدجاجات، وسألتْهُ، لكنه فقط هزَّ رأسه نافياً علْمه بمكانه.

شَعَرَتْ بالقلق، وكذلك شَعَرَ سائق الإسعاف الواقف بجوارها. قَلَقُ سائق الإسعاف كان مُختلفاً عن قَلَقِ لي شيوليان، فهي كانت قلقة بسبب عدم العثور على قريبها، أمَّا هو، فكان قَلِقاً من أنها تتلاعب به، ولن تدفعَ له المال؛ فقال غاضباً: "ليس لديَّ وقت أُضيِّعه معكِ، لديَّ أعمال أُخرى لأُنجزَها".

حاولتْ تهدئته قائلة: "لقد كان هنا عندما جئتُ لزيارته في المرَّة السابقة، ولم أكن أعرف أنه تَرَكَ المكان".

قال السائق: "هذا حديثٌ لا جدوى منه، إن لم تدفعي المال، فسآخذكِ معي، وأعود بكِ إلى المستشفى".

انخرطت لي شيوليان في البكاء، لم تكن تبكي بسبب عدم عثورها على قريبها، وبالتالي عدم قدرتها على دَفْع المال، بل لأنه لو أصرَّ السائق على إعادتها ثانية، فلن تتمكَّن من الذهاب إلى قاعة الشعب الكُبْرَى للشكوى، حيثُ إنه لم يتبقَّ سوى يوم واحد على انتهاء الاجتماعات.

عندما شاهد المارَّة في السوق شابّاً يُعنِّف امرأة وهي تبكي التفُّوا حولهما، ليشاهدوا ماذا يجري، وحاول بعضهم التَّدخُّل لتهدئة الأمور، ولكنْ، عندما سمعوا أنها مَدينة بالمال، تراجعوا ثانية.

تقدَّم شخص بدين يرتدي مَرْيَلَة بلاستيكية، يحمل على كتفه فخذ خروف، وفي يده ساطور، ومن الواضح أنه جزَّار، أنزل فخذ الخروف من على كتفه، وتدخَّل بالسؤال عن سبب المشكلة، وبعدما علم السبب،

عرف أيضاً أن لي شيوليان جاءت بحثاً عن قريبها بائع السِّمْسِم الذي كان يبيع هنا في الماضي، فاصطحبها معه إلى دُكَّان بائع النقانق الواقع على يمين دُكَّان قريبها بائع زيت السِّمْسِم، وسأل صاحبه: "أين ذَهَبَ بائع زيت السِّمْسِم الذي كان هنا في السابق؟".

بائع النقانق: لا أعرف".

الجزَّار: "لقد كنتُم جيراناً في السابق، ألم يُخبرْكَ بأيِّ شيء قبل أن يتركَ المكان؟"

ثمَّ أشار إلى لي شيوليان وهي تبكي، واستمرَّ يقول: "هذه المرأة تبكي، هي مَدينة لأحدهم بالمال، وتبحث عن قريبها".

استمرَّ بائع النقانق يقول: "لا أعرف".

الجزَّار: "لا تأبه لكلامي، أليس كذلك؟"، ثمَّ لوَّح له بساطوره وهو يقول: "إن لم تُجبْني، سأهدم لكَ دُكَّانكَ".

وبينما هو يهدِّده هكذا، حاول بائع النقانق تهدئته قائلاً: "اهدأْ قليلاً، سأخبركَ، بائع زيت السِّمْسِم تشاجر مع تاجر الدواجن قبل ثلاثة شهور، وسمعْنا بعدها أنه انتقل إلى سوق يوقه تشوانغ، ولكنني غير متأكِّد". ثمَّ رَمَقَ لي شيوليان بنظرة حادَّة، وقال: "تريد أن تسأل دون أن تشتريَ، لو اشترتْ منِّي كنتُ سأُجيبها من البداية".

يقع سوق يوقه تشوانغ هذا في الضاحية الجنوبية من بكين، وهو أيضاً سوق لبيع الخضروات. شَعَرَتْ لي شيوليان بالاطمئنان بعدما علمت مكان قريبها، وأنه لم يغادر بكين. وعلمت أيضاً أنها كانت مخطئة لعدم شرائها من بائع النقانق قبل سؤاله. شَكَرَتِ الجزَّار على مساعدته لها، لكن الجزَّار ردَّ عليها قائلاً: "لا أُحبُّ أن أرى الفقراء يتعرَّضون للظُّلم"، ثمَّ حَمَلَ فخذ

الخروف، والتفتَ مغادِراً. اكتشفت أن هذا الجزَّار يبدو من ظَهْره مثل لاوخو جزَّار بلدتها قبل عشرين عاماً.

غادرت سيَّارة الإسعاف سوق قاو دونغ للخضروات متَّجهة نحو سوق يوقه تشوانغ، ووَصَلتْ بعد ساعة تقريباً. توقَّفت السَّيَّارة خارج السوق، ثمَّ ترجَّلَتْ ومعها السائق إلى السوق بحثاً عن قريبها. اضطرَّتْ ومعها سائق الإسعاف إلى البحث عنه داخل السوق بأكمله. بَحَثَا في كلِّ أرجاء السوق، ولكنْ، لم يعثرا عليه، بل لم يعثرا على أيِّ دكاكين لبَيْع زيت السِّمْسِم. سابقاً عندما كان يبيع زيت السِّمْسِم في سوق قاودونغ كان هناك قِدْران كبيران أمام دُكَّانه، تفوح منهما رائحة زيت السِّمْسِم، بحيثُ يسهل العثور عليه من بعيد. شَعَرَتْ أنهما لم يبحثا بدقَّة كافية، فقرَّرت البحث مرَّة أُخرى. جالت جميع أرجاء السوق بالكامل مرَّة أُخرى، ولكنْ، دون العثور عليه أو على أيِّ دكاكين لبَيْع زيت السِّمْسِم. شَعَرَتْ بالقلق ثانية، كانت تخشى أن يكون غادر هذا السوق أيضاً، أو أنه لم يأتِ إليه من الأساس، وأن يكون بائع النقانق خَدَعَهَا. كلُّ هذا ليس مُهمَّاً، المُهمُّ الآن هو أنها لم تعثرْ عليه، والأهمُّ من كلِّ هذا هو أنها لا تعرف أين يمكنها الذهاب للبحث عنه، وكيف ستتصرَّف في الخطوة التالية.

عندما رآها سائق الإسعاف على تلك الحالة بَدَا قَلِقَاً هو الآخر وقال: "ما العمل الآن؟ أنا ليس لديَّ وقت كي أرافقكِ هكذا للبحث عن قريبكِ في كلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ". ثمَّ نَظَرَ إلى ساعته، وقال: "الساعة الآن تقترب من الثانية عشرة، وأريد أن أذهب لشراء الأدوية. دعكِ من كلِّ هذا، فلتعودي معي ثانية إلى المستشفى، ويمكنكِ أن تحلِّي مشكلتكِ مع مديرة المستشفى بعيداً عنِّي".

زاد قلقها عندما حدَّثَها السائق بتلك الطريقة، فعدم عثورها على لو شياويي سيُعطِّلها عن الذهاب للشكوى، كما أن السائق أخبرها أن الساعة

قاربت الثانية عشرة ظُهراً، وغداً هو اليوم الأخير للاجتماعات، وكلُّ ساعة الآن ستكون فارقة بالنسبة إليها، فالوقت لا ينتظر أحداً. عقدت العزم ألَّا تعود برفقته إلى المستشفى مهما حَدَثَ، سواء عثرت على قريبها أم لا، أو سواء تمكَّنت من دَفْع تكاليف العلاج أم لا. ولكن المشكلة الآن هي أنها امرأة قاربت على الخمسين، ولم تتعافَ تماماً من مرضها، ومعها سائق شابٌّ فتيٌّ، يستطيع مَنْعها ممَّا تفكِّر فيه. وبينما كانت تفكِّر في هذه الأمور سمعت صوتاً ينادي خلفها: "أبيع السمك الطازج، رخيص وشهي، الكيلو بواحد وعشرين يواناً فقط".

شَعَرَتْ أن هذا الصوت مألوف بالنسبة إليها، فاستدارت بوجهها، لتجد شاباً يرتدي مَرْيَلَة بلاستيكية وأكماماً واقية وقفَّازات، يقف خلف طاولة خشبية وبيده مفكٌّ كبير، يكسر به الثلج الذي يغطِّي السمك أمامه على الطاولة. هذا الشَّابُّ كان هو ابن عمَّتها. لقد عثرتْ عليه أخيراً، لقد انتقل فعلاً إلى هنا، ولكنه لا يبيع زيت السِّمْسِم الآن، بل يبيع السمك. لم تتمالك لي شيوليان نفسها، ونادت عليه بصوت عالٍ: "لو شياويي". رَفَعَ رأسه يبحث عن مصدر الصوت، ونَظَرَ إليها طويلاً حتَّى عرف مَنْ هي. بَدَا مذهولاً، وسألها قائلاً: "كيف صرتِ نحيلة هكذا، لم تكوني نحيلة هكذا في السابق، لقد تعرَّفتُ إليك بالكاد".

انهمرت في البكاء قائلة: "أنا مريضة". ثمَّ تابعت تسأله: "لقد كنتَ تبيع زيت السِّمْسِم، لماذا تبيع السمك الآن؟".

أجاب: "لقد ارتفعت أسعار السِّمْسِم بشكل كبير، ولم يعد بَيْع زيت السِّمْسِم عملاً مُربحاً". وجَرَّها من يدها، وسارا بضع خطوات، وسألها: "هل جئتِ للشكوى ثانية؟". هزَّت رأسها مُجيبة بنعم، فاستمرَّ يقول: "لقد خمَّنتُ ذلك، جاء رئيس الهيئة القَضَائيَّة ومعه مجموعة من مُرافقيه إلى هنا أكثر من عشر مرَّات بحثاً عنكِ. في البداية كانوا يأتون كلَّ ثلاثة أيَّام، وبداية من الأمس، صاروا يأتون مرَّتَيْن يومياً".

بَدَا عليها القلق، وخافت أن تمكث وقتاً أطول، من الممكن أن يأتيَ رئيس الهيئة القَضَائيَّة ومُرافقوه، ويعثروا عليها، فسارعت تقول: "حسناً، عليَّ أن أغادر الآن". ثمَّ استدارت بجَسَدِهَا، وَهَمَّتْ بالمغادرة، لكن سائق الإسعاف أَوْقَفَهَا، وقال: "إلى أين أنتِ ذاهبة؟ أين المال؟". تذكَّرت أنها جاءت بسبب مصاريف العلاج، فسارعت تُخبر لو شياويي بأمر تكاليف العلاج في المستشفى، وأنها مَدينة للمستشفى بخمسة عشر ألف يوان.

استمع لو شياويي لحديثها، ثمَّ قال للسائق: "سأدفع لكَ المال المطلوب منها". لكنه استطرد وقال بلهجة متردِّدة: "ولكنْ، ليس لديَّ كلُّ هذا المال الآن".

ردَّ السائق: "إذنْ، لن أتركها تغادر من هنا".

قال لو شياويي: "انتظراني هنا، سأذهب إلى البنك الآن، لسَحْب النقود".

أوصى جاره أن يراقب طاولة السمك الخاصَّة به، ثمَّ خَلَعَ قفَّازَيْه ومَرْيَلَتَهُ، وسارع مغادراً السوق قاصداً البنك. اضطرَّت لي شيوليان أن تنتظر داخل السوق برُفْقَة سائق الإسعاف، وبينما هما ينتظران، وَصَلَ رئيس الهيئة القَضَائيَّة ومُرافقوه إلى السوق. كانت فرحتهم عارمة عندما شاهدوا لي شيوليان واقفة أمامهم، وكأنهم ذبابات جائعة منذُ أيَّام، وشاهدت بقعة كبيرة من الدماء. لم يتحدَّث أحد منهم، بل هُرعوا نحوها، وطوَّقوها. هي ليست مُذنبة، ولا يحقُّ لهم وَضْع الأصفاد في يَدَيْها أو معاملتها كالجناة، وعلى الرَّغْم من أن رئيس المحكمة كان يلهث بسبب الرَّكْض، فإنه ابتسم في وجهها قائلاً: "لم يكن من السهل أبداً العثور عليكِ". لم تعره أيَّ انتباه، بل التفتت إلى سائق الإسعاف، وعنَّفتْهُ قائلة: "هذا كلُّه بسببكَ، لقد عطَّلتَني عمَّا جئتُ من أجله". تسمَّر سائق الإسعاف مكانه عندما شاهد كلَّ هؤلاء الأشخاص يحيطون بها معتقِداً أنها مَدينة لهم بالمال أيضاً، ولم

يردّ عليها، بل التفت نحو رئيس المحكمة، وقال: "أنا هنا قبلكم، انتظروا حتَّى أحصل على مالي، ثمَّ طالبوها بمالكم". لم يكن سائق الإسعاف يعرف أنهم من الهيئة القَضَائيَّة، لأنهم يرتدون ملابس مَدَنِيَّة. لم ينتظر لاوهاو الضخم تعليمات رئيسه، فتقدَّم وصاح في سائق الإسعاف قائلاً: "تنحَّ جانباً، يمكنكَ أن تذهب إلى المحكمة لاحقاً للمطالبة بمالكَ، نحن الآن ننفِّذ مهمَّة رَسْمِيَّة، هل فهمتَ؟".

ظنَّ سائق الإسعاف أنهم من الشرطة، فلم يجرؤ على التَّحدُّث ثانية، بينما استمرَّ رئيس المحكمة يخاطب لي شيوليان ضاحكاً: "انسِ أمر الشكوى، وعودي معنا، لقد كنَّا نعرف أن لو شياويي قريبكِ يعمل هنا، وعلمنا أنكِ ستأتين إلى هنا عاجلاً أم آجلاً".

بَدَتْ غاضبة وهي تقول: "لقد أخبرتُكُم سابقاً أنني لن أذهب للشكوى، ولكنكم لم تُصدِّقوني، أنتُم مَنْ دَفَعْتُمُوني إلى هذه الحالة، وإن لم تتركوني أذهب للشكوى الآن، فسأنتحر أمامكم هنا".

أشار رئيس المحكمة بيده بعيداً إلى الطريق خارج السوق، فاكتشفتْ وجود سيَّارة شرطة، نَزَلَ منها بعض الأشخاص، وساروا نحوهم. كانت تعتقد أنهم أيضاً من العاملين في الهيئة القَضَائيَّة، لكنْ، بمجرَّد أن اقتربوا منها، اكتشفت أن بينهم ابنها تشين يوتساي.

كانت قد حَمَلَتْ بطفلتها الثانية عندما كان تشين يوتساي في السادسة، وتلك الطفلة كانت هي السبب في فكرة الطلاق الزائف بينها وبين زوجها السابق تشين يوخه، ولكنْ، بعدما وَضَعَتْ طفلتها غيَّر من رأيه، وقال إن طلاقهما كان حقيقياً. تَرَعْرَعَتْ ابنتها برفقتها، ولكنْ، بعدما كبرت، لم ترغب في البقاء معها، أمَّا ابنها، فقد تَرَعْرَعَ برُفْقَة والده منذُ الطفولة، وعلى الرَّغْمِ من ذلك، فإنه كان يُحبُّ والدته كثيراً. وَحَدَثَ أن تقابلا مصادفة العام الماضي في أحد الشوارع، وأعطاها بعض المال.

وعندما شاهدت ابنها قادماً برُفْقَة أعضاء الهيئة القَضَائيَّة اعتقدت أنهم جاؤوا به كرهينة، كي يُجبروها على العودة معهم، ولكنها فكَّرَتْ قليلاً، هم يعرفون أن ابنها يعيش مع أبيه منذُ صغره، وأن ابنتها هي التي كبرت معها، ولو كان عليهم أن يأتوا برهينة، فمن المُفترَض أن تكون الابنة، وليس الابن. هؤلاء المسؤولون لا يعرفون كيف يتصرَّفون، هذه عادتهم دوماً في عملهم. وبينما هي تفكِّر، تقدَّم ابنها نحوها، وقال بدهشة: "أُمِّي، كيف أصبحت نحيلة هكذا؟".

لم تهتمّ بسؤاله عن نحولها هكذا، بل سألتْهُ: "يا بنيَّ، لماذا قبضوا عليكَ؟".

قال: "لم يقبضوا عليَّ، جئتُ معهم، كي أُخبركِ ألَّا تذهبي للشكوى".

قالت: "لو أنكَ جئتَ لتنصحَني، فيمكنكَ العودة الآن، ربَّما كانت لنصيحتكَ فائدة من قبل، ولكن الوَضْع مُختلِف هذا العام، سوف أذهب للشكوى ولو كلَّفني هذا حياتي".

قال ابنها: "أنا لم أحضرْ لأنصحَكَ، جئتُ كي أُخبركَ أنه لا فائدة من الشكوى".

قالت مُتعجِّبة: "لماذا؟".

بكى ابنها، وَجَثَا على ركبَتَيْه قائلاً: "لقد مات أبي".

تسمَّرتْ مكانها، ولم تعِ ما قاله. وبعد وقت طويل، فهمت أنه يقصد تشين يوخه بقوله: "لقد مات أبي". شَعَرَتْ وكأن انفجاراً قد دوَّى داخل رأسها، هذا الانفجار ليس حزناً على موته، بل لأنه لن يكون لشكواها سبب بعد موت زوجها السابق سبب الشكوى. موته يعني كَسْر السلسلة التي تربط الشكوى، فالريش لن يكون له وجود ما دام الجِلْد غير موجود.

بالفعل، فإن الأمور مُختلفة هذا العام، ففي السابق كان هو محور الشكوى، والمسؤولون ليسوا سوى جزء منها، أمَّا هذا العام، فالمسؤولون هم أساس الشكوى، وتشين يوخه ليس سوى فرع منها، ولكن عدم وجوده لن يُمكِّنَها من شكوى المسؤولين. هذا العام تآمر تشاو داتو مع المسؤولين، وَخَدَعَهَا، ليس نَفْسِيَّاً فقط، بل جَسَدِيَّاً أيضاً، حتَّى لقد أشرفت على الموت وهي في طريقها إلى بكين، ولم تكن تتخيَّل أن تكون هذه هي النتيجة بعد وصولها، ألَا يعني ذلك ذهاب كلِّ تعبها هَبَاء؟ فهي بهذا لن تتمكَّن من شكوى تشين يوخه، ومن شكوى المسؤولين، ومن نَفْي تهمة كونها بان جين ليان.

خيَّم عليها الذهول لبعض الوقت، ولم تتمالك نفسها وهي تسأل ابنها: "لم يكن به مرض أو علَّة، كيف مات؟".

نَهَضَ ابنها وقال: "هو بالفعل لم يكن به مرض أو علَّة، وقع له حادث سَيْر قبل خمسة أيَّام".

استمرَّ يبكي ويقول: "في تلك الليلة، تشاجر مع زوجته الثانية، وفي ثورة غضبه، قاد الشاحنة، وتوجَّه إلى المصنع لنَقْل شحنة من السماد، وفي أثناء عبوره جسراً أعلى نهر اليانجتسي، واجهتْهُ سيَّارة مسرعة، حاول تفاديها؛ فاصطدم بعارضة الجسر، وانقلب بشاحنته في النهر. لقد ضَعُفَ نَظَرُهُ منذُ مدَّة، كما أنه كان غاضباً وفاقداً للتركيز في أثناء القيادة".

صَدَّقَتْ أنه مات بالفعل، وأنها كانت راقدة في غيبوبة وقت موته؛ فَصَرَخَتْ تسبُّ وتلعن قائلة: "تشين يوخه، يا ابن العاهرة، لقد دمَّرتَ حياتي وأنتَ حَيٌّ، ألم تكتفِ بذلك، وتريد تدميرها بعد موتكَ؟ كيف لكَ أن تموت دون أن ننتهيَ من الفَصْل في قضيتنا؟". ثمَّ انخرطت في بكاء وعويل طويل وسط جموع المارَّة. كان بكاؤها مُفرِطاً، حتَّى إن دموعها ومخاطها سالا بغزارة دون أن تكترث لمَسْح وجهها. إنها تبكي

على تشين يوخه الذي كان عدوّاً لها. لو كان مَنْ مات أحد أقاربها، لم تكن لتبكيه بهذه الحُرْقَة.

في هذه الأثناء، كانت الشاشة العملاقة المقابلة للسوق والمُعلَّقة على جدار المبنى الضخم المكوَّن من ستَّة وثمانين طابقاً أمام السوق تعرض بثّاً مباشراً لاجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب من داخل قاعة الشعب الكُبْرَى. وتبثُّ تصويتاً داخل الاجتماعات على مجموعة من القرارات، تمَّت الموافقة عليها جميعاً بأغلبية ساحقة، وتزامن معها تصفيق مُدوٍّ داخل قاعة الشعب الكُبْرَى.

14

مات تشين يوخه قبل خمسة أيَّام. لم يهتمّ أحد لموته خلال أوَّل يومَيْن، وبالتالي لم يربط أحد بين موته وبين قضية لي شيوليان. وقبل ثلاثة أيَّام اكتشف المُحافِظ أمر موته بالصدفة، ثمَّ اكتشف الرابط بين موته وبين قضية لي شيوليان. في ذلك اليوم مرَّ المُحافِظ بسيَّارته من أمام مصنع السماد الذي كان تشين يوخه يعمل به. مصنع السماد يقع عند المدخل الغربي للمُحَافَظَة، ويمرُّ الطريق الرابط بين المُحَافَظَة والمدينة من هناك. شاهد المُحافِظ من نافذة سيَّارته تجمُّعاً لعدد من الناس أمام المصنع، وطوقاً من الزهور موضوعا أمام بوَّابة المصنع، وامرأة ترتدي ملابس الحِدَاد، معها طفل صغير، يرتدي ملابس الحِدَاد أيضاً، يجثوان على ركبَتَيْهما أمام طوق الزهور، ويرفعان لافتة، مكتوب عليها: "تشين يوخه، لقد ضاع دمكَ هَدَرَاً".

في البداية، لم ينتبه المُحافِظ للاسم، بل كان تركيزه مُنصبَّاً على هذا التجمهر أمام المصنع، ويريد أن يعرف السبب، فَطَلَبَ من سائقه أن يُوقِفَ السَّيَّارة، وَطَلَبَ من سكرتيره الجالس بجوار السائق أن يذهب ويستعلم عن الأمر قائلاً: "استفهمْ عن سبب هذا التجمهر، فهذا المدخل الغربي للمُحَافَظَة، وعلى الطريق العامِّ، حيثُ لا ينقطع سَيْل السَّيَّارات والمارَّة، وهذا أمر مرفوض".

نَزَلَ السكرتير من السَّيَّارة، ثمَّ عاد بعد خمس دقائق، وأخبر المُحافِظ بأن هناك سائقاً يعمل في هذا المصنع مات خلال حادث سَيْر، وهناك صراع بين عائلته وبين المصنع، بسبب التعويض. فَهِمَ المُحافِظ أن هذه

مشكلة داخلية خاصَّة بالمصنع، ولا ينبغي له أن يتدخَّل في أمور كهذه، فتدخُّل المسؤولين الكبار في هذه الأمور يزيدها تعقيداً، وتجاهُل مثل هذه الأمور يجعل الطرفَيْن يقدِّمان بعض التنازلات بعد أيَّام، ومن ثمَّ تنتهي المشكلة. هذا النوع من المشكلات لا يُحَلُّ إلَّا عن طريق التجاهُل، لذلك طَلَبَ من سائقه أن يواصل طريقه. وبعدما وَصَلَ مبنى المُحَافَظَة تذكَّر فجأة، وقال: "لماذا أشعر أن اسم تشين يوخه مألوف جدَّاً بالنسبة إليَّ؟". لم يتذكَّر السكرتير أيضاً مَنْ هو تشين يوخه، فسارع يُهاتِف رئيس مصنع السماد يسأله. وبمجرَّد أن دَخَلَ المُحافِظ إلى مكتبه، جاء السكرتير وَوَقَفَ خلفه، وقال: "لقد استعلمتُ عن الأمر، هذا المَدعوّ تشين يوخه هو الزوج السابق لتلك المرأة التي تدَّعي أنها مظلومة".

لم يلفت هذا الأمر انتباه المُحافِظ في البداية، ولكنْ، بعدما جَلَسَ على كرسيِّه، تذكَّر فجأة الرابط بين تشين يوخه وقضية لي شيوليان، فتحمَّس بشدَّة، وَضَرَبَ على الطاولة قائلاً: "هذا أمر غير عادي".

دُهش السكرتير، وسأله: "كيف هذا؟ أليس هذا حادث سيَّارة عادي؟".

قال المُحافِظ بحماس: "لو كان هذا الأمر يخصُّ شخصاً آخر، فهو حادث سَيْر عادي، ولكنْ، ما دام يخصُّ لي شيوليان، فهو غير عادي. سبب شكوى لي شيوليان هو علاقتها بزوجها السابق، وزوجها السابق مات الآن، فما سبب شكواها الآن؟".

فَهِمَ السكرتير ما يقصده المُحافِظ، وقال: "هذا الحادث جاء في مصلحتنا، إذنْ".

لم يكترث المُحافِظ للاستمرار في الحديث مع سكرتيره، بل سارع يُهاتِف رئيس المحكمة الموجود في بكين، للبحث عن لي شيوليان. استوعب رئيس المحكمة بسرعة قَصْد المُحافِظ، وقال: "هذا أمر جيِّد للغاية، فموت

تشين يوخه يعني إسدال الستار على قضية لي شيوليان، وبالتالي عدم وجود أساس لشكواها". ثمَّ استمرَّ يقول بحماسة: "يمكننا أن نعود أدراجنا الآن".

غضب المُحافِظ، وقال: "ليس هذا ما أقصده، أقصد أنه ما دام الأمر كذلك، فعليكم أن تُسرعوا في العثور عليها".

دُهش قائلاً: "ما دام لا يوجد أساس لشكواها، فلماذا علينا الاستمرار في البحث عنها؟".

قال المُحافِظ: "تشين يوخه مات لتوِّه، ومن غير المؤكَّد أن تكون لي شيوليان قد علمتْ بذلك، ولا يزال هناك خوف من أن تذهبَ وتقتحمَ قاعة الشعب الكُبْرَى".

قال رئيس المحكمة: "لم يعد هناك أساس لشكواها الآن، واقتحامها لقاعة الشعب الآن سيصبح أمراً غير مبرَّر، ولا داعي للقلق بهذا الشأن".

المُحافِظ: "يبدو أنكَ لا تعقل الأمور جيِّداً، لأنه لا أساس لشكواها الآن يتعيَّن علينا أن نمنعَها من الذهاب إلى قاعة الشعب الكُبْرَى، فلو حَدَثَ وَنَجَحَتْ في الوصول إلى هناك، فسوف يحاسبُنا المسؤولون الكبار بسبب تَرْكها تقتحم القاعة، وليس بسبب الشكوى، وسيكون هذا حادثاً سياسيَّاً كبيراً".

فَهِمَ رئيس المحكمة ما يقصده المُحافِظ، ولكنه جاء إلى بكين مع مُرافقيه منذُ أكثر من عشرة أيَّام، وعلى الرَّغْم من مساحة بكين الهائلة، فإنه بَحَثَ في جميع شوارعها وحاراتها، دون أن يعثرَ عليها، بل لم يجد أيَّ أثر أو خيط يصله بها. هل من السهل العثور على شخص في بكين؟ ولكن المُحافِظ لم يهتمّ بهذا، فقط قال له بلهجة حازمة: "عليكَ أن تجدَها بسرعة، لتُخبرَها أن زوجها السابق مات، وبهذا تكون أنهيتَ مهمَّتكَ".

ردَّ بحزن قائلاً: "فلنفترضْ أني عَثَرْتُ عليها، هي لن تُصدِّقني، لو أخبرتُها أن زوجها السابق مات".

شَعَرَ المُحافِظ أنه مُحقٌّ فيما قاله، فَخَطَرَتْ بباله فكرة إرسال تشين يوتساي ابن تشين يوخه ولي شيوليان إلى بكين. لو أخبرها أحدهم أن زوجها تُوفيِّ، فلربمَّا لن تُصدِّقه، ولكنْ، لو أخبرها ابنها أن أباه مات، فستُصدِّقه بالتأكيد. لذلك هَاتَفَ المُحافِظ رئيس الشرطة الموجود في بكين هو الآخر، وأخبره بالأنباء نفسها، ثمَّ أوصاه ألَّا يتراخى هو وفريقه خلال هذه الأيَّام الأخيرة من انعقاد الاجتماعات، وألا يترك أيَّ ثغرة أمام لي شيوليان لتقتحمَ القاعة، وإلَّا فسيكون العقاب شديداً من قِبَل كبار المسؤولين. وحذَّره أيضاً أن الكارثة غالباً ما تقع بسبب التراخي عندما يوشك الأمر على الانتهاء، وأن يتَّخذ العبرة ممَّا حَدَثَ قبل أسبوعَيْن حينما هَرَبَتْ من مراقبة الشرطة لها في بيتها، وأن الأمر أشدُّ خطورة الآن، فالمشكلة لو وَقَعَتْ ستكون في بكين وليس في المُحَافَظَة، وهذا مَكمَن الخطورة.

ومن أجل كَسْب الوقت، أرسل تشين يوتساي ابن لي شيوليان إلى بكين بواسطة سيَّارة شرطة تابعة للهيئة القَضَائيَّة، يرافقه واحد من نُوَّاب رئيس الهيئة القَضَائيَّة. نائب رئيس الهيئة القَضَائيَّة هذا أخبرَ رئيسه أن المُحافِظ أرسل رئيس الشرطة ومعه العشرات من أفراد الشرطة إلى بكين، للبحث عن لي شيوليان، في الوقت نفسه الذي أرسله هو وفريقه إلى بكين للبحث عنها أيضاً. في البداية لم يكن أحد يعرف بهذا الأمر داخل الدوائر القَضَائيَّة في المُحَافَظَة، ولكنهم لاحظوا اختفاء رئيس الشرطة منذُ أيَّام، وتسرَّب خبر إرسالهم إلى بكين. شَعَرَ رئيس المحكمة أن المُحافِظ خَدَعَهُ، وأرسل فريقاً آخر إلى بكين، للبحث عن لي شيوليان دون علْمه، وهذا يدلُّ على عدم ثقته فيه، ولا في أفراد الهيئة القَضَائيَّة. ولكنه شَعَرَ ببعض الطمأنينة أيضاً، فلو أخفق في العثور عليها، واقتحمت قاعة الشعب الكُبْرَى لن تكون المسؤولية مُلقاة على عاتقه وحده، بل سيتقاسمها معه رئيس مكتب الأمن

العامّ وفريقه. كما أن عدد أعضاء فريق مكتب الأمن العامّ يفوق أعضاء فريقه بكثير، ومن الطَّبيعيِّ أن يتحمَّلوا هم الجزء الأكبر من المسؤولية، كما أن تكاليف إقامة أفراد مكتب الأمن في بكين أكبر بكثير من تكاليف إقامة أعضاء فريقه. بخلاف هذا، فعلى الرَّغْمِ من أن المُحافِظ أرسل إليه تشين يوتساي، فإنه كان فاقداً للثقة في العثور عليها، ولكنْ، تبقَّت ثلاثة أيَّام، وتنتهي اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وحتَّى لو أخفق في العثور عليها، فالمُهِمُّ ألَّا تتسبَّب لهم في مشكلة، حينها سيعبرون الأزمة بسلام. لم يُخبرْ فريقه بما يفكِّر فيه، بل طَلَبَ أن يكثِّفوا بحثهم، وألَّا يتراخَوا، تماماً كما طَلَبَ منه المُحافِظ.

أخذ يحذِّر فريقه أن عليهم العثور على لي شيوليان قبل انتهاء الاجتماعات، وإلَّا فلو وَقَعَتْ مشكلة خلال الأيَّام الثلاثة القادمة، فستكون العاقبة وخيمة، وقبل أن يُقالَ من منصبه سيُقيلُهم جميعاً، وعلى الرَّغْمِ من أنه كان يُخيفهم بكلامه فحسب، فإنهم أخذوا كلامه على مَحمَل الجدِّ.

بَحَثَ الجميع عنها بعزم وجدٍّ أكثر ممَّا كان عليه الحال في الأيَّام العشرة الماضية، حيثُ لم يتبقَّ سوى ثلاثة أيَّام، وينتهي الأمر، المُهِمُّ الآن هو ألَّا يحدث أيُّ تقصير، فحدوث أيِّ خطأ في الأيَّام الأخيرة أشبه بمَنْ أفسد طَبْخَتَهُ، بسبب القليل من الملح.

يمكن القول إنهم لم يعثروا عليها، بل تصادف ذهابهم إلى السوق في أثناء انتظارها عودة قريبها من البنك. هذا أمر يعود الفضل فيه إلى سائق سيَّارة الإسعاف التابعة لمستشفى بلدة نيوتو. فلولا هذا السائق الذي ظلَّ يثرثر ويتذمَّر بسبب تأخُّرها في دَفْع المال، لم تكن لتأتيَ إلى هذا السوق في النهاية، ولم تكن لتقعَ هذه المصادفة. لا يهمُّ السبب الآن، المُهِمُّ هو أنهم شَعَرُوا بسعادة غامرة لعثورهم عليها، وكأن حِملاً ثقيلاً أُزيح عن كاهلهم. فعلى الرَّغْمِ من أن المُحافِظ خَدَعَهُ، وأرسل قوَّات الشرطة إلى

بكين في الوقت نفسه دون علْمه، فإنه هو مَنْ نَجَحَ في العثور على لي شيوليان، وهذا إنجاز يُحسَب له، ويعني أنه لم تكن هناك فائدة لإرسال تلك القوَّة المكوَّنة من عشرات الأفراد من الشرطة إلى بكين. وبينما كانت لي شيوليان منهارة تبكي وسط السوق، أدار رئيس المحكمة ظَهْره، وأمسك بهاتفه، واتَّصل بالمُحافِظ يُخبره بنبأ العثور عليها قائلاً: "أيُّها المُحافِظ، لقد نَجَحْنَا في العثور على لي شيوليان بعد جهود استمرَّتْ لعشرة أيَّام كاملة، وقد أخبرتُها بنبأ بوفاة تشين يوخه في حادث سيَّارة، أنْصِتْ! هي الآن تبكي خلفي، لقد علمتْ كلَّ شيء، وأيقنتْ أنه لا فائدة من شكواها الآن، ولن تذهب للتَّسلُّل إلى قاعة الشعب الكُبْرَى".

شَعَرَ المُحافِظ بالراحة والسعادة، وكأن حِمْلاً ثقيلاً أُزيح من على كاهله. ولكن شعوره بالراحة كان مُختلفاً. كان سعيداً لأن العثور على لي شيوليان هذه المرَّة يختلف عن العثور عليها في المرَّات السابقة، فهذه المرَّة تُوفِّي زوجها تشين يوخه، وهذا يعني أنها ليست فقط لن تتمكَّن من الشكوى هذه المرَّة، بل لن تتمكَّن من الشكوى بعد ذلك. لقد اجتُثَّت القضية من جذورها، ومَنْ قام بذلك هو المُتسبِّب فيها تشين يوخه بنفسه. ظلَّت لي شيوليان تشكو لعشرين عاماً، بسبب قضيَّتها معه، قضيَّتها التي كانت تكبر شيئاً فشيئاً مثل كرة الثلج، حبَّة سِمْسِم صارت ثمرة بِطِّيخ، نملة صغيرة صارت فيلاً ضخماً، وهو ما جَعَلَهَا تشتهر بأنها "مظلومة" هذا العصر، وها هو الستار الذي كان يغطِّي تلك المظلومة قد أُزيح، والأهمُّ من كلِّ هذا هو أن المُتسبِّب في هذا الظُّلم هو مَنْ أزاحه بنفسه، ولم يعد هناك وجود الآن لحبَّة السِّمْسِم ولا لثمرة البِطِّيخ، ولا للنملة الصغيرة أو الفيل الضخم. لم يحدثْ من قبل أن يكون موت أحدهم سبباً في شعور الآخرين بالراحة بهذا الشكل، ولهذه الأسباب كلّها، تغاضى المُحافِظ عن الأخطاء والمشكلات كافَّة التي تسبَّب فيها رئيس المحكمة، وَهَاتَفَهُ قائلاً: "أنا مُقدِّر لِتَعَبِكُم جميعاً، أَخْبِرْ جميع مَنْ معكَ أننا سنعدُّ مأدبة احتفال فور عودتكم إلى المُحَافَظَة".

فأجابه فَرِحاً: "أتوجَّه لسيادتكم بالشُّكْر نيابة عن الجميع، بعدما تنتهي لي شيوليان من بكائها، سنصحبها معنا، ونعود من فورنا إلى المُحَافَظَة".

وبعدما أنهى المكالمة، أمسك المُحافِظ بالهاتف ثانية، ليُهاتِفَ العُمدَة، فالمشكلة انتهت أخيراً، وعليه أن يُخبرَ العُمدَة بهذا النبأ السَّارِّ.

كان العُمدَة لا يزال في بكين لحضور اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب التي ستنتهي في الغد. أجاب العُمدَة على الهاتف، فأخبره المُحافِظ بتفاصيل موت تشين يوخه زوج لي شيوليان السابق. لم يقصد بإخبار العُمدَة بتلك التفاصيل أن يقول إن مشكلة لي شيوليان قد انتهت هذا العام، بل يقصد أن يُخبرَهُ أن مشكلتها قد انتهت إلى الأبد، وأنه لم يعد هناك وجود لحبة السِّمْسِم ولا للنملة، وبالتالي، فلا وجود للبِطِّيْخَة ولا للفيل. حقيقة الأمر أن العُمدَة كان قد علم بنبأ هروب لي شيوليان من شاندونج ليلة هروبها، فالسكرتير لم يكن ليجرؤ على إخفاء أمر كهذا عنه، ولكنه لم يهاتف المُحافِظ يُوبِّخه، لأنه يعلم أن التوبيخ لن يفيد، ولكنه شَعَرَ بخيبة الأمل التَّامَّة تجاه المُحافِظ. هو فقط أوصى السكرتير أن يحثَّ المُحافِظ بقوَّة على الإسراع في العثور عليها. فلو حَدَثَ وأخفق في العثور عليها، وَوَقَعَتْ مشكلة بسببها، فستحلُّ الكارثة على رؤوس الجميع. حدَّثَهُ العُمدَة وهو يتنهَّد بسبب علْمه بالمخاطر التي تُحدِق بمَنْ يمارس العمل السِّياسيَّ، وأن الناس ينظرون إلى مَنْ يمارس العمل السِّياسيَّ على أنه يعيش في برج عاجي، ولا يعرفون ما المتاعب التي يواجهها. لم يكن العُمدَة يتخيَّل أن تنتهيَ قضية لي شيوليان باختفاء حبَّة السِّمْسِم والنملة الصغيرة هكذا، فَشَعَرَ بالراحة والاطمئنان، ولكنه لم يكن سعيداً، كما كان الحال بالنسبة إلى المُحافِظ، فتحدَّث قائلاً: "هذا حادث غير متوقَّع".

اعتقد المُحافِظ أن العُمدَة يتحدَّث عن حادث السَّيَّارة الذي أودى

بحياة تشين يوخه، فسارع يقول: "بالفعل، كان حادثاً مُفاجِئاً، لقد انقلب بسيَّارته في النهر، ومات من فوره".

لكن العُمدَة قاطعه قائلاً: "لا أتحدَّث عن هذا، أنا أتحدَّث عن القضية نفسها، حُلَّت القضية بسبب هذا الحادث غير المتوقَّع، وليس بسبب مجهودنا نحن".

دُهش المُحافِظ من الكلام، بينما استمرَّ العُمدَة يقول: "على الرَّغْم من أن قضية لي شيوليان جرى حَلُّها، لكنَّ طريقة تفكيرنا وتعاملنا مع الأمور لم تتغيَّر، وكفاءتنا القيادية لم تتطوَّر، مستوانا الإداري لا يزال كما هو. أيُّها المُحافِظ، أُذكِّركَ ثانية ببعض الأقوال المأثورة كمقولة: "عشُّ النمل الصغير قد يهدم السَّدَّ المنيع"، وأيضاً مقولة: "الوقاية خير من العلاج"، و"الخسارة الكبيرة قد تأتي من الإهمال البسيط". ألم تتحدَّث عن النملة الصغيرة منذُ قليل؟ ظلَّت لي شيوليان تثير المشاكل على مدى عشرين عاماً، أين تكمن المشكلة، إذنْ؟ لو كان سبب المشكلة حادثاً كبيراً، فلن ألوم أحداً، ولكن الأمر لم يكن كذلك، المشكلة كلُّها بسبب تفاصيل دقيقة في حادث صغير للغاية. أيُّها المُحافِظ، خُذْها نصيحة منِّي، لا تظنّ أن الأمور قد انتهت بانتهاء مشكلة لي شيوليان، علينا أن نستخلص العِبْرة من القضية، وإلَّا فسوف تذهب لي شيوليان وتحلَّ محلَّها وانغ شيوليان".

لم يكن المُحافِظ يتخيَّل أن تنتهيَ مكالمته التي يزفُّ فيها هذا النبأ السَّارَّ إلى العُمدَة بهذا التوبيخ. شَعَرَ بالعَرَق البارد يتصبَّب من جَسَدِه، فأجاب قائلاً: "اطمئنّ، أيُّها العُمدَة، سوف أتعلَّم الدَّرْس جيِّداً ممَّا حَدَثَ. وسوف أُركِّز على التفاصيل بعد ذلك، وأهتمُّ بمقولة الوقاية خير من العلاج، وألَّا أترك مجالاً لوجود خسارة كبيرة، بسبب إهمال بسيط أو أن أترك عشَّ النمل الصغير يهدم السَّدَّ المنيع".

ردَّ العُمدَة قائلاً: "تذكَّرْ أيضاً أن تُعيدَ هذا المرأة بسرعة إلى المُحَافَظَة،

يمكنها أن تتسبَّب في أيِّ مشكلة، على الرَّغْمِ من انتهاء قضيَّتها. يتبقَّى يوم، وتنتهي اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، لا أريد أن تترك مشكلتها أيَّ أثر سلبي في بكين".

طَمأنَهُ المُحافِظ قائلاً: "اطمئنّ، أيُّها العُمدَة، هي الآن برُفْقَة أعضاء الهيئة القَضَائيَّة، سأطلب منهم أن يُعيدوها إلى المُحَافَظَة على الفور".

15

بعدما طَلَبَ العُمدَة من المُحافِظ إعادة لي شيوليان إلى المُحَافَظَة، طَلَبَ المُحافِظ، هو الآخر، من رئيس المحكمة إعادتها. لكنه لم يُعِدْها إلى المُحَافَظَة، ليس لأنه لا يرغب في ذلك، أو لأنها استماتت في رَفْض العودة، بل لأنها بعد انخراطها في نوبة البكاء الحادَّة سَقَطَتْ في غيبوبة. وأُصيب رئيس المحكمة ومَنْ معه بالذهول، فسارعوا ومعهم ابنها تشين يوتساي يحاولون إسعافها. في تلك الأثناء، عاد قريبها من البنك، فَحَمَلُوها جميعاً إلى الغرفة المستأجرة التي يقيم فيها خارج السوق. وَضَعُوها على الفراش داخل الغرفة، حيثُ كانت حرارتها مرتفعة للغاية، وَبَدَا من المؤكَّد أنهم لن يستطيعوا إعادتها إلى المُحَافَظَة على تلك الحالة. بالطبع كان بإمكانهم حَمْلَهَا وإعادتها إلى المُحَافَظَة دون أن تدري، لكنهم لم يجرؤوا على ذلك. خشوا أن يتفاقم مرضها وتموت في الطريق. موت تشين يوخه في حادث تسبَّب به لنفسه هو أمر جيِّد بالنسبة إليهم، أمَّا لو ماتت لي شيوليان بسببهم، فستكون مشكلة كبيرة. لم يعرف رئيس المحكمة كيف يتصرَّف، فَهَاتَفَ المُحافِظ كي يستشيرُه. لم يجرؤ المُحافِظ أيضاً أن يطلب إحضارها إلى المُحَافَظَة وهي بتلك الحالة، فَصَمَتَ طويلاً، ثمَّ قال: "هذا أمر مثير للإزعاج". استمرَّ في صمته لبعض الوقت، ثمَّ قال: "يتبقَّى يوم على انتهاء الاجتماعات، وما دمتُم غير قادرين على إعادتها الآن، فلتراقبوها جيِّداً، ولا تفارقوها حتَّى تنتهيَ الاجتماعات، بعدها يمكنُكُم أن تعودوا بأنفسكم".

بعدما وَصَلَتِ الأمور إلى هذا الحال، وَجَدُوا أنفسهم مضطرِّين إلى

مُرافقتها. استدعى رئيس المحكمة أعضاء فريقه، وقسَّمهم إلى خمس مجموعات، كلُّ واحدة منها من ثلاثة أشخاص، بحيثُ تتولىَّ كلُّ واحدة منها مراقبة الغرفة أربع ساعات بالتناوب. أمَّا هو ونائبه، فتبادلا الدَّوْر القياديَّ كلّ أربع ساعات أيضاً. ومن حسن حظِّهم أنها لم تفقْ من غيبوبتها حتَّى ظَهيرة اليوم التالي. ففي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي كانت الشاشة العملاقة فوق البناية المواجهة للسوق تبثُّ وقائع انتهاء اجتماعات المجلس الوطني لنُوَّاب الشعب، وأصوات التصفيق المُدوِّي تتعالى من مُكبِّرات الصوت؛ فَشَعَرُوا جميعاً بالفرحة العارمة، فها هي جهودهم على مدار بضعة عشر يوماً الماضية تُوِّجَتْ بالنجاح، وها هم جميعاً تحرَّروا أخيراً من هذا الحِمْل الثقيل. وتحرَّكوا جميعاً من السوق للعودة إلى محافظتهم. أمَّا تشين يوتساي، فَطَلَبَ البقاء للاعتناء بوالدته.

ظلَّت لي شيوليان راقدة في غيبوبتها بعد مُغادرتهم. وَفْقَاً لحالتها هذه من المُفترَض أن يجريَ إرسالها إلى المستشفى، لكن قريبها لم يتبقَّ لديه أيُّ مال بعدما سدَّد تكاليف المستشفى. ابنها هو الآخر لم يكن لديه فائض من المال، لذلك قرَّروا استدعاء طبيب الحَيِّ، ليُعلِّق لها بعض المحاليل الدَّوائيَّة داخل الغرفة. أفاقت لي شيوليان من غيبوبتها بعدها بيومَيْن، فقرَّر ابنها العودة لبلدته، ليُنهيَ بعض الأمور المُتعلِّقة بجنازة والده.

عندما استفاقت من غيبوبتها بعد يومَيْن. لم تكن تدري أين هي، ولكنْ بعدما حدَّقت في الغرفة حولها، أدركت أنها راقدة في غرفة قريبها لو شياويي. بعدها أخذت تستذكر تدريجياً الأحداث كافَّة التي سَبَقَتْ غيبوبتها. عَلَتِ الفرحة وجه لو شياويي عندما رآها تفتح عَيْنَيْها، وجهَّز لها طَبَقَاً من حَسَاء الأرز، وقدَّمه لها قائلاً: "كدتُ أموت قَلَقَاً عليكِ".

تحاملت على نفسها قائلة: "أنا آسفة، لقد تسبَّبتُ لكَ في الكثير من المتاعب".

لم يبدُ عليه أيُّ تذمُّر أو ضَجَر، وقاطعها قائلاً: "سلامتُكِ أهمُّ من أيِّ شيء".

بَدَتْ متأثِّرة وهي تقول: "لا تقلقْ بشأن المال الذي اقترضتُهُ منكَ، لديَّ بيت آخر في بلدتي، سوف أبيعه وأردُّ لكَ هذا المال".

قال: "أنتِ مثل أُختي الكُبْرَى، ولا تكليف بيننا".

انهمرت الدموع من عَيْنَيْها؛ فَنَصَحَهَا قائلاً: "يا أُختاه، لو كنتِ لا ترغبين في العودة إلى بلدتكِ بعدما تتحسَّن حالتكِ، يمكنكِ البقاء هنا، وسنبيع السمك معاً في السوق"؛ فلم تتمالك نفسها، وانخرطت في البكاء.

بعد ثلاثة أيَّام، تحسَّنت حالة لي شيوليان كثيراً، وصار بإمكانها النهوض من الفراش، وبعد ثلاثة أيَّام أُخرى، عادت إلى حالتها الطَّبيعيَّة. وبعدما رأى لو شياويي أنها استعادت عافيتها، عاد مُطمَئِنّاً إلى عمله في السوق لبَيْع السمك.

وفي صباح يوم لاحق، تناولا الإفطار معاً، ثمَّ غادر إلى السوق. بعدها غَسَلَتْ لي شيوليان الأطباق، وجهَّزت له الغداء، ثمَّ أحضرت ورقة، وكَتَبَتْ عليها: "لو شياويي، شكراً لكَ، لقد غادرتُ، وسوف أردُّ لكَ المال الذي اقترضتُهُ منكَ كما أخبرتُكَ".

حَمَلَتْ حقيبتها، وغادرت. لم تغادر، كي تعود إلى بيتها، بل لتبحثَ عن مكان، تنتحر فيه. كانت قد اختارت الطريقة التي تريد الانتحار بها، وهي الانتحار شَنْقاً. لم تفكِّر في الانتحار بسبب موت تشين يوخه وعدم تمكُّنها من الشكوى بعد ذلك، وعدم استطاعتها تبرئة نفسها، بل لأن موت تشين يوخه جَعَلَ من شكواها مثار سخرية، فشكواها لم تعد كالسابق، على مدار عشرين عاماً مَضَتْ، كانت شكواها مثل حبَّة السِّمْسِم التي صارت ثمرة بِطِّيْخ أو مثل النملة الصغيرة التي صارت فيلاً كبيراً، والآن لم تعد هناك لا

حبَّة سِمْسِم ولا نملة صغيرة. لقد انتفى أساس الشكوى، ولم يعد بإمكانها أن تشكوَ ثانية. انتفاء أساس الشكوى أصبح مثار سخرية، وبالتالي جَعَلَ من الشكوى نفسها مثار سخرية. الشكوى لم تصبح مثار سخرية فقط، بل صاحبة الشكوى هي أيضاً أصبحت مثار سخرية. فخسارة القضية ظُلم، ولكنَّ تحوُّلها إلى سخرية ليس ظُلماً، بل عار. لو كانت مظلومة يمكن أن تستمرَّ في حياتها مرفوعة الرأس، ولكنْ، كيف تعيش وهذا العار يلاحقها؟ كان هذا هو الشعور المسيطِر عليها. كما أنها كانت في حَيْرة من أمرها، بسبب البحث عن مكان تنتحر فيه. المنطق يقول إن عليها أن تذهب وتنتحر أمام بيت تشاو داتو أو أمام المحكمة أو مبنى حكومة المُحَافَظَة، أو حكومة المدينة، بحيثُ تتسبَّب لهم في متاعب للمرَّة الأخيرة قبل موتها. ولكنَّ إقدامها على التَّصرُّف بهذا الشكل هو مثار للسخرية أيضاً. وبهذا لن تكون حياتها فقط مثار سخرية، بل وموتها أيضاً.

غادرت وهي تفكِّر. لم تذهب إلى المدينة، بل سارت تجاه الضاحية. فكَّرَتْ في أن تعثر على مكان ناء، تنتحر فيه، وينتهي الأمر. ظلَّت تسير حتَّى الظَّهيرة، ثمَّ وَصَلَتْ أسفل أحد التلال، حيثُ توجد غابة من أشجار الكرز. خلال الأيَّام الماضية، كانت مستغرقة في غيبوبتها، ولم تلحظْ أن الربيع قد حلَّ، لم تكن تتخيَّل أن هذا وقت تفتُّح أزهار الكرز. سارت داخل الغابة، فَوَجَدَتْ أمامها كوخاً قديماً مفتوح الباب، وبداخله حصيرة وبعض أدوات الطعام، وأمام الكوخ منشار، يُستخدَم في تقليم الأشجار، وسُلَّم خشبي، وبعض الأدوات الأخرى؛ فَخَمَّنَتْ أن هذا الكوخ يعود للشخص المسؤول عن تقليم الأشجار. استمرَّتْ تسير بمحاذاة التَّلِّ، وكلَّما سارت لاحظت أن زهور أشجار الكرز تزداد حُمْرَة. توقَّفت أمام منحدر بديع المنظر، فقالت لنفسها: "فليكن هنا، إذنْ". ثمَّ نَظَرَتْ إلى زهور الكرز اليانعة، وقالت لنفسها: "كنتُ أبحث عن مكاء ناء، وفي النهاية، جئتُ هذا المكان المليء بالزهور".

فَتَحَتْ سحَّاب حقيبتها، وأَخرَجَتْ منه حبلاً، كانت أعدَّتْهُ سَلَفاً، ثمَّ تلفَّتَتْ حولها، واختارت إحدى الأشجار العالية، وعلَّقت عليها الحبلَ، ثمَّ نظَّفت المكان أسفل الشجرة، وأحضرتْ حَجَراً، كي تقفَ عليه، وتُعلِّق الحبل في رقبتها، ثمَّ تركل الحَجَر بقَدَمها، وتشنق نفسها.

لم تكد تقف فوق الحَجَر وتُعلِّق الحبل قي رقبتها حتَّى أمسك شخص بساقَيْها من الأسفل، وَرَفَعَها لأعلى وهو يلهث قائلاً: "أيَّتُها الأُخت، هل نحن أعداء؟ لماذا تؤذينني هكذا؟".

كان رجلاً خمسينيّاً، قال هذه العبارة، ثمَّ أنزلها على الأرض، واستمرَّ يقول: "أنا أُراقبكِ منذُ جئتِ إلى هنا، كنتُ أعتقد أنكِ جئتِ لتسرقي كوخي، ولم أكن أتخيَّل أنكِ تريدين الانتحار".

ردَّت بدهشة قائلة: "وما مشكلتكَ في أن أنتحر أم لا؟".

ردَّ مُغتاظاً: "استأجرتُ هذه الأرض، وبحلول الخريف يأتي الناس إلى هنا لقَطْف ثمار الكرز، ويدفعون أموالاً لا بأس بها، وخاصَّة القادمين من المدينة، ولو علم الناس أن شخصاً انتحر هنا، فَمَن الذي سيجرؤ على المجيء إلى هنا لاحقاً؟".

فَهِمَتْ لي شيوليان ما يقصده، ولم تكن تعرف أتضحك أم تبكي؟! فسألَتْهُ مُتعجِّبة: "وأين يمكنني الانتحار، إذنْ؟".

حدَّق فيها الرجل بدهشة، وقال: "أحقَّاً تريدين الانتحار؟".

قالت: "ما دام المرء ينوي الانتحار، فلن يستطيعَ أحد إيقافه".

سألها الرجل مُتعجِّباً: "ولماذا تريدين الانتحار؟".

قالت بفراغ صبر: "هذا موضوع طويل، يصعب شَرْحه، لو كان بإمكاني شَرْحه، لَمَا رغبتُ في الانتحار".

أشار الرجل إلى الجهة المقابلة من التَّلِّ قائلاً: "ما دمتِ ترغبين في الانتحار، يمكنكِ أن تذهبي إلى الحديقة التي في الجهة المقابلة، هي أيضاً حديقة كرز، مستأجرها اسمه لاوتساو، ونحن دوماً في تنافُس على جَذْب الزبائن، وكلُّها أشجار كرز في النهاية".

فور أن انتهى من جُملته، لم تستطع لي شيوليان تمالُك نفسها من الضحك.

الفصل الثالث
المَتْن / لِلَّهْوِ فقط

1

في الشارع الغربي بإحدى المحافظات، التابعة لإحدى المقاطعات، مطعم شهير، اسمه: "قرية جديدة". وقد ذاعت شهرة هذا المطعم بسبب طَبَق يُقدِّمه، اسمه: "اللَّحْم بالعَظْم". وهذا المطعم يبيع أيضاً الحَسَاء، والكعك، والمخلَّلات وأنواعا مُختلفة من المشروبات والخمور. لكنْ، كلُّها لا تختلف عن غيرها في المطاعم الأُخرى. فقط طَبَقُ "اللَّحْم بالعَظْم" لا مثيل له. المطاعم الأُخرى تطهو اللَّحْم في القدور الكبيرة، وعندما ينضج اللَّحْم ينفصل عن العَظْم تلقائياً، أمَّا في مطعم "قرية جديدة"، فاللَّحْم ينضج كُلِّيّاً دون أن ينفصل عن العَظْم. ويكون الطعم أشهى بكثير، ويستطيع الزبائن أن يمتصُّوا النخاع من العَظْم بعد تناوُل اللَّحْم. وبالحديث عن الطَّعْم، فهو مُختلف عن غيره كُلِّيّاً، قويّ النكهة، ذكيّ الرائحة، حارّ ولذيذ يذوب في الفم. كلُّ مَنْ يذهب إلى تلك المُحَافَظَة ويرغب في تناوُل وجبة فاخرة، يذهب إلى مطعم "الباسيفيك للمأكولات البَحْرِيَّة"، ومَنْ يرغب في تناوُل وجبة اقتصادية يذهب إلى مطعم "قرية جديدة" لتناوُل "اللَّحْم بالعَظْم". والطريقة الأمثل لتناوُله هي تناوُله فور شرائه، حيثُ يكون اللَّحْم ساخناً، قد غُرف لتوِّه من القِدْر، ويمكن للزبون شُرب بعض الخمر في أثناء تناوُل اللَّحْم الساخن وهو ما يضاعف من لذَّته.

مطعم "قرية جديدة" يجهِّز يومياً قِدْرَيْن كبيرَيْن من اللَّحْم، واحد في الظَّهيرة وآخر في المساء. والكلُّ يتلهَّف لشرائه، حيثُ يصطفُّ الزبائن في طابور طويل للشراء. كما أن هناك نظاماً خاصّاً بهذا المطعم، فعليكَ أن

تتناول وجبة أرز داخل المطعم حتَّى يتسنَّى لكَ شراء اللَّحْم، وغير مسموح بشراء اللَّحْم فقط. وحتَّى لو وافق الزبون على النظام، فمن غير المؤكَّد أيضاً أن يستطيع شراء اللَّحْم، فهذا يتوقَّف على عدد الزبائن، وموقعه وسط الطابور. وعادة ما كان القادمون من خارج المُحَافَظَة يسألون صاحب المطعم، واسمه لاوشي، قائلين: "ما دامت تجارتكَ رائجة هكذا، فلماذا لا تطهو المزيد من اللَّحْم، وليس قِدْرَيْن فقط يومياً؟".

وكان صاحب المطعم يردُّ دائماً: "لا أريد أن أُرهِقَ نفسي".

مكتبة
t.me/soramnqraa

2

لاوشي الآن يبلغ السِّتِّين من عُمُره، وبخلاف امتلاكه المطعم، فهو يُحبُّ لَعِبَ الماجيانج(*). وما دام مطعمه يُجهِّز قِدْرَيْن من اللَّحْم فقط يومياً، فغالباً ما يكون لديه وقت لِلَّعِب. وعلى الرَّغْم من ذلك، فلم يكن يُرهِق نفسَهُ في اللعب تماماً، كما لا يُرهِق نفسه في المطعم، فقط يلعب مرَّة واحدة أسبوعياً، وتوقيتها مُحدَّد، ثماني ساعات، بداية من الثالثة حتَّى الحادية عشرة كلّ خميس. ورفاقه في اللعب أيضاً محدَّدون: لاوبو صاحب مصنع الخمور، لاووانغ بائع التبغ بالجُملة، ولاوشيه صاحب نادي المسَّاج. تمرُّ الأيَّام والسنوات، ولا تتغيَّر هذه الرُّفْقَة، كما أن نِسَبَ الربح والخسارة بينهم في اللعب متقاربة للغاية، فهم، فقط، يلهون لمجرَّد قضاء الوقت معاً.

كانوا يلعبون داخل المطعم، فعند حلول عصر يوم الخميس، يُخلِي لاوشي إحدى الغرف، ويطلب من العاملين تجهيز أربع وجبات إضافية من "اللَّحْم بالعَظْم" له ولرفاقه، يتناولونها في أثناء اللعب. كانوا يحتسون الخمر أيضاً، حيثُ كان لاوبو صاحب مصنع الخمور يُحضر معه بعضاً من الخمر ماركة "الحصان الراكض فوق السهول". وهكذا، كانوا يتوقَّفون للأكل والشُّرب، ثمَّ يتابعون لعبهم.

---

*) لعبة صِينيَّة شهيرة، تشبه الدومينو.

3

وفي يوم، تلقَّى لاوشي مكالمة هاتفية من ابن خالته، يُخبره أن خالته المقيمة في مُقَاطَعَة لياوينغ بشَمَال شرق الصِّيْن تُوفِّيت، ويدعوه لحضور الجنازة. سأله لاوشي هل تَرَكَتِ الخالة أيَّ وصية قبل موتها؟ فأجابه ابن خالته قائلاً إنهم اكتشفوا موتها في الصباح، حيثُ تبيَّن أنها ماتت بسكتة قلبية خلال نومها، ولم تكن قد تَرَكَتْ وصية. تنهَّد لاوشي متحسِّراً، وقرَّر الذهاب إلى لياوينغ لحضور جنازة خالته. قراره بالذهاب لحضور جنازة خالته ليس لأنها لم تترك وصية وهو يريد أن يُلقيَ عليها النظرة الأخيرة قبل وداعها للأبد، بل لأنه تذكَّر إحسان خالته له في طفولته. فعندما كان صغيراً، التحق زوج خالته بالجيش في لياوينغ، واصطحب معه زوجته للعمل في مصنع النسيج هناك، واستقرَّا هناك لمدَّة خمس سنوات. كان لاوشي في الثامنة عندما عادا إلى مسقط رأسَيْهما. وعندما رآهما والد لاوشي ظنَّ أن لديهما الكثير من المال، فَطَلَبَ منهما أن يُقرضاه بعض المال، وقبل أن يردَّ زوج خالة لاوشي، رَفَضَتِ الخالة قائلة: "يا زوج أُختي، نحن لسنا نرفض إقراضكَ المال، ولكن أقاربنا الفقراء كثيرون، ولا نستطيع أن نُقرضكَ وحدكَ دون غيركَ من الأقارب، فلو أقرضْنا كلَّ مَنْ يطلب الاقتراض منهم سنضطرُّ لبَيْع ملابسنا".

بعدها استدعت الخالة لاوشي إلى جوارها، وَدَسَّتْ في يده يوانين دون علْم والدَيْه قائلة له: "أنا أوَّل مَنْ حَمَلَتْكَ بين ذراعَيْها فور ولادتكَ بيَدَيَّ هاتَيْن".

يوانان حينها يعادلان مائة يوان حالياً، فقد كانت مُرتَّبات العُمَّال وقتها بضعة عشرات من اليوانات. ظلَّ لاوشي مُحتفِظاً بهذا المال إلى أن التحق بالصَّفِّ السادس الابتدائي دون أن يُنفقَ منه شيئاً. وعندما التحق بالصَّفِّ السادس، أُعجب بإحدى زميلاته، فاقتطع مبلغاً صغيراً، واشترى لها منديلاً مُطرَّزاً. ولا يزال لاوشي يتذكَّر حتَّى الآن ذلك المنديل الذي طُرِّزت عليه صورة فراشة، تتنقَّل بين الأزهار.

المسافة من المُحَافَظَة التي يقطن فيها لاوشي إلى لياوياغ تزيد على ألف كيلو متر. سافر لاوشي متنقِّلاً بين المحطَّات وصولاً إلى لياوياغ، حيثُ كان ابن خالته في انتظاره، وبعد تقديم التعازي وانتهاء الجنازة، استقلَّ لاوشي القطار عائداً إلى مسقط رأسه. كان عليه أن يتوقَّف في بكين، ويستقلَّ القطار من هناك إلى بلدته، ولكنه اكتشف أن الوقت هو نهاية العام القمري، ومحطَّة بكين للقطارات مُكتظَّة بالرُّكَّاب المسافرين إلى مسقط رأسهم لقضاء عيد رأس السنة. انتظر لاوشي في طابور طويل لأربع ساعات من أجل شراء تذكرة القطار، ولكنه لم يتمكَّن من شراء تذكرة للعودة. ليس فقط لم يتمكَّن من شراء تذكرة للعودة في اليوم نفسه، بل للأيَّام الثلاثة اللَّاحقة. فالجميع كانوا يتهافتون على شراء التذاكر، لأن اليوم هو السابع والعشرون من آخر شهور السنة القمرية، وكلَّما اقتربت نهاية العام كلَّما شحَّت التذاكر. تذمَّر لاوشي ساخطاً على هذا التوقيت غير المناسب لوفاة خالته. ثمَّ عدل عن فكرته في العودة، وقرَّر البحث عن فندق، يقيم فيه حتَّى يوم العيد، حيثُ سيكون الجميع غادروا بالفعل، وستصبح التذاكر متوفِّرة، فهو شخص غير معتاد على العَجَلَة والتَّسرُّع عندما كان في مسقط رأسه، ولا داعي للعَجَلَة خلال وجوده في بكين الآن. غادر محطَّة القطارات، وسار ناحية الجنوب، حيثُ وَجَدَ زُقَاقاً به العديد من الفنادق الصغيرة، وكان الزُّقَاق مُكتظّاً بالعديد من المسافرين مُختلفي اللهجات، يحملون أمتعتهم. دَلَفَ إلى الزُّقَاق، وَدَخَلَ إلى أحد الفنادق، كي

يستعلم عن أسعار الإقامة، وحينها رنَّ جَرَسُ هاتفه؛ فأجاب على الهاتف. كان المتَّصل هو صديقه لاوبو صاحب مصنع الخمور، يُخبره أن أحد أقاربه جاء لزيارته، وسمع عن طَبَق "اللَّحْم بالعَظْم" الذي يشتهر به مطعم لاوشي، ويطلب منه أن يُوفِّر وجبة لقريبه. نَظَرَ لاوشي إلى ساعته، فَوَجَدَهَا قاربت السادسة مساء. لو كان لاوبو يقصده في أيِّ أمر آخر حتَّى لو كان اقتراض مال لم يكن لاوشي ليرفضَ طَلَبَهُ، ولكنَّ كَسْر القواعد المعمول بها في مطعمه هو أمر لا يجرؤ على القيام به، فهناك الكثيرون يصطفُّون في طابور أمام المطعم الآن، وهذا الوقت تحديداً من أكثر الأوقات ازدحاماً بالزبائن، وبينما كان لاوشي متردِّداً في موافقته، حَثَّهُ لاوبو قائلاً: "هذا قريبي، لا يمكنني رَفْض طَلَبه، سأذهب إليكَ الآن في المطعم".

ردَّ لاوشي: "أنا في بكين الآن".

دُهش لاوبو قائلاً: "هذا أمر لا يحتمل التأجيل".

لاوشي: "كلُّ هذا بسبب طَبَق من اللَّحْم؟ هل سيموت قريبكَ لو لم يتناولْهُ؟".

لاوبو: "أنا لا أتحدَّث عن اللَّحْم، اليوم هو الأربعاء، وغداً موعدنا لِلَعب الماجيانج".

تذكَّر لاوشي الموعد، وأن عليه الحضور في الثالثة من عصر الخميس للاجتماع برفاقه لِلَعب الورق حسب المعتاد، فسارع يقول: "لم أتمكَّن من شراء تذكرة العودة، يمكننا أن نُلغي اللعب هذا الأسبوع".

لاوبو: "لا يمكننا إلغاؤه، هذا أمر لا يحتمل التأجيل".

لاوشي: "لَعِبُ الماجيانج ليس بهذه الأهمِّيَّة، هل ستموت لو لم نلعب هذا الأسبوع؟".

لاوبو: "أنا لن أموت، ولكن لاوشيه سيموت".

لاوشي: "ماذا تعني؟".

لاوبو: "لاوشيه كان يشعر بالصداع منذُ أيَّام، فَذَهَبَ للفَحْص أوَّل أمس، وأخبره الطبيب أنه مُصاب بوَرَم في المخِّ، وسيجري عمليه لإزالته الأسبوع القادم، ولا نعرف الآن هل هذا الوَرَمُ حميد أم خبيث، لو كان حميداً، فالمشكلة بسيطة، ولكنْ، لو كان خبيثاً، فمن الصعب التَّكهُّن بما سيحدث، أنا حقَّاً أخشى أن تكون هذه هي المرَّة الأخيرة التي يلعب فيها لاوشيه الماجيانج برفقتنا".

قال هذه الكلمات، ثمَّ أنهى المكالمة، حتَّى إنه نسي أمر طَبَق "اللَّحْم بالعَظْم" الذي تحدَّث عنه في بداية المكالمة. شَعَرَ لاوشي أيضاً أن هذا الأمر لا يحتمل التأجيل. لاوشيه الذي تحدَّث عنه لاوبو هو أحد أصدقائه الأربعة الذين يجتمع معهم دوماً لِلَعب الورق، ويمتلك نادي مسَّاج في الشارع الجنوبي. لاوشيه هو الأقلّ مهارة بينهم في لَعِبِ الماجيانج، وعندما يربح يكون منتشياً، فيصفِّر ويغنِّي، وعندما يخسر يكون غاضباً، فيبصق ويسبُّ. ولكنْ، في أحد الأيَّام خلال الشتاء المنصرم، عرف لاوشي أن لاوشيه صديق مخلص وأصيل، فقد حَدَثَ أن تشاجر لاوشي مع زوجته، وشرب الكثير من الخمر، وكلَّما شرب اشتدَّ غضبه، وكلَّما اشتدَّ غضبه أسرف في الشُّرب، حتَّى صار ثمِلاً للغاية. بعدها لم يطق الجلوس في البيت، وعندما خَرَجَ اكتشف أن الثلوج تتساقط بشدَّة، ولم يعرف أين يذهب، فسار من الشارع الغربي وصولاً إلى الشارع الجنوبي، حيثُ يقع نادي المسَّاج الذي يملكه لاوشيه. تقدَّم وَدَخَلَ النادي، ثمَّ سَقَطَ مَغْشِيَّاً عليه فور دخوله. استيقظ في صباح اليوم التالي، ليجد نفسه راقداً على سرير داخله، وبجواره يجلس صديقه لاوشيه ومعه اثنان من العاملين. نَظَرَ

إلى ذراعه، فَوَجَدَ خرطوم محلول دوائي مُعلَّق بها، فأشار بذراعه الأُخرى إلى المحلول المُعلَّق، وسأل لاوشيه قائلاً: "ما هذا؟".

ردَّ أحد العُمَّال: "بالأمس سَقَطْتَ مَغْشِيّاً عليكَ، فَشَعَرَ السَّيِّد لاوشيه بالقلق عليكَ، واستدعى الطبيب على الفور".

لاوشي: "لقد كنتُ ثَمِلاً فقط، ما الذي يستدعي القلق".

ردَّ العامل الآخر: "قال الطبيب إنكَ محظوظ، لأننا استدعيناه على الفور، لقد كانت ضربات قلبكِ مُتسارِعة للغاية، ولولا نجدة الطبيب لربمَّا ساءت الأمور".

ردَّ لاوشي بعناد قائلاً: "كلُّنا سنموت في النهاية".

مَازحَهُ لاوشيه وقال: "لا تقلْ هذا، لو متَّ، فأين سنذهب لِلَعب الماجيانج بعد ذلك؟".

شَعَرَ لاوشي بدفءٍ في داخله. لم يشعر بالدفء لأن لاوشيه أنقذ حياته، بل لأنه علم مدى شهامة صديقه في هذا الوقت الحَرِج. وعندما علم الآن بنبأ إصابة لاوشيه بوَرَم في الدماغ، وأن حياته على المحكِّ، وأنه ربمَّا تكون تلك هي المرَّة الأخيرة التي يلعب فيها الماجيانج برفقته، وأن الأمر لا يحتمل التأجيل بالفعل، قرَّر أن يعود مهما حَدَثَ، بل وأن يعود قبل الثالثة عصر الغد حتَّى لا يفوتَهُ موعد لَعِب الماجيانج. ولكن المشكلة الآن أنه لا توجد تذاكر، فكيف يعود، إذنْ؟ خَرَجَ من الزُّقاق، وعاد إلى المحطَّة، انتظر أمام شبَّاك التذاكر، لعلَّه يجد مَنْ جاء لإرجاع تذكرته. ولكن الوقت الآن قبيل العيد، والجميع يرغبون في العودة، ومن الصعب أن يجد مَنْ يريد إرجاع تذكرته في هذا الوقت. ظلَّ يستجدي بائع التذاكر ويقول إن أحد أفراد عائلته مريض في حالة حرجة، ويريد أن يعود ليعتنيَ به، لكن بائع التذاكر

نَظَرَ إليه بتعاطف، وقال إنه قابل اليوم ما يزيد على ثلاثين حالة مثل حالته، ولكن مقاعد القطار محدودة، وجميع التذاكر قد نَفَدَتْ، ولا حيله لديه في إعطائه تذكرة إضافية. فكَّر لاوشي في البحث عن أحد سماسرة التذاكر الذين يبيعون التذاكر بأسعار مضاعفة، ولكن الشرطة كانت منتشرة في المكان، واختفى جميع السماسرة. وكما يقال: "الحاجة أُمُّ الاختراع"، ففي ذلك الوقت، لَمَعَت في ذهنه فكرة أُخرى، حيثُ أخرج من حقيبته ورقه بيضاء وقلماً، وَكَتَبَ عليها: "مَظْلَمَة"، ثمَّ وَقَفَ أمام المحطَّة، وَرَفَعَ الورقة عالياً.

لم تمرّ دقيقة حتَّى جاء أفراد الشرطة، وقاموا بطَرْحه أرضاً، واعتقاله.

4

المسؤولان عن إعادة لاوشي إلى بلدته هما مساعدا شرطة من بكين، واحد اسمه لاودونغ، والآخر اسمه لاوشيويه. ومساعدو الشرطة هم مَنْ يعاونون الشرطة في عملها، هم ليسوا من الشرطة، ولكنهم يقومون بأعمال الشرطة. القطار كان مُكتظّاً بالرُّكّاب، ولا يوجد أيُّ مقعد فارغ، ولكن إعادة شخص جاء للتَّظلُّم إلى مسقط رأسه لن تتقيَّد بحالة كهذه. فكلَّما اقترب العيد توجَّب مَنْع الناس من التَّظلُّم وإثارة الفوضى. ومن ثمَّ قام رئيس القطار بإخلاء سريرَيْن خاصَّيْن بالعاملين في القطار لمساعدي الشرطة والشاكي لاوشي. المتظلِّم ليس مجرماً أو مذنباً، ومن ثمَّ، لم يتعمَّد مساعدا الشرطة مضايقته. هما لم يتعمَّدا مضايقته فقط، بل كانا يعاملانه معاملة جيِّدة خوفاً من أن يهرب أو يثير المتاعب. رئيس القطار أخلى لهم سريرَيْن فقط، فَتَرَكَا واحداً للاوشي، وتزاحما معاً في الآخر. تحرَّك القطار، وتنفَّس لاوشي ملء رئَتَيْه. ظلَّ مساعداً الشرطة يراقبان تحرُّكاته، أمَّا لاوشي، فكان ينظر من النافذة دوماً. بعد قليل، سأله مساعد الشرطة لاودونغ قائلاً: "العيد على الأبواب، لماذا جئتَ إلى بكين لتتظلَّم؟".

ظلَّ لاوشي ينظر خارج النافذة وهو يقول: "الحديث معكما لن يجديَ، فلن يمكنكما حَلّ مشكلتي".

نَظَرَا لبعضهما بعضاً، وَشَعَرَا أن كلامه منطقي، فما الذي بإمكان مساعدَي شرطة فِعْله بخصوص الشكوى. ولأنهما يعرفان أنه ليس بإمكانهما

عمل شيء، نَصَحَهُ أحدهما قائلاً: "مشكلتكَ وَقَعَتْ في بلدتكَ، وعليكَ أن تحلَّ مشكلتكَ هناك، وليس في بكين".

وقال الآخر: "اطمئنّ، لا توجد مشكلة في هذا العالم بدون حلٍّ".

تحدَّثوا حتَّى حان موعد الطعام، اشترى لاودونغ ثلاث وجبات، وأعطى واحدة إلى لاوشي قائلاً: "تَنَاوُلُ الطعام لا علاقة له بالعمل". أخذ لاوشي منه الوجبة. وبعد قليل، طَلَبَ مساعد الشرطة ثلاث كؤوس من الشاي، أعطى كأساً منها إلى لاوشي، وقال: "تفضَّلِ الشاي"؛ فأخذ منه الشاي، وشربه.

أكلوا وشربوا وشعروا بالرغبة في النوم؛ فنام لاوشي أوَّلاً، وعندما رآه المساعدان مُستغرِقاً في النوم، قرَّرا أن ينام أحدهما، ويراقبه الآخر بالتناوب كلّ ثلاث ساعات، ولكنْ، عندما جاء الدَّوْر على لاوشيويه للمراقبة لم يتمالك نفسه، وتثاءب بشدَّة، واستلقى بجوار زميله، ولم يشعر بنفسه، ونام. وبعد مرور عدَّة ساعات، استيقظ فجأة مذعوراً، كان يخشى أن يكون لاوشي قد هَرَبَ خلال نومه، ولكنه شاهده راقداً في مكانه وعيناه مفتوحتان، يفكِّر في أمر ما، ولم يهرب كما ظنَّ. تنفَّس ملء رئَتَيْه، وأشار له بإبهامه يمتدحه قائلاً: "أنتَ رجل شهم وأمين".

5

نَزَلُوا من القطار في المدينة القريبة من مُحَافَظَة لاوشي، واستقلُّوا الحافلة لمدَّة ساعَتَيْن، وبحلول الثانية عصراً، وَصَلَ مساعدا الشرطة، يقتادان معهما لاوشي إلى قسم شرطة المُحَافَظَة التي يقطن فيها. العاملون في قسم شرطة المُحَافَظَة عادةً ما يذهبون إلى مطعم "قرية جديدة" لشراء طَبَق اللَّحْم بالعَظْم، وجميعهم يعرفون لاوشي جيِّداً. وعندما رأوه مع مساعدَي الشرطة القادمَيْن من بكين، واطَّلعوا على المحضر الذي بحوزتهما، لم يفهموا ما الأمر، فسارع الشّرطيّ المسؤول، واسمه لاوليو يسأله: "ماذا حَدَثَ، يا لاوشي؟ لماذا ذَهَبْتَ إلى بكين للشكوى، ولماذا اقتادوكَ إلى هنا ثانية؟".

أجابهم بالحقيقة قائلاً: "أنا لم أذهبْ للشكوى. أنا فقط كنتُ في بكين عائداً في طريقي إلى هنا، ولم أتمكَّن من شراء تذكرة للعودة، وأنا في عَجَلَة من أمري لِلَعب الماجيانج برُفْقَة أصدقائي، ومن ثمَّ لجأتُ إلى هذه الحيلة". ثمَّ تابع يقول: "أنا فقط ألهو". ثمَّ استدار بجَسَدِهِ، وغادر.

تسمَّر لاوليو مسؤول قسم الشرطة في مكانه، وكذلك مساعدا الشرطة لاودونغ ولاوشيويه. ثمَّ تحدَّث لاودونغ مُتلعثماً: "ما الذي يحدث؟ هل هناك مَنْ يلهو بهذه الطريقة؟". بينما خَبَطَ زميله بيده على الطاولة قائلاً: "كيف يجرؤ على القيام بفعل كهذا؟". ثمَّ أشار بيده إلى الباب حيثُ خَرَجَ لاوشي، وقال: "مَنْ يكون هذا الشخص؟".

شَرَحَ لهما مسؤول القسم لاوليو قائلاً: "هذا الشخص اسمه شي ويمين، قبل عشرين عاماً كان يشغل منصب المُحافِظ بإحدى المحافظات، ولكنه أُقيل من منصبه بسبب قضية طلاق امرأة، وربَّما كان مُتورِّطاً أيضاً في قضايا رِشَى وفساد. وبعدما أُقيلَ من منصبه، عاد إلى مسقط رأسه، ولكي يعيل عائلته ويُنفق على نفسه، افتتح مطعماً في الشارع الغربي للمُحَافَظَة، أسماه: "قرية جديدة"، هذا المطعم يقدِّم طبقاً مشهوراً، اسمه: "اللَّحْم بالعَظْم"، فجَدُّه كان طاهياً مشهوراً، وتَرَكَ له سرَّ طَهْو هذا الطَّبَق النادر، وعلى الرَّغْمِ من أن تجارة هذا المطعم رائجة، فإن مطعمه لا يطبخ سوى قِدْرَيْن من هذا اللَّحْم يومياً، وبخلاف هذا، فهوايته الوحيدة هي لَعِب الماجيانج رُفْقَة أربعة من أصدقائه عصر كلّ خميس، وهذا موعد، لا يتغيَّر مهما حَدَثَ.

6

بَدَا مساعدا الشرطة في حَيْرة من أمرهما. شَعَرَا بالغضب من لاوشي، ولكنهما شَعَرَا أيضاً بأن هذا أمر مضحك، ورغبا في لقائه، كما أنهما سمعا عن طبق "اللَّحْم بالعَظْم"، وَعَرَفَا تاريخ هذا الطَّبَق، وَشَعَرَا بالفضول تجاه هذا المطعم المُسمَّى: "قرية جديدة"، وما داما قد جاءا إلى هنا، فعليهما تذوُّق طَبَق "اللَّحْم بالعَظْم"؛ فَخَرَجَا من قسم الشرطة، وتوجَّها نحو المطعم. وعندما سمعتْهما العاملة يقولان إنهما جاءا لمقابلة لاوشي، اصطحبتْهما إلى الداخل، حيثُ كان لاوشي يلعب الماجيانج برُفْقَة أصدقائه الأربعة.

تقدَّم لاودونغ قائلاً: "لاوشي، يا لكَ من مُتهوِّر، هل يستحقُّ الأمر أن تقوم بخداع الحكومة والحزب من أجل لَعِب الماجيانج؟".

بينما تحدَّث لاوشيويه قائلاً: "هو لم يخدع الحكومة والحزب فقط، بل خَدَعَنَا نحن أيضاً".

استمرَّ لاوشي في لَعِبِهِ مع أصدقائه وهو يقول: "أنتُما تخلطان الأمور، على الحكومة والحزب، وعليكما أيضاً أن تشكروا الماجيانج".

دُهش لاوشيويه، وسأله: "ماذا تعني؟".

قال لاوشي: "كنتُ أريد التَّقدُّم بشكوى، ولكني غيَّرتُ فكرتي بسبب رغبتي في لَعِب الماجيانج، وإلَّا لكنتُ هربتُ منكما في القطار وأنتُما نائمان، لو كنتُ هربتُ منكما حينها، لصارتْ عاقبتكما وخيمة".

دُهشا من ردَّة فعله، فاستطرد لاودونغ يقول: "لا تحاوِلْ خداعنا، لو كنتَ تريد أن تشتكيَ يحب أن يكون هناك سبب للشكوى".

توقَّف لاوشي عن اللَّعِب، ونَظَرَ إليهما وقال: "قبل عشرين عاماً، كنتُ أشغل منصب مُحافِظ، هل تعرفان ذلك؟".

أجابه لاوشيويه: "سمعْنا عن هذا منذُ قليل".

تابع لاوشي: "كانت إقالتي من منصبي هي أقسى عقوبة ظالمة في العالم، وكنتُ أريد أن أتظلَّم طيلة العشرين عاماً الماضية، ولكني لم أرغب في أن أتسبَّب في متاعب للحكومة والحزب، ومن ثمَّ تحاملتُ على نفسي، وسكتُّ عن الظُّلم، وعدتُ إلى هنا، وافتتحتُ المطعم، وها أنتُما الآن تعترضان على قيامي بالشكوى؟".

استمرَّا في ذهولهما. بينما أشاح لهما لاوبو صاحب مصنع الخمور بيده مُعترِضاً، وقال: "كُفَّا عن الهُرَاء، نحن مشغولون في اللَّعِب". ثمَّ تحدَّث إلى لاووانغ صاحب متجر التبغ والخمور، وقال: "لماذا تتلكَّأ هكذا؟ هيَّا، ارمِ وَرَقَكَ". رمى لاووانغ ورقته، وتلاه لاوشيه صاحب نادي المسَّاج بورقة أكبر، وقال فَرِحاً: "لقد ربحتُ"، ثمَّ انخرط في الغناء والصفير، بينما أخذ لاووانغ يُلقي باللوم على لاوبو، لأنه استعجله في اللعب، أمَّا لاوشي، فكان يشاهد وهو يضحك.

7

خَرَجَ مُساعدا الشرطة إلى قاعة الطعام داخل المطعم، ينويان شراء طَبَقٍ من "اللَّحْم بالعَظْم"، ولكنهما اكتشفا طابوراً طويلاً، يمتدُّ لمئات الأمتار، في البداية، لم يلحظا هذا الطابور، ولكنهما علما أن هذا الطَّبَقَ ليس من السهل الحصول عليه. نَظَرَاً إلى القِدْر الكبير الذي لم يتبقَّ فيه الكثير، فَعَلِمَا أنه لن يأتيَهما الدَّوْر مهما انتظرا. تقدَّم لاودونغ، وتحدَّث إلى العامل، وقال إنهما من بكين، وسمعا عن شهرة هذا المطعم، وترجَّياه أن يبيعَهما ربع كيلو جرام فقط، كي يتذوَّقا طَعْم هذا اللَّحْم قبل مغادرة المُحَافَظَة. رَفَضَ العامل، وقال إنه لا يمكنه بيعهما ولا حتَّى جراماً واحداً دون الالتزام بالطابور، فالزبائن المنتظرون في الطابور قد يوسعونه ضَرْباً لو باع لأشخاص غير ملتزمين بالدَّوْر. استدارا مغادِرَيْن للبحث عن مطعم آخر، يتناولان فيه بعض الطعام. ولكنْ، في تلك الأثناء نادت عليهما العاملة التي اصطحبتْهما لمقابلة لاوشي، وقالت: "انتظرا من فضلكما".

التفتا نحوها، وسألها لاودونغ: "ما الأمر؟".

قالت العاملة: "صاحب المطعم يقول إنكما دعوتماه لتناوُل الطعام في القطار، وهو الآن يريد أن يردَّ الجميل، ويدعوكما لتناوُل الطعام".

نَظَرَا إلى بعضهما، ثمَّ دَخَلَا بصحبتها إلى غرفه منفصلة داخل المطعم، حيثُ كان هناك طَبَق من "اللَّحْم بالعَظْم" الساخن، وبجواره زُجاجَتَي خمر

ماركة "الحصان الراكض فوق السهول" فوق الطاولة، فَبَدَتِ السعادة على وجه لاوشيويه، وابتهج قائلاً: "لاوشي كان مسؤولا مُرتشياً في السابق، ولكنه الآن صار مواطناً صالحاً".

جَلَسَا على الطاولة، ثمَّ مدَّا أيديهما، وشرعا في تناوُل طَبَق "اللَّحْم بالعَظْم"، وبمجرَّد أن تناولا أوَّل قضمة حتَّى عَلِمَا كم هو لذيذ، فهو مُختلف عن غيره كُلِّيَّاً، قويّ النكهة، ذكيّ الرائحة، حارّ ولذيذ يذوب في الفم، وبعد تناوُله يمكنهما امتصاص النخاع من العَظْم. وفي العادة، لم يكونا يشربان الخمر كثيراً، ولكنْ، بالتزامن مع تناوُل هذا اللَّحْم الساخن، شربا زجاجة كاملة دون أن يشعرا بذلك، بعدما انتهيا من شُرب الزجاجة الأولى، فَتَحَ لاودونغ الزجاجة الثانية، وسأل زميله قائلاً: "ماذا سنقول للمسؤولين بعد عودتنا من هذه المهمَّة؟".

ردَّ زميله: "أعتقد أن علينا إخفاء الحقيقة، وإلَّا فسنصبح مثار سخرية".

قال لاودونغ: "لن نكون مثاراً للسخرية فقط، بل سنصبح أغبياء في نَظَرهم، ولربمَّا نُطرَد من عملنا".

قال زميله: "فلنقلْ، إذنْ، إننا أنهينا المهمَّة كما هو مطلوب". ثمَّ صَمَتَ قليلاً، وقال: "سنخبرهم أيضاً أن الشاكي اعترف في الطريق أنه لن يشتكيَ ثانية، ولن يعود لتكرار هذا الفعل مرَّة أُخرى، ولربمَّا نحصل على مكافأة من المسؤولين".

قال لاودونغ: "ما دمنا سنقول إنه اعترف بأنه لن يعود لهذا الفعل مجدَّداً، فسيتوجَّب علينا أن نكون على علْم بسبب الشكوى، ونُطلعهم عليه، فماذا سنقول، إذنْ؟".

لاوشيويه: "سنُخبرهم بالحقيقة، يمكنهم البحث في ملفَّاته القديمة،

وسيعرفون أنه كان يشغل منصب مُحافِظ بالفعل، وحينها سيبدو الأمر أكثر مصداقية".

لاودونغ: "صحيح، وما دام الأمر ذا مصداقية، وبهذا الحجم، فلن يسخر منَّا أو يعاقبنا أحد". ثمَّ رفع كأسه، وقال: "لنشربْ نخب نجاحنا".

رَفَعَ لاوشيويه هو الآخر كأسه، وخَبَطَ به كأس لاودونغ، ثمَّ تجرَّعا الكأسَيْن دفعة واحدة.

كان الليل قد أرخى سدوله. وبسبب اقتراب حلول العيد، بدأ الناس في إطلاق الألعاب النَّاريَّة خارج المطعم، حيثُ كان بإمكانهما رؤية أشكال الألعاب النَّاريَّة بألوانها الزاهية تتلألأ في أرجاء السماء من النافذة.

انتهت

بكين، يونيو 2102

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

«حكايةٌ بارعةٌ تجعلك تضحك حتى وأنت مُبتئس، إنها ببساطة هجاء خفيّ ماكر»... (*kirkus reviews*)

«كتبَ ليو قصةً بارعةً ستجعلك تضحك وتبكي. كلماتُه بسيطةٌ لكنّها ستظل باقية في ذاكرتك لفترة طويلة بعد أن تنتهي من قراءتها»... **المترجم الأمريكي الشهير هاوارد جولدبلات**

لي شيوليان، زوجة تشين يوخه، حامل بطفلهما الثاني. هل هذا خبر جيد؟ ليس في الصين، حيث قانون الطفل الأوحد، سيضعهما أمام المُساءلة القانونية. ليس ثمة خيار عدا الطلاق قبل ولادة الطفل. «ما أن يتم تسجيل الطفل في السجل المدني. سنتزوج ثانية، فلا يوجد أي قانون يمنع زوجين لدى كل واحد منهما طفل من الزواج». الخطةُ محكمة، وكل شيء محسوب، لولا أنَّ تشين لم يتزوج من امرأة أخرى غير لي بعد طلاقه ولولا أن الأخرى تنتظر طفلاً بدورها. يدفع الغضبُ لي تشيليان إلى اللجوء إلى القاضي وانغ قوانغ داو لتشرح له حقيقة الأمر، لكنها ليست سوى بداية معركة مريرة ضد نهج بأكمله. كوميديا عبثية ومثيرة للسخرية، لكنها كذلك عريضة اتهام قاسية ضدَّ قانون الطفل الأوحد، وانتقاد مباشر لشكل من أشكال الفساد في الصين.

«طلاق على الطريقة الصينية»، رواية ساخرة ولاذعة وتهكمية. أثارت ضجَّةً كبيرةً في الصين حين صدروها، وترجمت إلى 34 لغة، كما تحوَّلت إلى فيلم سينمائي، أثار بدوره هو الآخر ضجَّةً كبيرةً سببُها الطابع السِّياسيُّ الذي يحمله النَّص الأصلي.

الناشر

ISBN 978-88-32201-68-0

9 788832 201680

المتوسط

بيت الحكمة
BAYT ALHEKMA